

السيرة النبوية (٢)

IHIS2043



المحتويات

الدرس الأول	:	العلاقة بين السيرة والتاريخ العام، ونبذة عن المدينة المنورة قبل الإسلام، والهجرة وما حدث خلالها من معجزات	٧-٣٢
الدرس الثاني	:	وصول النبي ﷺ إلى المدينة، وبناء المسجد النبوي	٣٣-٥٤
الدرس الثالث	:	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وأهل الصفة، وصحيفة المدينة	٥٥-٧٤
الدرس الرابع	:	الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والنفاق وظهوره في المدينة المنورة، والإذن بالقتال، السرايا والغزوات قبل بدر الكبرى (طبيعتها، وأهدافها)	٧٥-٩٧
الدرس الخامس	:	غزوة بدر	٩٩-١١٩
الدرس السادس	:	تابع غزوة بدر وما بعدها من فداء الأسري وغيرها من الأمور	١٢١-١٤٢
الدرس السابع	:	غزوة أحد	١٤٣-١٦٣
الدرس الثامن	:	غزوة حمراء الأسد وغيرها من السرايا، وغزوة بني النضير	١٦٥-١٨٤
الدرس التاسع	:	غزوة الأحزاب (الخندق)	١٨٥-١٩٧
الدرس العاشر	:	غزوة بني قريظة، وغزوة بني المصطلق	١٩٩-٢٠٧
الدرس الحادي عشر	:	حادثة الإفك وملاحظات على غزوة بني المصطلق، و صلح الحديبية	٢٠٩-٢٣٢

الدرس الثاني عشر : فتح خيبر ٢٣٣-٢٤٨

الدرس الثالث عشر : تابع فتح خيبر ، وغزوة مؤتة ٢٤٩-٢٦٧

الدرس الرابع عشر : فتح مكة ٢٦٩-٢٩١

الدرس الخامس عشر : غزوة حنين ٢٩٣-٣٠٨

الدرس السادس عشر : غزوة تبوك، وعام الوفود ٣٠٩-٣٣٦

الدرس السابع عشر : حجة الوداع ٣٣٧-٣٥٨

الدرس الثامن عشر : نبذة عن أزواجه ﷺ وأخلاقه، وبعض من معجزاته ٣٥٩-٣٨٧

قائمة المراجع العامة : ٣٨٩-٣٩٢

العلاقة بين السيرة والتاريخ العام، ونبذة عن المدينة المنورة قبل الإسلام، والهجرة وما حدث خلالها من معجزات

عناصر الدرس

العنصر الأول : الحديث عما قدمه ابن سعد عن مرحلة المدينة المنورة، والإشارة إلى مصادر للسيرة النبوية ٩

العنصر الثاني : بيان أن السيرة بدأت باعتبارها جزءًا من الحديث النبوي الشريف ١٢

العنصر الثالث : انحصار التَّاريخ عند العرب في أخبار الماضين، وأحوال العرب قبل الإسلام ومراحل تطور الكتابة في التاريخ الإسلامي ١٣

العنصر الرابع : نبذة عن تاريخ المدينة المنورة قبل الإسلام من حيث موقعها، ومن حيث سكانها ١٥

العنصر الخامس : الكلام عن سكان المدينة قبل الهجرة، و حاجة الناس إلى الأمان ١٨

العنصر السادس : إخبار جبريل # للنبي ﷺ بتآمر المشركين عليه، والإذن له بالهجرة ٢٢

العنصر السابع : معجزات حدثت للنبي ﷺ والصدِّيق في الغار، وفشل كفار مكة في الوصول إليه ٢٦

العنصر الثامن : رحلة النبي ﷺ وهجرته من مكة إلى المدينة ٢٦

الحديث عمّا قدمه ابن سعد عن مرحلة المدينة المنورة، والإشارة إلى مصادر للسيرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف النبيين وإمام المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، ومن استنّ سنته وتبع هديه إلى يوم يبعث الناس لربّ العالمين.

أ. ما قدمه ابن سعد عن مرحلة المدينة المنورة:

تحدث ابن سعد عن مرحلة الجهاد في المدينة المنورة، وتحدث عن غزوات النبي ﷺ وعن سراياه ضد المشركين وضد اليهود، ثم عرض حِجَّةَ الوداع، وأخيرًا تحدث عن مرضه، وعن تمريضه، وعن موته، ودفنه ورثائه ﷺ، ويتبع ذلك كله بذكر ما كان يُفتى في المدينة ويقتضى به في عهد النبي ﷺ، وبعد ذلك يذكر ما يتعلق بجمع القرآن الكريم، ثم يذكر المفتين في المدينة المنورة بعد أصحاب النبي ﷺ من أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم، ومن ذلك كله نعرف أن ابن سعد أول من جمع علامات النبوة، واعتبر ذلك أساسًا سارت عليه الكتب المتأخرة التي عالجت موضوع دلائل النبوة، ويعتبر الفصل الذي كتبه عن صفة أخلاق النبي ﷺ سببًا في كتب الشمائل التي أُلِّفت بعد ذلك.

أما تراجم الصحابة والتابعين، فقد جعلها ابن سعد طبقات، بادئًا بالطبقة الكبرى، مراعيًا سبق الصحابي إلى الإسلام، ونصرته له، والجهاد من أجله؛ لذلك كان البدريون هم الطبقة الأولى عنده، ثم الطبقة الثانية وهم المهاجرون والأنصار الذين لم يشهدوا بدرًا، ثم الصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة، وهو بذلك راعى العنصر الزمني، فقد بدأ الطبقة الأولى برسول الله ﷺ ثم الأقرب إليه

من حيث النسب، أما الطبقة الثانية: فهم الذين أسلموا قديمًا ولم يشهدوا بدرًا، وكان عامتهم قد هاجر إلى الحبشة، ثم من شهد أحدًا وما بعدها. والطبقة الثالثة: من شهد غزوة الخندق وما بعدها. والطبقة الرابعة: من أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك. أما الطبقة الخامسة: فخاصة بمن قبض رسول الله ﷺ وهم حديثو السن، ولم يغزُ أحد منهم معه ﷺ.

ثم تناول ابن سعد طبقات التابعين ومن تلاهم، لكنه هنا راعى العامل الجغرافي، فترجم أولًا للصحابة والتابعين على أساس المدن التي نزلوها، فبدأ بالمدينة المنورة، وقسّم مَن ترجم لهم إلى طبقات، ثم مَن نزل بمكة منهم وقسمهم أيضًا إلى طبقات، ثم من كان في الطائف، ثم اليمن، ثم اليمامة، والبحرين، والكوفة، والبصرة، وواسط، والمدائن، وبغداد وخراسان، والشام، والجزيرة، ومصر، وأيلة، وإفريقية، والأندلس، وفي كل الأمصار ماعدا المدينة المنورة.

يستهل ابن سعد حديثه بمن نزل هذا المصر من الأمصار الأخرى، ثم يثني بأهل العلم الذين أخذوا عن الصحابة، ثم يذكر الطبقة التي تلي هؤلاء، ويستمر على هذا النهج حتى عصره. وفي قسم النساء يبدأ بأم المؤمنين السيدة خديجة < ، ثم يثني ببنات الرسول ﷺ، ثم يذكر عماته وبنات عمومته وأزواجه، ثم النساء المسلمات المُبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم، ثم غرائب نساء العرب المسلمات المهاجرات المبايعات، ثم نساء الأنصار، ثم من لم ترو عن رسول الله ﷺ من النساء وروين عن أزواجهن وغيرهن.

وللتراجم عند ابن سعد مستويات، فكان يتحدّث باستفاضة عند ترجمته لكبار الصحابة وكبار التابعين من المتقدمين، ويوجز كلما ابتعدنا عن الطبقة الأولى وتأخر الدخول في الإسلام.

ويحرص ابن سعد على ذكر الصفات التي تتسق مع الشخصية المترجم لها، فيبدأ بتحقيق نسبها من حيث الأب والأم، ثم يتحدث عن الأولاد وعن أمهاتهم وعن نسب هؤلاء، ويبين هل بقيت ذرية الصحابي المترجم له في المدينة المنورة أم رحلت عنها، كما يبين وقت دخوله إلى الإسلام، وترتيبه بين الداخلين، وهل اشترك الصحابي في الهجرة الأولى أو الثانية إلى الحبشة، وأخيرًا يصف كيف توفي الصحابي وزمن هذه الوفاة، وما يتعلق بالجثمان والصلاة عليه ودفنه، ويحرص على وصف المظهر الخارجي للصحابي من حيث الثياب والخاتم والعمامة، ولا ينسى الحديث عن وصية الصحابي والإشهاد عليها، ولا يقل القسم الخاص بالنساء عن غيره من حيث بيان ما قامت به المُتَرْجَم لها من مجهودات، كل ذلك يؤكّد لنا أنهنّ كنّ مصدرًا خصبًا وشاهدات على الحديث النبوي الشريف.

ويلاحظ العلماء على هذا الكتاب الهام لابن سعد عدّة ملاحظات:

الأولى: أن شخصيته تكاد تتوارى، أو هي بالفعل تتوارى إزاء كثرة الروايات التي يذكرها، فلا ترى له تعليقًا إلا فيما ندر، وإذا ما وجد فإنه يعبّر عن مقدرة نقدية ممتازة لدى ابن سعد.

الثانية: ظهور بعض الإسرائيليات في الطبقات أخذًا مما أشاعه اليهود الذين أسلموا في الصدر الأول من أمثال: وهب بن منبه، وكعب الأحبار، وغير هؤلاء.

الثالثة: التزام ابن سعد بالطريقة الحولية، واعتماده عنصري الزمان والمكان، وكان ذلك سببًا في تمزيق الحوادث، وتفتيت الموضوعات؛ فلم تجمعها وحدة واحدة.

الرابعة: قطع الروايات قبل أن تكتمل، وجمع أسانيد متعددة لمتن واحد، وقد تقتصر الترجمة على سطر أو على عدة أسطر إذا كان المترجم له قريبًا من عصر المؤلف.

الخامسة: أنه لا يذكر المصادر التي نقل عنها، واعتمد على ذكره للسند الذي يصل بالخبر إلى قائله وبالوقائع إلى مؤلفي الكتب.

السادسة: أتى في مصادر رواته ببعض من يضعفهم علماء الجرح والتعديل، مثل: هشام بن السائب، وأبي معشر، وغير هؤلاء، وبالرغم من هذا فإن للكتاب قيمة علمية لا ينكرها منصف.

ب. مصادر للسيرة النبوية (سيرة ابن هشام):

وممن يُؤخذ برواياتهم لأحداث السيرة النبوية المباركة ابن هشام صاحب الفضل الأول في الاحتفاظ لنا بـ(سيرة ابن إسحاق)، برواية أستاذه البكائي.

من الثقات الذين كتبوا في السيرة النبوية:

الحافظ ابن حجر، والحافظ ابن عساكر، والحافظ النسوي، والحافظ الذهبي، ومحمد يوسف الصالحي الشامي صاحب (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد)، وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة منها أكثر من أحد عشر مجلدًا كبيرًا، وقد جمعها صاحبها من نحو ثلاثمائة كتاب، وجاءت في نحو سبعمائة باب.

بيان أن السيرة بدأت باعتبارها جزءًا من الحديث النبوي الشريف

يتضح من كل ما سبق وذكرته أن السيرة النبوية جزء لا يتجزأ من الحديث النبوي الشريف، إنها التطبيق العملي النموذجي للإسلام، وإنها أمثل أسلوب لتعليم سياسة الدنيا والدين على النحو الذي نقل إلينا عن رسول الله للبشر ﷺ.

ثم حدث أن اتسعت الدولة الإسلامية، وانتشرت الفتوحات زمن الخلفاء الراشدين، ووقعت الفتن العظمى، ونبض عرق العصبية القبلية، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم القديمة، والديانات غير الإسلامية على يد أمثال كعب

الأحبار الذي توفي سنة (٣٤هـ)، وعبيد بن شريه المتوفى نحو سنة (٧٠هـ)، ووهب بن منبه الذي أشرنا إليه من قبل، والذي توفي نحو سنة (١١٠هـ)، ومعنى ذلك أن هناك دواعٍ وأسباب دعت إلى جمع الأخبار المتعلّقة بكل ذلك وتدوينها، إنها الرغبة في فهم الإشارات التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة خاصّة بالأمم السّابقة، ومنها ميل الملوك أمثال: معاوية، وأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي إلى الاطلاع على سياسات الملوك السابقين ومكايدهم، كما احتاج الشعراء إلى تدوين الأنساب وأيام العرب لاستخدامها في مقام الفخر والهجاء، بل إن الدولة الإسلامية نفسها احتاجت للأنساب للاستعانة بها في تقدير العطاء للجند، وقد كان ذلك العطاء -يعني: المرتبات- يحدد بناء على القرابة من الرسول ﷺ مع السبق إلى الإسلام. أما الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتوح؛ فهو رغبة أولي الأمر في معرفة ما فتح من البلاد صُلحًا، وما فتح عنوة، وما فتح بعهد؛ لأن لكل حالة من ذلك حكمها من حيث الجزية والخراج، كل ذلك يجعلنا نقول: إنه نشأ نوع من العلاقة بين الأخبار وبين السيرة النبوية المباركة، أو أن الرواية التاريخية أصبح لها وجود بجوار السنة النبوية الشريفة.

انحصار التّاريخ عند العرب في أخبار الماضين، وأحوال العرب قبل الإسلام ومراحل تطور الكتابة في التاريخ الإسلامي

رُسمت في أواخر القرن الثاني الهجري الأبواب الأساسية للتاريخ عند العرب، وانحصرت في أمور أربعة:

الأول: أخبار الماضين.

الثاني: أحوال العرب قبل الإسلام.

الثالث: السيرة النبوية المباركة.

الرابع: أخبار الدولة الإسلامية.

وفي أوائل القرن الثالث الهجري إلى أوائل القرن الرابع الهجري، لوحظت زيادة جوهرية في المادة التاريخية، مع دقة وتحرر في مصادرها زمن الدولة العباسية؛ ذلك لأن الدواوين التي بدأت في عهد الدولة الأموية استقرت زمن الدولة العباسية، ولا سيما ديوان الإنشاء، وديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان البريد، واندفع المشتغلون بصناعة التاريخ، وفي نفس العصر قويت حركة الترجمة، كما كانت سهولة التنقل بين أرجاء الدولة الإسلامية المختلفة عاملًا مهمًّا ساعد المؤرخين على السفر طلبًا للرواية وأخذها عن الشيوخ، وتوفر بذلك مصدر هام للمؤرخين هو المشافهة والمشاهدة؛ ولهذا فقد حدّد مؤرخو القرن الثالث مصادر التاريخ في أربعة أشياء، هي:

الأول: كتب السيرة والأخبار. **الثاني:** السجلات الرسمية.

الثالث: الكتب المترجمة. **الرابع:** المشاهدة والمشافهة.

وهكذا أخذ التاريخ مظهره الرائع باعتباره من أجلّ علوم المسلمين، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الإسلامية، كرجال لهم خطرهم في الحياة العامة سياسية أو غير سياسية.

وفي منتصف القرن الثالث الهجري بدأت الوحدة السياسية للدولة العباسية تتلاشى، وتحوّلت الدولة إلى دويلات يحكمها متغلبون أجناسهم مختلفة، وجرت اللامركزية السياسية إلى لامركزية أدبية، وتوزعت الثقافات على الأمصار بعد أن كانت الثقافة محصورة في مركز الخلافة وحدها، وكثر العلماء في الأمصار المختلفة

كثرة عظيمة، وكل ذلك أثّر فيما ظهر ابتداء من منتصف القرن الثالث الهجري، من تواريخ محلية ومن كتب للتراجم والطبقات؛ خاصة مع استمرار سلسلة التواريخ العامة مطردة من حيث انتهى الطبري، فوضع كل من المسعودي، وأبي الفداء، وابن مسكويه، وابن الأثير، وابن خلدون وغير هؤلاء، وضع كل هؤلاء مؤلفاتهم التاريخية. وبعد انهيار الخلافة العباسية، نحا المؤرخ الإسلامي منحى فلسفيًّا عميقًا، ويحاول معرفة علل الحوادث، وأسباب قيام الدول وعوامل سقوطها، ومظاهر العمران إلى غير ذلك.

وصل هذا الاتجاه ذروته على يدي ابن خلدون في مقدمة تاريخه الشهيرة، واستحقّ لهذا أن يكون ابن خلدون فيلسوف مؤرخي العرب قاطبةً، ثم أخيرًا أصبح علم التاريخ نفسه محلًّا للبحث والدراسة على يدي أمثال الصفدي والسخاوي، وغيرهم.

تلك لمحة سريعة عن تطور الكتابة التاريخية، وما مرت به من مراحل وأطوار بعد انفصالها عن السيرة النبوية المشرفة وعن علم الحديث، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم.

نبذة عن تاريخ المدينة المنورة قبل الإسلام من حيث موقعها، ومن حيث سكانها

تاريخ المدينة المنورة قبل الإسلامة:

يثرب هو الاسم القديم للمدينة المنورة، وقد ورد هذا الاسم في الكتابات المعينية - الدولة المعينية- مما يدل على قدم هذا الاسم، ويثرب هذه واحة خصبة التربة، كثيرة المياه، تحيط بها الحرات من جهاتها الأربع، ويقع جبل أحد في شمالها، وجبل عير في جنوبها الغربي، وفيها عدة وديان، وهي منحدرة من الجنوب إلى الشمال.

وللمدينة المنورة خمسة وتسعون اسمًا، وكثرة الأسماء كما يقول العلماء تدل على شرف المسمى.

وقد سماها النبي ﷺ المدينة المنورة، ونهى عن أن تسمّى باسم يثرب، هذا النهي أخرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة > يقول: إن رسول الله ﷺ قال: ((أمرتُ بقرية تأكل القرى يقولون يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد)). وروى أنه ﷺ قال: ((من سمّى المدينة يثرب، فليستغفر الله؛ هي طابة هي طابة هي طابة)). إما لكون ذلك الاسم يثرب مأخوذ من الثرب وهو الفساد، وإما من التثريب؛ وهو المؤاخذة بالذنب.

وقِيل: إن اسم طابة مذكور في التوراة علمًا على المدينة، وهي المدخل الصدق الذي جاء في قول الله ﷻ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠].

العنصر الأول: أصل سكان المدينة:

يقال: إن أهل المدينة من غير عدنان، وأن أصلهم من اليمن في جملة مَن هجرها بعد سيل العرم، والمشهور عند العرب أن أول من نزلها هم العماليق الذين يرجع نسبهم إلى سام بن نوح، وقد أقامت فيها قبائل ثم نزلها اليهود، وقيل: إنهم أتوها من أيام سيدنا موسى في أثناء حربه مع الكنعانيين، أو أنهم أتوها فرارًا من اضطهاد الرومانه في سنة سبعين بعد الميلاد، وليس هناك اتفاق على المكان الذي هاجروا منه، ولا على الزمان الذي قدموا فيه.

وهناك من يميل إلى أنهم نزحوا من الشام في القرنين الأول والثاني للميلاد بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سورية ومصر في القرن الأول قبل الميلاد، كما أن

اليهود قد هجروا إلى شبه جزيرة العرب بعيدًا عن سيطرة الرومان، ولكن يبدوا أن هجرتهم اشتدّت إلى الحجاز بعد فشل تمرّدهم ضدّ الرومان عام سبعين ميلادية، كما أن بعضهم وصل إلى يثرب، ووصلت مجموعة أخرى منهم بعد فشل ثورة أخرى، وشكّل هؤلاء جميعًا اليهود، أو الجالية اليهودية التي كانت موجودة في الجزيرة العربية في المدينة وفي الحجاز.

وقد استقرّ يهود بني النضير وبني قريظة في منطقة يثرب لخصوبة ترتبها، وأهمية موقعها التِّجاري على طريق القوافل إلى بلاد الشام، واستقرّ يهود بني قريظة وبني النديم في حرّة وأقموا شرق يثرب، وهي أخصب بقاعها، أما بنو قينقاع فقد اختلفت الآراء بشأنهم، كما اختلفت بشأن البطون الأخرى من اليهود، هل هم عرب تهوّدوا؟ أو أنهم نَزَحوا مع النازحين إلى الحجاز؟ ولم تذكر لنا المصادر إحصائية بعدد اليهود، ولكن كتب السيرة ذكرت أن عدد المقاتلين من الرجال البالغين كانوا سبعمائة من بني قينقاع، ومثلهم تقريبًا من بني النضير، وما بين السبعمائة والتسعمائة من بني قريظة، فهم جميعًا أزيد من ألفين قليلًا، بخلاف البطون اليهودية الأخرى التي تناثرت في يثرب، والتي تزيد على عشرين بطنًا.

وقد ترك اليهود طابعهم على يثرب، وتأثّروا بالقبائل العربية التي تحيط بها، لقد نقلوا من الشام فكرة الآطام التي بلغ عددها تسعة وخمسين أطمًا كما حملوا معهم خبرتهم الزراعية والصناعية، وهذا ما يفسّر ازدهار بساتين يثرب بما فيها من نخيل وأعناب وفواكه وحبوب، كما ظهر الاهتمام بتربية الدواجن والماشية، وبرزت صناعات النسيج وكل ما يلزم المجتمع الزراعي، كما أثَّرَ اليهودُ في عربِ المدينة، وتأثر العرب بهم أيضًا، فظهرت بينهم بعض الطبائع العربية، وجدنا عندهم شيئًا من العصبية، ووجدنا عندهم الكرم، والاهتمام بالشعر، والتدريب على السلاح.

العنصر الثاني: الذين سكنوا المدينة المنورة:

هم العرب، وكانوا من الأوس والخزرج، وقد اضطروا إلى سكنى الأماكن المهجورة من يثرب بعد أن سبقهم اليهود إليها، واحتلّوا أخصب بقاعها وأعذب مياهها، وينتمي الأوس والخزرج إلى قبيلة الأزد اليمنية التي خرجت من اليمن إلى الشمال.

وقد استقرّ الأوس والخزرج في يثرب مجاورين لليهود؛ حيث سكنتْ الأوس منطقة العوالي، بجوار قريظة وبني النضير، وسكنت الخزرج سافلة المدينة بجوار بني قينقاع، وكانت ديار الأوس أخصب، ما ترتب عليه الصراع بين الطرفين. لقد كان لليهود نفوذهم فهم يمتلكون الأراضي الزراعية والأموال بينما كان الأوس والخزرج في ضنك، يعملون في أراضي اليهود ويدفعون لهم مالًا.

أصبحت السيادة للأوس والخزرج بيثرب بعد أن نَمّوا اقتصادهم واستعانوا بإخوانهم غساسنة الشام في صراعهم مع اليهود، فمالت الكفّة لصالح العرب، وغُلب اليهود وذُلّوا، وبقيت بأيدهم حتى جاء الإسلام، ولقوا النبي ﷺ عند العقبة وهم جماعة واحدة، وهاجر النبي ﷺ وهم رؤساء يثرب وحكّامها، ثم دخلوا جميعًا الإسلام وأصبحوا جميعًا يكونون جماعة الأنصار.

الكلام عن سكان المدينة قبل الهجرة، و حاجة الناس إلى الأمان

أ. سكان المدينة قبل الهجرة:

كانت عناصر السكان أربعة، هم: القضاعيون، الخزرج، الأوس، ثم اليهود، هذه العناصر الأربعة هي التي كانت تعمّر سهل المدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليه.

أما القضاعيون: فهم قاعدة المجتمع في المدينة، يعملون لدى القبائل الأخرى، وكانوا حاقدين على اليهود، وعلى الأوس والخزرج جميعًا، بسبب استغلالهم

لهم، وعجزالقضاعيين عن إقامة كيان قبلي مستقلّ لهم، يستطيع الثبات في وجه الطوائف الثلاث السائدة.

أما قبيلتا الأوس والخزرج: فقد استقرتا في يثرب مجاورتين لليهود؛ حيث سكنتْ الأوس في منطقة العوالي، بجوار قريظة وبني النضير، وسكنت الخزرج سافلة المدينة بجوار بني قينقاع، وكانت ديار الأوس أخصب، الشيء الذي ترتب عليه الصراع بين الطرفين، وكانت القبيلتان تعيشان حياة الضنك، يعملون في أراضي اليهود.

وبمرور الأيام تمكن عرب الأوس والخزرج من تكوين الثروات وتنمية نشاطهم الاقتصادي، وبدأ الصراع والقتال مع اليهود، وانتهى لصالح اليهود، فاستنجد الأوس والخزرج بإخوانهم غساسنة الشام، فمالت الكفّة لصالح العرب، وغُلب اليهود وذُلّوا. وأصبحت السيادة للأوس والخزرج بيثرب، وبقيت بأيدهم حتى جاء الإسلام.

أما اليهود: فكانوا موزّعين في ثلاث مجموعات قبلية رئيسية هي: بنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو النضير، وكانت هناك مجموعات يهودية صغيرة أخرى تعيش في حلف فروع من الأوس أو الخزرج، فيقال: يهود بني عوف، ويهود بني ساعدة، وغير ذلك، وقد أورد المؤرخون أسماء الكثير من فروع اليهود الصغيرة هذه، ذُكر عدد منها في الوثيقة، أو الدستور الذي كتبه الرسول ﷺ بين أهل المدينة.

ب. حاجة الناس إلى الأمان:

احتاجت تلك المجتمعات إلى الأمان، والذي يتمثل في صورة نظام عادل يتراضى عليه الناس، ويطمئنون إليه، يقوم عليه شخص أو أكثر من ذوي الحكمة، والعدالة، والشخصية القوية، فيكون هذه الشخص أو هؤلاء الأشخاص ضمانًا

لتنفيذ ذلك النظام، ومن الممكن أيضًا أن يتمثل الأمان في صورة شخص قوي، ذي فضيلة وقوة، يفرض نفسه على الناس، ويخضع الناس له، فيتولى الحكم فيهم، ويقيم النظام، وينشر الأمان المطلوب.

ولقد كان الأوس والخزرج يحتاجون دون وعي منهم إلى ذلك الأمان والطريق إليه، أما اليهود فكانوا في انتظار المسيح الذي يرون -في مذهبهم الديني- أنه قادم يومًا من الأيام؛ لينصرهم على العالمين، وكانوا يؤكّدون لغيرهم أن ذلك المسيح المُخَلِّص قادم لا محالة، وكانت لهم فيه شروط معقدة، يزعم أحبارهم أنهم يعرفونها، وعندما ظهر السيد المسيح -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- في فلسطين أنكروه وكذبوه؛ لأنه في رأيهم لم يستوفِ الشروط التي يعرفونها، وكان اليهود في المدينة يؤكّدون لغيرهم أن هذا المسيح إذا ظهر فسيتعزون به على غيرهم، ويبلغون به السيادة، وكان ذلك يثير مخاوف الأوس والخزرج وغيرهم من سكان سهل المدينة.

وعندما كانت الشدّة قد بلغت بمحمد ﷺ مبلغها في مكة، بعد موت أبي طالب، والسيدة خديجة أم المؤمنين < ، اضطر ﷺ إلى الخروج إلى الطائف، يبحث فيها عن الاستجابة التي لم يجدها من أهل مكة.

ووسط هذه الظروف، كان الأوس والخزرج قد التقيا في معركة دامية عند بُعاث، انتصر فيها الأوس انتصارًا كبيرًا، فزادت مخاوف الخزرج، فبعثوا في العام التالي رسلًا إلى مكة يلتمسون المحالفة والمساعدة من أهلها، وما إن سمع محمد ﷺ بنبأ قدوم هذا الوفد حتى قصد إليه؛ ليعرض عليه الإسلام، ولكنه لم يجد عندهم قبولًا.

وهذه المحاولة هي نقطة البداية في اتصال النبي ﷺ بالمدينة، ذلك الاتصال الذي أدى إلى الهجرة، ثم قيام الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة، فقد استطاع ﷺ بعد عام من اتصاله بوفد الخزرج، أن يتصل بوفد من الأوس فلقي عندهم قبولًا، ووعدوه بأن يبلغوا قومهم، وينشروا الدعوة بينهم، ويلقوه في بحر عام؛ ليعقدوا معه اتفاقًا ثابتًا، فأرسل معهم مندوبًا من طرفه، هو مصعب بن عمير رحمه الله لكي يعمل على نشر الإسلام بينهم، ويدرس أحوال الناس في المدينة عن قرب.

ما أساس هذا الاتفاق؟

كان أساس الاتفاق هو دخول أهل المدينة في الإسلام، وتعهدهم بحماية الدين والرسول المبشر به، وهذا صحيح، لكن هذه كانت مطالب محمد ﷺ، فماذا كانت مطالب أهل المدينة؟

كانوا يرجون الأمان؛ إذ توسم فيه الفريقان -الأوس والخزرج- القدرة على أن يكون ﷺ واسطة الخير والتفاهم بينهما، وأحسُّوا في أثناء الحديث معه ﷺ أنه الرجل المرتجى، القادر على التأليف بين قلوبهم، وجمع كلمتهم على مبادئ الدين السامي الذي شرحه لهم، وأدركوا منذ الوهلة الأولى، أن هذا الدين في الحقيقة رسالة سماوية، تشبه تلك التي كان اليهود يتحدثون عنها، ويهددون بها غيرهم.

واقتنع أهل المدينة بصدقه ﷺ فيما أبلغهم به من نبوته، فمالوا إلى الدخول في دعوته وتأييده، ومثلت رئاسة محمد ﷺ لأهل المدينة حلًّا لمشكلاتهم الكبرى، وهي الأمان المتمثل في الاجتماع على الإسلام الذي بشرهم به الرسول ﷺ.

إخبار جبريل # للنبي ﷺ بتآمر المشركين عليه، والإذن له بالهجرة

جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ وأخبره بتآمر قريشٍ والمشركين وما اتفقوا عليه في دار الندوة، وأعلمه بإذن الله ﷻ له في الهجرة إلى المدينة، وحدّد له وقتها، وطلب منه ﷺ ألَّا يبيت في فراشه الذي تعوّد المبيت عليه في هذه الليلة، وأمره ألا ينام في مضجعه، وكشف له عما دبّروه وما أسروه وما أعلنوه، قال ﷻ: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس: ٧٦].

قالت السيدة عائشة: "فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في حرّ الظهيرة قال قائل: لأبي بكر رضي الله عنه هذا رسول الله ﷺ متقنعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله، ما جاء في هذه الساعة إلا لأمر"، ثم قالت < : "استأذن النبي ﷺ فأذن له، ولما دخل تأخر له أبي بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ((أخرج من عندك))، فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، أو قال: إنما هم أهلك، ثم سأل الصديق النبي ﷺ قائلًا: وما ذاك فداك أبي وأمي؟، فقال ﷺ: ((إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة))".

قالت السيدة عائشة: "إن أبا بكر قال: الصُحبة يا رسول الله، فقال ﷺ: ((نعم الصحبة))"، ثم قال < : يا رسول الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا، فخُذْ -بأبي أنت يا رسول الله- إحدى هاتين الراحلتين، قال رسول الله ﷺ: ((بالثمن))، فاستأجر عبد الله بن أريقط من بني عدي هاديًا خِرِّيتًا -يعني: ماهرًا.، وكان مشركًا، يدلهما على الطريق؛ فدفع إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما".

وبعد هذا الاتفاق على خطة تنفيذ أمر الله ﷻ بالهجرة إلى المدينة عاد النبي ﷺ إلى بيته ينتظر مجيء الليل، وعندما حل الظلام كان هناك أحد عشر رئيسًا من زعماء القوم من المشركين، هم: أبو جهل، والحكم بن العاص، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، واجتمعوا عند باب النبي ﷺ متيقظين متربصّين، يرصدون موعد نومهﷺ؛ ليثبوا عليه -كما اتفقوا في دار الندوة- ويضربوه ضربة رجل واحد، ورأى النبي ﷺ مكانهم، فطلب من ابن عمه علي بن أبي طالب أن يبيت على فراشه قائلًا له: ((نَمْ على فراشي، وتسجى -يعني: تغطى- ببردي هذا الأخضر الحضرمي، فنم، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم))، ثم خرج ﷺ وسط هؤلاء المشركين المجتمعين، وقد أخذتهم سِنَةٌ من النوم، فأخذ حفنة من تراب في يده ﷺ، وأخذ الله على أبصارهم فلم يروه وجعل ﷺ ينثر التراب على رءوس القوم وهو يردد: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ١- ٩].

فلم يبق رجلٌ إلا وقد سقط التراب على رأسه، ومضى النبي ﷺ إلى حيث أراد، والقوم يتطلعون فيرون عليًّا ﵁ مسجى على الفراش، مغطًى ببرد رسول الله ﷺ الأخضر الحضرمي -من حضرموت- فيقولون: والله، إن هذا لمحمد نائمًا وعليه برده، ولما طال انتظارهم جاءهم رجل ممن لم يكن معهم رآهم من فتحة في بابه، فقال لهم: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا محمدًا، قال: خبتم وخسرتم، قد -والله- مرّ بكم، وذرّ على رءوسكم التراب، قد -والله- خرج عليكم محمد، ثم

ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، قالوا: والله، ما مرّ بنا، قال: لقد مرّ بكم، وذر على رءوسكم التراب، قالوا: والله، ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم، ثم تطلعوا من ثقب الباب فرأوا عليًّا نائمًا، فقالوا: إن هذا لمحمد نائمًا عليه بردّه الأخضر، واستمروا كذلك على هذا الحال حتى أصبحوا فإذا بعلي > يقوم عن الفراش، فأيقنوا أن رسول اللهﷺ قد نجا من مكرهم، فقالوا: والله، لقد صدقنا الذي كان حدثناه، وتوجهوا إلى علي > وأخذوا في ضربه، وسحبوه إلى الكعبة المشرفة، وحبسوه هناك ساعة في محاولة منهم لمعرفة شيءٍ عن محمد ﷺ فلم يظفروا منه بشيء، وأكد لهم > أنه لا علم له بمحمد ﷺ.

وقد سجّل القرآن الكريم هذا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وفي قولـه ﷻ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ [الطور: ٣٠، ٣١].

وحين خرج رسول الله ﷺ لم يعلم بخروجه أحدٌ إلا أبا بكر وآل أبي بكر، وعليَّ بن أبي طالب، أما عليّ فقد أمره النبي ﷺ أن يبقى بمكة حتى يؤدّي عن رسول الله ﷺ الوَدَائع التي كانت عنده للناس؛ ذلك أنه لم يكن أحد بمكة عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه وديعة عند المصطفى ﷺ؛ لما يعلم إلى درجة اليقين من صدقه ﷺ ومن أمانته.

وتوجه رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه معًا إلى غارٍ بجبل ثور جنوب غربي مكة، وقد دخله المصطفى ﷺ وصاحبه الصدِّيق؛ ذلك بعد أن اختبر الصدِّيقُ المكانَ -أي: دخله وحده أولًا، ومسح المكان خشية أن يكون فيه شيء يؤذي رسول الله ﷺ.

وقد أمر أبو بكر﷛ ابنَه عبد الله أن ينصت لما يقوله الناس من أهل مكة حول رسول الله ﷺ وصاحبه في لحظات النهار، ثم يأتيهما إذا أمسى بالأخبار، وكان الصِّدِّيق﷛ قد أمر مولاه -أي: العامل عنده- عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهارًا، ثم يريحها عليهما ويأتيهما إذا أمسى في الغار؛ ليتزودا بلبنها، كذلك كانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما، وأقام رسول الله ﷺ ومعه الصِّدِّيق في الغار ثلاث ليالٍ: ليلة الجمعة، وليلة السبت، وليلة الأحد.

أما عن قريش؛ فتوجهوا إلى منزل الصِّدِّيق﷛، ووقف أبو جهل ببابه في نفر من القرشيين وخاطب ابنته أسماء قائلًا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: والله، لا أدري أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده ولطم خدَّها لطمةً شديدة كانت سببًا في طرح قرطها من أذنها، ولم يعد أمام الكفار إلا أن يجعلوا مائة ناقة مكافأة لمن يأتي بالنبي ﷺ وبصاحبه، ويردهما حَيّين أو ميتين إلى القرشيين.

أما عبد الله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة، فقد نفَّذا ما طُلب منهما، وكان عبد الله إذا غدا من عندهما إلى مكة بعد إخبارهما بما عليه الحال هناك اتبع أثره عامر بن فهيرة ومعه الغنم حتى يعفي عليه -أي: يزيل كل أثر-، ولما مضت الليالي الثلاث، وسكن عنهما الناس، أتاهما عبد الله بن أُريقط ببعيريهما اللذين كانا قد تركاهما عنده، بالإضافة إلى بعير له ليستخدمه هو، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق الشعيرة، فإذا بها ليس لها عصام، فحلت نطاقها -شبيه بالإزار- فجعلته اثنين، وجعلت أحد هذين الاثنين عصامًا علقت به -أي: ربطت به- وانتطقت بالنصف الآخر -أي: جعلته نطاقًا لها؛ لذا لقبت بـ: ذات النطاقين.

معجزات حدثت للنبي ﷺ والصِّدِّيق ﷺ في الغار، وفشل كفّار مكة في الوصول إليهما

ومن آيات الله ﷻ أن أمر شجرة فنبتت في وجه الغار فسترته، وأمرﷻ العنكبوتَ فنسجت على وجهه، وأمر حمامتين فوقعتا بفم الغار، واقتفى الأعداء الأثر حتى وصلوا الغار، وكانوا من النبي ﷺ قدر أربعين ذراعًا، نظر أولهم فرأى الحمامتين فرجع؛ فقال له أصحابه: مالك لم تنظر في الغار؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفت أنه ليس فيه أحد، فسمع النبي ﷺ قوله فعرف أن الله قد درأ عنه بهما. وخاطب الصِّدِّيقﷺ رسولَ اللهﷺ قائلًا: "يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه أبصرنا"، فقالﷺ بلغة الواثق المطمئن: ((ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟))، وسجل الله تعالى ذلك في قولهﷻ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ٤٠]. ثم ركبﷺ بعيرًا، وركب أبو بكر بعيرًا، وأردف أبو بكر مولاه عامر بن فُهيرة خلفه؛ ليخدمهما في الطريق.

رحلة النبي ﷺ وهجرته من مكة إلى المدينة

مضى النبيُّﷺ ومن معه في طريقهم إلى المدينة المنورة، ووقعت معجزةٌ للنبيﷺ سجّلها الصِّدِّيقُﷺ، قال: "أسرينا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق لا يمرّ فيه أحدٌ، حتى رفعت لنا صخرة طويلة لها ظلٌّ لم تأتِ عليه الشمسُ بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرةُ فسويتُ بيدي مكانًا ينام فيه النبيُّﷺ في ظلّها، ثم بَسَطْتُ عليه فروًا، ثم قلت: نم يا رسول الله، وأن أنفض

لك ما حولك، فنامﷺ"، ثم حكى أبو بكرٍ خبر مرور راعٍ بهما فطلب منه لبنًا، وصادف استيقاظ الرسولﷺ فشرب، ثم قال: "ألم يأنِ الوقت للرحيل؟ قُلتُ: بلى، قال: فارتحلنا بعدما زالت الشمس، واتبعنا **سراقة بن مالك** ونحن في جَلَدٍ من الأرض"، أي في أرض صلبة مستوية.

وهناك رواية يرويها الصحابي الجليل قيس بن النعمان السكوني ونصّها: لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكرﷺ يستخفيان، نزلا بأبي معبد، فقال: والله، ما لنا شاة، وإن شاءنا -أي: شياهنا- حوامل، فما بقي لنا لبن، فقال رسول الله ﷺ: ((أحسبه فما تلك الشاة؟)) فأتى بها، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها، ثم حلبها عسًا فسقاه ثم شربوا، فقال: أنت الذي يزعم قريشٌ أنك صابئ، قال ((إنهم ليقولون))، قال: أشهد أن ما جئت به حق، ثم قال: أتبعك؟ قال: ((لا، حتى تسمع أنَّا قد انتصرنا وظهر أمرنا)). تقول الرواية: فاتبعه بعد ذلك.

وهذا الخبر به معجزة حِسِّيَّة للرسول ﷺ شاهدها أبو معبد هذا فأسلم.

ورواية سراقة بن مالك تكمل الخبر التاريخي، قال سراقة: "فبينا أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا، فقال: والله، لقد رأيت ركبةً ثلاثة مروا عليّ آنفًا، إني لأراهم محمدًا وأصحابه -قال-: فأومأت إليه بعيني أن اسْكُتْ، ثم قلت: إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم، ثم قال: لعلهم، ثم قال: سكتْ، قال سراقة: ثم مكثت قليلًا، ثم قمت قد خليت بيني وبين فرسي، ثم أمرت بفرسي فقُيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي بعد أن دخلت بيتي فأخرج لي من دور حجرتي، ثم أخذت قداحي التي أستقسم بها – أي: أستشيرها كما كان يفعل المشركون- ثم انطلقت فلبست لأمتي –أي: لبست دروعي- ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها؛ فخرج الذي أكره -يعني

لا يضر- أي كأن القداح تقول له: إنك لن تضر الذي ابتغيته، قال سراقة: وقد كنت أرجو أن أردّه على قريش –أي: أن أعيد النبي ﷺ إلى قريش- فآخذ المائة ناقة، قال: فركبت على إثره، فبينا فرسي يشتدّ بي عثر فسقطت عنه، قال: فقلت ما هذا؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره - أي: لا يضره- قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في إثره، فبينا فرسي يشتد بي عثر، فسقطت عنه، قال: فقلت ما هذا؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في إثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض –أي: ذهبت الرجلان الأولان في الأرض، ساختا فيها فذهبت يداه في الأرض- وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كأنه الإعصار، قال: فعرفت، حين رأيت أنه قد مُنع مني، وأنه ظاهر –أي: منتصر على أعدائه- قال: فناديت القوم؛ فقلت: أنا سراقة بن جعشم أنظروني أكلمكم، فوالله، لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيءٌ تكرهونه، قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ((قل له: وما تبتغي منا؟))، فقال له ذلك أبو بكر، فأخبرتهم بأمر الدِّيَّةِ، وما يُريد الناس بهم، ثم قلت: تكتب لي كتابًا يكون آية بيني وبينك، قال: اكتب له يا أبا بكر، أو اكتب له يا عامر بن فهيرة، فكتب لي كتابًا في عظم، أو في رقعة، أو في خزفة ثم ألقاه إلي فجعلته في كنانتي، ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئًا مما كان"، ثم حكى خبر لقائه برسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وإسلامه على النحو الذي سيأتي إن شاء الله.

وقد ذكر سراقة في رواية صحيحةٍ أنه اقترب من الاثنين، أي: من النبي ﷺ ومن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ وهو -أي: النبي ﷺ- لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، كما ذكر أنه عرض عليهما الزاد والمتاع فلم

يأخذا منه شيئًا، وأن وصيته كانت: اخْف عنا، هذا موجود في (صحيح البخاري فتح الباري).

وقد احتاط الاثنان، النبي ﷺ والصِّدِّيق رضي الله عنه، في الكلام مع الناس الذين يقابلونهم في الطريق، فإذا سُئل أبو بكر عن رسول الله ﷺ قال: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب أنه إنما يعني يهديه الطريق، وإنما يعني سبيل الخير، وقد صحَّ أن الدليل الذي استأجراه أخذ بهم طريق السواحل على النحو الذي فسَّره ابن إسحاق.

وهناك مُعجزة حسّية أخرى كانت لرسول الله ﷺ، في طريق هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، فقد روى الحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي معبد، وابن السكن عن أم معبد -وهي عاتكة بنت خالد بن نظيف الخزاعية-، رووا كما روى غيرهم: "أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة مهاجرًا إلى المدينة هو وأبو بكر، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة، ودليلهم الليثي عبد الله بن الأُرَيْقِط مرّوا على خيمة أم معبد الخزاعية، وهي لا تعرف النبي ﷺ، وكانت برزة جلدة تحتبي بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم، فسألوها لحمًا وتمرًا ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك، وإذا القوم مُرمِلون مسنون، فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناه، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في جسر الخيمة -وفي لفظ: في كفاء البيت-، فقال: ((ما هذه الشاة يا أم معبد؟)) قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم -أي: هي متعبة فلم تستطع أن تخرج لترعى مع بقية الغنم- فقال لها ﷺ: ((هل بها من لبن؟)) قالت: هي أجهد من ذلك، قال: ((أتأذنين لي أن أحلبها؟)) قالت: بأبي أنت وأمي نعم، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فوالله ما ضربها فحل قط، فشأنك بها؛ فدعا بها رسول الله ﷺ، فمسح بيده ضرعها

وظهرها، وسمى الله ﷻ ودعا لها في شاتها، فتفاجَّت عليه ودرّت واجْتَرّت، ودعا بإناء يربض –أي: يروي حتى النوم- يربض الرهط، فحلب فيه ثجًّا حتى علاه البهاء -وفي لفظ: حتى علاه الثمال، أي: الرغوة- ثم سقاها حتى رويت، ثم سقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب ﷺ آخرهم، وقال: ((ساقي القوم آخرهم شربًا))، ثم حلب فيه ثانيةً بعد بدء حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، فبايعها وارتحلوا عنها".

أما أهل المدينة فعندما سمعوا بخروج الرسول ﷺ من مكة إليهم، فإنهم كانوا يقفون في كل يوم حتى يغيب الظل، مما يدل على شدة حبهم لرسول الله ﷺ، وأخيرًا قدم رسول الله ﷺ فكان أول من رآه رجل من اليهود فصرخ بأعلى صوته قائلًا: يا بني قَيْلة –أي: الأنصار- هذا جَدُّكم قد جاء، يقول راوي الخبر: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وأكثرنا لم يكن رآه قبل ذلك، وركبه الناس –أي: تزاحموا عليه- وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك، وإن السكينة تغشاه، والوحي يتنزل عليه، وإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير، كما ذلك في سورة التحريم.

وكان قدوم رسول الله ﷺ المدينة المنورة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من البعثة النبوية المباركة، الموافقة سنة ستمائة واثنين وعشرين من الميلاد.

أما خروجه ﷺ من الغار فكان أول يوم من ربيع الأول في نفس السنة، وقد أقام ﷺ بقباء أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس بها مسجد قباء، أول

مسجد أسس على التقوى، وصلى فيه ﷺ، وفي اليوم الخامس يوم الجمعة أدّى صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في المسجد الذي كان ببطن الوادي، وصلى مع النبي ﷺ مائة رجل، ثم مضى المصطفى ﷺ يمتطي ناقته، ويطلب من كل من أراد أن ينال شرف نزول النبي عنده -أن يدع الناقة، فإنها مأمورة، فلما بركت حمل أبو أيوب خالد بن زيد الخزرجي الأنصاري، حمل رحل النبي ﷺ فوضعه في بيته، ونزل عنده رسول الله ﷺ وظلّ الرجل وزوجته يتبركان برسول الله ﷺ طوال فترة إقامته، ثم أمر النبي ﷺ أن يُبنى مسجده النبوي هناك، وتغير اسم يثرب لتصبح: المدينة المنورة، وبقي ﷺ في منزل أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، وأسهم ﷺ في العمل مع المهاجرين والأنصار، ترغيبًا في العمل، وحبًّا فيه، وكان ﷺ ينشد قائلًا وهو يعمل: ((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة))، وبعد فراغه من البناء انتقل النبي ﷺ إلى مساكنه.

أما علي ابن أبي طالب، فقد بقي بمكة ثلاث ليالٍ بأيامها، حتى أدَّى الودائع التي كانت عند النبي ﷺ لأصحابها، ثم لحق برسول الله ﷺ، وتتالى المهاجرون يلحقون برسول الله ﷺ، وبهذا ينتهي الطور المكي من الدعوة الإسلامية، لتنتقل بعد ذلك إلى الطور المدني.

وقد كتب النبي ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين الطائفتين، ووادع اليهود، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم، وشرط لهم واشترط عليهم، وخطب الناس خطبتين، حبب فيهما إليهم الإيمان، ورغبهم فيما عند الله ﷻ وطالبهم بحسن عبادته وتقواه.

وبهذا تكون المدينة المنورة قد شهدت في هذه المرحلة المبكرة بناء المسجد النبوي، والمؤاخاة بين المسلمين مهاجرين وأنصار، كما شهدت إقامة ميثاق وتحالفٍ بين سكانها وعناصر مجتمعها من مسلمين وغير مسلمين، وشهدت تكوين مجتمعٍ جديد على أسس ومبادئ خالدة، وبهدي وتوجيه من النبي ﷺ.

ومن المدينة المنورة بدأ الإسلام ينتشر، وتم فتح مكة في عام (٨)هـ الموافق عام (٦٢٩)م، أصبح للهجرة مفهوم جديد حدّده النبي ﷺ بقوله: ((لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية))، وأضحى المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه.

وصول النبي ﷺ إلى المدينة، و بناء المسجد النبوي

عناصر الدرس

العنصر الأول :	ما استنبطه العلماء من حادث الهجرة، لماذا لم يهاجر النبي ﷺ علانية؟	٣٥
العنصر الثاني :	وصول النبي إلى المدينة، واستقبال النبي ﷺ ونزوله عند أبي أيوب	٣٨
العنصر الثالث :	النبي ﷺ يرسل إلى أخواله من بني النجار	٤٠
العنصر الرابع :	فرح أهل المدينة، وترحيبهم برسول الله ، وخمسمائة من الأنصار استقبلوا النبي ﷺ	٤١
العنصر الخامس :	بروك الناقة قرب بيت أبي أيوب	٤٣
العنصر السادس :	كانت الهجرة شديدة الوطأة على المهاجرين	٤٣
العنصر السابع :	الخطبتان اللتان خطبهما النبي ﷺ في أول جمعة صلاها	٤٤
العنصر الثامن :	(بناء المسجد النبوي) اشتراك النبي ﷺ وأصحابه في البناء، وما صاحب ذلك من آيات	٤٨

ما استنبطه العلماء من حادث الهجرة، لماذا لم يهاجر النبي ﷺ علانية؟

أ. ما استنبطه العلماء من حادث الهجرة:

الأول: أن الرسول ﷺ لم يدخل المدينة إلا بعد أن أرسل القرَّاءَ والمعلمينَ؛ ليهيئ الظروفَ المناسبةَ للدعوةِ، فلمَّا فتحوا قلوب الناس، وبدأ الناس التحول لدين الله - غزاها النور فأضاءت.

الثاني: مَثَّلَتْ الهجرة قيام نظامٍ جديد، ولاحظ ذلك خليفةُ المؤمنين عُمر بن الخطاب، عندما اختارها مبدًا للتقويم الإسلامي.

الثالث: أثبتت الهجرة النبوية أن الإنسان يُضحي بكلِّ غالٍ ونفيسٍ في سبيل نصرة الدين والدعوة، ويتمثل هذا في قوله ﷺ مخاطبًا مكة: ((ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)). وهذا هو التطبيق العملي لقول الله ﷻ: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

الرابع: أن الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة، والذي انقضى بفتح مكة المكرمة هو قصد النبي ﷺ. أي: هو القصد إلى النبي ﷺ لكن الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة في رأي بعض العلماء.

الخامس: على المسلمين أن يناصر بعضهم بعضًا، وإن اختلفت الديار، وتناءت البلاد، طالما كان ذلك في الإمكان، وهذا ما فعله الأنصار مع المهاجرين.

السادس: اقتضت رحمة الله بعباده ألا يقوم المسلمون بالقتال إلا بعد أن تكون لهم دار إسلام، تعتبر بمثابة معقل يلوذون به، ولقد كانت المدينة المنورة هي تلك الدار، فكان الإذن بالقتال.

السابع: كان في موقف المكِّيين من رسول الله ﷺ تناقض عجيب، ففي الوقت الذي كانوا يُكذِّبون فيه محمدًا، ويتهمونه بالسحر تارةً، وبالجنون أخرى، فإنهم لم يجدوا أفضل منه أمانةً وصدقًا، فيتركون عنده أغلى ما يملكون.

الثامن: ما قام به عبد الله بن أبي بكر، وأخته أسماء، وعامر بن أبي فهيرة من خدمة رسول الله ﷺ وصاحبه أثناء وجودهما في الغار، ينبغي أن يكون نموذجًا يحتذيه الشباب المسلم.

وكان استئجار النبي ﷺ وصاحبه لعبد الله بن أريقط؛ ليدلهما على الطريق برغم شِرْكِهِ، يدل على أنه لا بأس من الاستعانة بغير المسلمين؛ طالما كان غير المسلم موضع ثقة، وصاحب خبرة معًا.

التاسع: يُلاحظ أن النبي ﷺ لم يقصر دعوته على قريش؛ بل كان يدخل بين القبائل الوافدة من خارج مكة، وكان أنصاره أول الأمر من غير بيئته، ومن غير قومه، حتى لا يُظن ظانٌّ أن دعوة محمد ﷺ كانت قومية، فرضتها ظروف قومه، أو فرضتها بيئة قومه، أو فرضتها حاجتهم إليه.

العاشر: تدل بيعة العقبة على أن الجزم القلبي وحده لا يكفي، والنطق بالشهادتين دون عمل ليس كافيًا، ومن يزعم أن قلبه نقي وهذا يكفيه، وليس في حاجةٍ إلى عملٍ فَقَد كَذَبَ، كما أخبرنا رسول الله ﷺ:

((إن قومًا غرتهم الأماني، فزعموا أنهم يحسنون الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل)).

الحادي عشر: يستنبط من الهجرة وأحداثها أن أموال غير المسلمين لا تُستباح، ولا تحل لأحد، فقد استبقى النبي ﷺ عليًّا ليرد الأموال لأصحابها، فَرَدُّها واجبٌ حتى مع من خانونا؛ لحديثه ﷺ: ((أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)).

الثاني عشر: خروج النبي ﷺ من بين أيدي الكفار المحيطين بمنزله من أكبر المعجزات، وفي هذا إعلان لأعداء الإسلام في كل وقت أن الله لن يتخلى عن عباده المؤمنين.

الثالث عشر: في الهجرة يعلمنا المصطفى ﷺ أنه لا بد من التخطيط الدقيق، حتى لو كان الإنسان مطمئنًا على سلامة موقِفِهِ، وكل الحقائق كانت تؤكد لرسول الله ﷺ أن الله معه وناصره، ومع هذا لم يتعجل الهجرة، وإنما انتظر الوقت المناسب، وخطط تخطيطًا دقيقًا، حتى جاءه أمر الله بالخروج من مكة، ولم يخرج نهارًا، وإنما خرج ليلًا ليس جبنًا أو خوفًا، وإنما هو الترتيب الدقيق، والتخطيط السليم، والتأني في اتخاذ القرار.

ب. لماذا لم يهاجر النبي ﷺ علانية؟

ذكرت بعض الروايات أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هاجر علانيةً، قائلًا: "من أراد أن تثكله أمه، أو يُيتم ولده، أو ترمل زوجته، فليتبعني وراء هذا الوادي، فلم يتبعه أحد". هذه رواية تجعلنا نتساءل، لماذا لم يهاجر النبي ﷺ علانية كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟

السبب: أن النبي ﷺ استعمل كلَّ الأساليبِ الماديةِ التي يمكن أن يتوصل إليها عقلٌ بشري، لقد ترك عليًا على فراشه، واستعان بأحد المشركين ليدله على الطريق، وأقام في الغار أيامًا ثلاثة حتى سكن الطلب عليه، كل ذلك ليؤكد لنا أن الإيمان بالله ﷻ لا يتنافى مع اتخاذ الأسباب المادية، فما فعله النبي ﷺ وظيفة تشريعية، قضية الأخذ بالأسباب، فلما فرغ ﷺ من أدائِهَا، وأخذ بكلِّ الأسبابِ المتاحةِ والممكنة، عاد قلبه مرتبطًا بالله ﷻ مطمئنًا إلى حمايته وتوفيقه؛ ولذلك عندما اقترب منه سراقة بن مالك يريد قتله لم يشعر به؛ لأنه كان مستغرقًا في مناجاة ربه ﷻ موقنًا أن الذي أمره بالهجرة لابد وأن يعصمه من شرور أعدائه، ومن هنا يتفق العلماء على أن ما حدث من سراقة معجزة من معجزات رسول الله ﷺ مِثْلُه مثل خروج النبي ﷺ من بيته وسط جموع المشركين.

وصول النبي إلى المدينة، واستقبال النبي ﷺ ونزوله عند أبي أيوب

نبدأ بما رواه البخاري عن عائشة، ورواه ابن سعدٍ عن عبد الرحمن بن عُوَين بن ساعدة، وقد شهد أبوه ساعدة العقبات الثلاث: العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية، ثم بيعة العقبة الكبرى والأخيرة، وروى هذا الابن عن جمع من الصحابة، قال: "إن المسلمين بالمدينة لَمَّا سمعوا بخروج رسول الله ﷺ من مكة، وتوَكَّفُوا قدومه -أي: استشعروا خروج النبي ﷺ وأنه سيأتي إليهم في المدينة المنورة، عندما استشعروا ذلك كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهرة الحرة، ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، ويؤذيهم حَرُّ الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظلًّا دخلوا، وذلك في أيام حارة، حتى كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ حين دخلوا البيوت، فأوفى -أي: طلع- رجلٌ من اليهود على أُطْم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وبصر بأصحابه مبيضين -أي: يلبسون

ملابس بيضاء- يلوح بهم -أي: يظهرهم- السراب -والسراب هو ما يراه الإنسان نصف النهار بسبب شدة الحر كأنه ماء- فلم يملك اليهودي أن صرخ بأعلى صوته قائلًا: يا بني قيلة -وقيلة هذه هي اسم الجدة الكبرى للأنصار جميعًا أوسهم وخزرجهم؛ ولهذا ينسبون جميعًا إليها- وفي لفظ: يا معشر العرب- هذا جدكم -وفي لفظ آخر: هذا صاحبكم- الذي تنتظرون قد جاء، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، وذلك يوم الاثنين لشهر ربيع الأول، فخرجوا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه، وقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ وسلم صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك".

وفي رواية: "فلما رأوا أبا بكر ينحاز له عن الظل؛ عرفوا رسول الله ﷺ فعدل بهم رسول الله ﷺ ذات اليمين حتى نزل بهم علو المدينة بقباء، في بني عمرو بن عوف، على كلثوم بن الهدب، قيل: وكان يومئذ مشركًا، وقيل: إنما نزل على سعد بن خيثمة، والأول أرجح عند الثقات من العلماء".

وروى الطبراني عن جابر بن سمرة قال: "لما سأل أهلُ قباء النبيَّ ﷺ أن يبني لهم مسجدًا، قال رسول الله ﷺ: ((ليقم بعضكم فيركب الناقة، فقام أبو بكر رضي الله عنه فركبها فحركها فلم تنبعث فرجع، فقام عمر رضي الله عنه فركبها فحركها، فلم تنبعث فرجع، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه مرة أخرى: ليقم بعضكم فيركب الناقة، فقام علي رضي الله عنه فلما وضع رجله في غرس الركاب، وثبت به قال ﷺ: أرخِ زمامها، وابنوا على مدارها؛ فإنها مأمورة)).

وكان الرسول ﷺ يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يَهْصِرَهَا، فيأتي الرجل من أصحابه ويقول: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أعطني أكْفِك. فيقول ﷺ: ((لا، خذ مثله)) حتى أسسه.

النبي ﷺ يرسل إلى أخواله من بني النجار

روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي بكر، وروى أخرون، أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يدخل المدينة أرسل إلى بني النجار، وكانوا أخواله؛ لأن أم عبد المطلب منهم، فجاءوا متقلدين السيوف، فقالوا لرسول ﷺ ولأصحابه: اركبوا آمنين مطاعين، وكان اليوم يوم الجمعة، فلما ارتفع النهار دعا رسول الله ﷺ براحلته، وحشد المسلمون، ولبسوا السلاح.

ركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء، وقد يقال لها: العضباء، والجدعاء، والصلماء، كل هذه ألقاب لناقةٍ واحدةٍ لسيدنا رسول الله ﷺ. ركبها النبي ﷺ والناس معه عن يمينه، وعن شِماله، وعن خلفه، منهم الماشي، ومنهم الراكب، فاجتمع بنو عمرو بن عوف، وقالوا: يا رسول الله، أخرجت مَلَالًا لنا، أم تريد دارًا خيرًا من دارنا؟ يعني: أخرجت سآمةً منا، أم تريد قبيلة خيرًا من قبيلتنا؟ فالدار هنا المقصود بها: القبيلة، قال: ((إني أُمِرت بقريةٍ تأكل القرى فخلوها -يعني: اتركوا الناقة- فإنها مأمورة))، فخرج رسول الله ﷺ من قباء يريد المدينة، فتلقاه الناس فخرجوا في الطرق، وعلى الأباعر-والأباعر: جمع بعير، ويقال للجمل والناقة: بعير- ، وصار الخدم والصبيان يقولون: الله أكبر، جاءنا رسول الله، جاءنا محمد.

فرح أهل المدينة، وترحيبهم برسول الله، وخمسمائة من الأنصار استقبلوا النبي ﷺ

أ. فرحُ أهلِ المدينة، وترحيبهم برسول الله ﷺ:

روى الإمام أحمد، وأبو داود عن أنس رضي الله عنه أنه قال: "لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحًا بقدومه ﷺ".

وروى البيهقي ورزين عن عائشة > قالت: "لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد -أي: الإناث- يقلن:

طلع البدر علينا ❖ من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ❖ ما دعا لله داع"

وروي أن "ثنية الوداع": هي موضع بالمدينة بطريق مكة. وسميت بذلك لأن المسافر من المدينة كان يشيع إليها، ويودع عندها قديمًا.

وروى ابن أبي خيثمة رضي الله عنه قال: "شهدت يوم دخل رسول الله ﷺ فلم أَرَ يومًا أحسنَ منه ولا أضوأ، فلم يمر رسول الله ﷺ بدارٍ من دورِ الأنصارِ إلا قالوا: هَلُمَّ يا رسول الله إلى العز والمنعة والثروة، فيقول لهم خيرًا ويدعو، أو يقول: إنها –أي: الناقة- مأمورة خلوا سبيلها.

والحكمة كما يقول العلماء في إحالة الأمر إلى الناقة هي: أن يكون التخصيص من اللهُ عز وجل، فيكون آية ومعجزة تطيب بها النفوس، وتذهب معها المنافسة، ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئًا.

وسار رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى باب المسجد، فبركت الناقة على باب مسجده ﷺ.

ب. خمسمائة من الأنصار استقبلوا النبي ﷺ:

سجلت بعض الروايات أن عدد الذين استقبلوا النبيﷺ خمسمائة من الأنصار، فأحاطوا بالرسولﷺ وأبي بكر وهما راكبان، ومضى الموكب داخل المدينة، وقِيل بالمدينة: جاء نبي الله، جاء نبي اللهﷺ.

فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان في الطرق ينادون: يا محمد، يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله، قال الصحابي البراء بن عازب -وهو شاهد عيان-: ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ.

وأقبل الرسول ﷺ يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب الأنصاري، فتساءل: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، فنزل ﷺ في داره.

قال أبو أيوب الأنصاري: ولما نزلَ عَليَّ رسولُ الله ﷺ في بيتي، نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلوّ، فقلت: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون أنت تحتي، فأظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: يا أبا أيوب، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت، قال: فقد انكسر حِبٌّ لنا فيه ماء -أي: إناء لنا فيه ماء- فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها. ننشف بها الماء تخوّفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه. وذُكر أن أبا أيوب لم يزل يتضرع إلى النبي ﷺ حتى تحول رسول الله ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السفل.

وكان رسول الله ﷺ يصلي حيث أدركته الصلاة، ثم أمر ببناء المسجد في أرض كان فيها نخل لغلامين يتيمين من بني النجار، فاشتراها ﷺ وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها، وصَفّوا الحجارة في قبلة المسجد، وقد بناه النبي ﷺ أولًا بالجريد، ثم بناه باللَّبِن -أي: الطوب غير المحروق- بعد الهجرة بأربع سنين.

بروك الناقة قرب بيت أبي أيوب

ذكر الأقشهري في روضته: أن ناقة النبي ﷺ لما أتت موضع مسجده بركت وهو عليها، وأخذه الذي كان يأخذه عند الوحي، ثم وثبت فصارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها، لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه، ثم تلحلحت –أي: ثبتت مكانه، وأرزمت – أصدرت صوتًا-، ووضعت جِرَانَها، وجعل جبار بن صخر ينخسها؛ رجاء أن تقوم، فتنزل في دار بني سلمة، فلم تفعل.

فنزل رسول الله ﷺ عنها وهو يقول: هنا المنزل إن شاء الله ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٩] وجاء أبو أيوب، فكلموه في النزول عليهم، فقال رسول الله ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، وقد حططنا رحلك فيها، قال: فانطلق فهيئ لنا مقيلًا، فذهب فهيأ لهما مقيلًا.

كانت الهجرة شديدة الوطأة على المهاجرين

كانت الهجرة قاسية على المهاجرين، وقد وقف رسول الله ﷺ بالحزورة في سوق مكة، فقال: ((والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليّ، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت))، بل واجه المهاجرون من مكة صعوبةً في اختلاف المناخ؛ لأن المدينة بلد زراعي تُغطى أرضها ببساتين النخيل، ونسبة الرطوبة في جوها أعلى منه في مكة، فأصيب العديد من المهاجرين بشيء من الحمى.

وقد أخبرت عائشة < رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ((اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها، ،انقل حماها

فاجعلها بالجحفة)). وقال ﷺ: ((اللهم امض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم)).

وقد تغلب المهاجرون على المشكلات العديدة، واستقروا في الأرض الجديدة، مغلبين مصالح العقيدة ومتطلبات الدعوة، بل صارت الهجرة واجبة على كل مسلم لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس، حتى كان فتح مكة، فأُوقفت الهجر.

وعندما دُوِّنَ التاريخ في خلافة عمر بن الخطاب اتخذت الهجرة بداية للتقويم الإسلامي، ورغم أن الهجرة كانت في ربيع الأول، فأخَّروا التقويم من ربيع الأول إلى المحرم؛ لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم؛ إذ إن بيعة العقبة الثانية وقعت في أثناء ذي الحجة، وهي مقدمة الهجرة، فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة، هو هلال المحرم، فجُعل ذلك مبدءًا للتاريخ الإسلامي.

الخطبتان اللتان خطبهما النبي ﷺ في أول جمعة صلاها

كيف وصل النبي ﷺ إلى المدينة المنورة؟ وكيف صلى الجمعة؟

يقول العلماء: إن النبي ﷺ صلى أول جمعة له في بني سالم بن عوف، وكانت أول خطبة خطبها ﷺ كانت أيضًا فيهم، وجزم بذلك البيهقي؛ حيث قال نقلًا عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف:

كان أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أنه قام فيهم، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

((أما بعد: أيها الناس، فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولن له ربه - وليس له ترجمان، ولا حاجب

يحجبه دونه- : ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالًا، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يمينًا وشمالًا فلا يرى شيئا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم))

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى، فقال:

((إن الحمدَ لله، أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله -تبارك وتعالى- قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا من أحبه الله، أحبوا الله من قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنكم قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفي. قد سماه الله خيرته من الأعمال، ومصطفاه من العباد، والصالح من الحديث، ومن كان ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروحِ اللهِ بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)).

وروى ابن جرير عن سعيد بن عبد الرحمن الجحمي، أنه بلغه عن خطبة رسول الله ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة: ((الحمد لله، أحمده وأستعينه، واستغفره، وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد وأن لاإله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين

الحق، والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط، وضل ضلالًا بعيدًا.

أوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله ﷻ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك ذكرًا، وإن تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه -عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله تعالى من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله، يكن له ذكرًا في عاجل أمره، وذخرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلا ما قدم، وما كان مما سوى ذلك: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] هو الذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف في ذلك، فإنه يقول ﷻ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [قٓ: ٢٩] فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية، فإنه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٥] ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا، وإن تقوى الله توقي مقته، وتوقي عقوبته، وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجوه، وترضى الرب، وترفع الدرجة، فخذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله، فقد علمكم كتابه، ونهج لكم سبيله؛ ليعلم الذين صدقوا، ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فأكثروا ذكر الله -تعالى- واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن

الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)).

قال في (الروض الأنف) للسهيلي قوله ﷺ: ((أحبوا الله من كل قلوبكم))، يريد أن تستغرق محبة الله تعالى جميع أجزاء القلب، فيكون ذكره وعمله خارجًا من قبله خالصًا لله سبحانه وتعالى، وعلى الإنسان أن يقدم محبته لله ولرسوله ﷺ على محبته لأعز الناس عليه في الدني: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ﴾ [التوبة: ٢٤] وقوله ﷺ: ((لا تملوا ذكر الله وذكره، فإنه من كل ما يخلق يختار ويصطفي)).

قال السهيلي في (الروض الأنف): إن الحديث من كل ما يخلق الله يختار، فالأعمال كلها من خلق الله، وقد اختار منها ما شاء، قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨]. "وقد سماه الله خيرته من الأعمال": هذه كلمة للنبي ﷺ في الخطبة، أي: الذكر وتلاوة القرآن لقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾، فقد اختاره من الأعمال.

وقوله: "المصطفى من عباده" أي: سمى المصطفى من عباده، بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥]، وقد اختلف العلماء في تسمية ذلك اليوم مع أنه كان في الجاهلية، أي: يوم الجمعة كان باتفاق العلماء يسمى "يوم العروبة" في الجاهلية، قال أبو جعفر النحاس في كتابه (صناعة الكتابة): لا يعرفه أهل اللغة إلا بالألف واللام

إلا شاذًّا -أي: العروبة- ومعناه اليوم المبين المعظم، من أعرب إذا بين، قيل: سمى بذلك اليوم؛ لأن الخلائق جمعت فيه. ذكره أبو حذيفة البخاري في المبتدأ عن ابن عباس، وإسناده ضعيف، وقيل: لأن خلق آدم قد جمع فيه.

وروى الإمام أحمد، والنسائي، وابن خزيمة، وابن أبي حاتم عن سلمان > قال: قال رسول الله ﷺ: ((أتدري ما يوم الجمعة؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قالها ثلاث مرات، قال في الثالثة: هو اليوم الذي جمع فيه أبوكم آدم))، وله شاهد عن أبي هريرة > رواه أبو حاتم بإسناد قوي، قال الحافظ: وهذا أصح. قالو: إذًا يوم الجمعة هو يوم العروبة، والظاهر: أنهم غيروا الأيام السبع بعد أن

كانت: أوله، وأوهن، وجبار، ودبار، ومؤنس، وعروبة، وشيار.

"بناء المسجد النبوي" اشتراك النبي ﷺ وأصحابه في البناء، وما صاحب ذلك من آيات

بركتْ ناقتُ رسول الله ﷺ عند باب مسجده، فقال ﷺ: ((هذا المنزل إن شاء الله))، ثم أخذ في النزول: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، وقد كان الموضع الذي بركت فيه مربدًا ليتيمين -المربد مكان يُجمع فيه التمر ليجف- وكان مملوكًا ليتيمين، وهم: سهل، وسهيل. وقال العلماء إن اليتيمين ابنا رافع بن أبي عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غن بن مالك بن النجار. وبذلك صرح ابن حزم، وأبو عمرو ورجحه، وكان هذان اليتيمان في حجر أسعد بن زرارة، أي: تحت رعايته، كما جاء في (صحيح البخاري).

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ أرسل إلى بني النجار بسبب موضع المسجد، فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا، أي: قدروا لي ثمنًا أدفعه لهذا

المكـان، فقـالو: والله لا نطلـب ثمنـه إلا مـن الله، وفي روايـة: فـدعا بـالغلامين وساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا، فقـالا: بـل نهبـه لـك يـا رسـول الله، فـأبى أن يقبله منهما هِبة، حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدًا.

وعن أنس قال: كـان المسجد جـدارًا لـيس لـه سـقف، وقبلته إلى القـدس، فـأمر رسـول الله ﷺ بالنخـل بالغرقـد أن يقطـع، وكـان فيـه قبـور جاهليـة، فـأمر بهـا فنشبت، وأمر بالعظام أن تغيب، كان في المربد ماء فسيره حتى ذهـب، وكـان فيـه خِـرَب -يعـني: أرض خربـة- فـأمر بهـا فسويت، فـصف النخـل قِبلـة لـه، أي: جعلت سواريه مثل الأعمدة له في جهة القبلة، فسقف عليها، وجعلوا عـضودتيه حجارة. وروى ابن عائـذ أن الـنبي ﷺ صـلى فيـه وهـو عـريش اثـني عـشر يومًـا، ثـم سقف.

وروى محمد بن الحسن المخزوني، ويحيي بن الحسن، عن شهر بن حوشب قـال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يبني المسجد، قال: ((ابنوا لي عريشًا كعـريش موسـى، ثمامات وخشبات، وظلة كظلة موسى، والأمر أعجل من ذلك، قيـل: ومـا ظلـة موسى؟ قال: كـان إذا قـام أصـاب رأسـه الـسقف))، وعمـل رسـول الله ﷺ مـع الصحابة في بناء المسجد بنفسه الكريمة، وطفق ينقل معهم اللبن -الطوب الأبيض الذي لم تسو طينته بالنيران- ترغيبًا لهم في العمل، ويقول:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة ❖ فارحم الأنصار والمهاجرة

ويذكر أن هذا البيت لعبد الله بن رواحة، وكان شاعرًا، وعن الزهـري أن رسـول الله ﷺ كان يقول:

((اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فارحم المهـاجرين والأنـصار)). وروى محمـد بـن الحسن المخزومي، عن أم سلمة < أنها قالت: "بنى رسـول الله ﷺ مـسجدًا،

فقرب اللبن، وما يحتاجون إليه، فقام رسول الله ﷺ فوضع رداءه، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون والأنصار ألقوا أرديتهم وأكسيتهم، وجعلوا يرتجزون ويعملون، ويقولون:

لئن قعدنا والنبي يعملُ ❖ ذاك إذن للعمل المضللُ

وروى البيهقي عن الحسن قال: "لما بني رسول الله ﷺ المسجد، أعانه أصحابه وهو معهم يتناول اللبن حتى أغبر صدره".

وكان عثمان بن مظعون رجلًا متنطعًا، وكان يحمل اللبنة فيجافي بها ثوبه، أي يبتعد بها عن ثوبه فإذا وضعها نفض كمه، ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شيء من التراب نفضه، فنظر إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأنشد يقول:

لا يستوي من يعمر المساجدَ

يدأب فيها قاعدا

ومن يُرى من الغبار حائدا

فسمعها عمار بن ياسر، فجعل يرتجز بها، وهو لا يدري من يعني بها، فمر بعثمان بن مظعون، فقال: يا ابن سمية، ما أعرفني بمن تعرض، ومعه جريدة فقال: لَتَكُفَّنَّ أو لاعترضن بها وجهك، فسمعها رسول الله ﷺ، فغضب ثم قال: ((إن عمار بن ياسر جلدة ما بين عيني وأنفي، فإذا بلغ ذلك من المرء فقد أبلغ))، ووضع يده بين عينيه، فكف الناس عن عمار، ثم قالوا لعمار: إن النبيﷺ قد غضب فيك، ونخاف أن ينزل فينا قرآن، فقال: أنا أرضيه كما غضب، فقال: يا رسول الله، مالي ولأصحابي، قال: مالك ولهم، قال: يريدون قتلي، يحملون لبنة لبنة، ويحملون عليَّ لبنتين لبنتين، فأخذه بيده وطاف

به في المسجد، وجعل يمسح فروته -يعني: شعر رأسه- بيديه من التراب، ويقول: ((يا ابن سمية، ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفئة الباغية، تدعوهم إلى الجنة، ويدعونك إلى النار)).

وروى الإمام أحمد، ويحيي بن الحسن عن طلق بن عدي > ، قال: "أتيت رسول الله ﷺ وهو يبني المسجد والمسلمون يعملون فيه معه، وكنت صاحب علاج وخلط طين، فأخذت المسحاة أخلط الطين، والنبي ﷺ ينظر إلي، ويقول: ((إن هذا الحنفي لصاحب طين)) وكان يقول: ((قربوا اليمامي من الطين، فإنه أحسنكم له مسكنا، وأشدهم منكبًا))".

وروى يحيي بن الحسن من طريق عبد العزيز بن عمر، عن يزيد بن السائب، عن خارجة بن زيد بن ثابت > قال: "بنى رسول الله ﷺ مسجده سبعين في ستين ذراعًا أو يزيد، ولبن لبنة من بقيع الخبخبة، وجعل جدارًا، وجعل سواريه خشبًا شقة شقة، وجعل وسطه رحبة، وبني بيتين لزوجتيه".

وروى يحيي أيضًا عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: "كان بناء مسجد رسول الله ﷺ بالسميط، لبنة على لبنة، ثم بالسعيد، لبنة ونصف أخرى، ثم كثر الناس، فقالو: يا رسول الله، لو زيد فيه، ففعل، فبني بالذكر والأنثى، وهما لبنتان مختلفان، وكانوا رفعوا أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع بالحجارة، وجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخرة مائة ذراع، وكذا في العرض، وكان مربعًا". وفي رواية جعفر: "ولم يسطح فشكوا الحر، فجعلوا خشبه وسواريه جذوعًا وظللوه بالجريد، ثم بالخسف، فلما وكف عليهم طينوه بالطين، وجعلوا وسطه رحبة، وكان جداره قبل أن يسقف قامة وشيئًا".

وروى يحيي، عن أسامة بن زيد بن حارثة، عن أبيه } : "أن رسول الله ﷺ جعل قبلته إلى بيت المسجد، وجعل له ثلاثة أبواب في مؤخره: باب أبي بكر،

وهو في وجهة القبلة اليوم، وباب عاتكة الذي يدعي باب عاتكة، ويقال له: باب الرحمة، والباب الذي كان يدخل منه رسول الله ﷺ" وهو باب آل عثمان اليوم، وهذان البابان لم يغيرا بعد أن صرفت القبلة، ولما صرفت القبلة سد النبيﷺ الباب الذي كان خلفه، وفتح هذا الباب، وحذاءه هذا الباب، أي: ومحاذيه هذا الباب الذي سد.

وروى ابن جبالة عن جعفر بن محمد: " أن النبي ﷺ بني مسجده مرتين، بناه حين قدم أقل من مائة في مائة، فلما فتح الله عليه خيبر بناه وزاد عليه مثله في الطول".

وروى الزبير بن بكار عن أنس أنه قال: "بنى رسول الله ﷺ مسجده أول ما بناه بالجريد، وإنما بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين".

وروى الطبراني عن أبي المليح أنه قال: "قال رسول الله ﷺ لصاحب البقعة التي زيدت في مسجد المدينة -وكان صاحبها من الأنصار- فقال النبي ﷺ: ((لك بها بيت في الجنة))، قال: فجاء عثمان فقال: لك بها عشرة آلاف درهم، فاشتراها منه، ثم جاء عثمان إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، اشتر مني البقعة التي اشتريتها من الأنصاري، فاشتراها منه ببيت في الجنة، قال عثمان: إني اشتريتها بعشرة آلاف درهم، فوضع رسول الله ﷺ لبنة، ثم دعا أبا بكر فوضع لبنة، ثم دعا عمر فوضع لبنة، ثم دعا عثمان فوضع لبنة، ثم قال للناس: ((ضعوا))، فوضعوا".

وروى البخاري وأبو داود عن نافع وأبي داود من طريق ابن عطية، وكلامها عن ابن عمر { : "أن مسجد رسول الله ﷺ كانت سواريه على عهد رسول الله ﷺ من جذوع النخل، وأعلاه مظلل بجريد النخل، ثم إنها نخرت في خلافة أبي

بكر، فبناه بجذوع النخل، وبجيد النخل ولم يزد فيه، وزاد فيه عمر، وبناه على بنائه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد، وأعاد عمده خشبًا، ثم إنها نخرت في خلافة عثمان، فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصة، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقفه بالساج، ونخل إليه الحصواء من العقيق كما جاء في بعض الروايات، وأول ما اتخذ فيه المقصورة مروان بن الحكم، بناها بحجارة منقوشة وجعل لها قُوَل.

ثم لم يحدث فيه شيء إلى أن ولي الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أبيه، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه، كان مروان بن الحكم أحد الخلفاء من بني أمية، ولكن الإشارة إليه عندما سبقت قبل ذلك بقليل، كانت عندما كان مسئولًا عن المدينة المنورة كوال عليها، وكان عمر بن العزيز عاملًا على المدينة للوليد بن عبد الملك، فجاءه الأمر بهدم المسجد وبنائه، وبعث إليه الوليد بمال وفسفياء ورخام، وثمانين صانعًا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر، فبناه وزاد فيه، وولي القيام بأمره والنفقة عليه صالح بن كيسان، وذلك في سنة سبع وثمانين، ويقال: سنة ثمان وثمانين؛ لأن الوليد بن عبد الملك تولى في الفترة من عام ست وثمانين إلى عام ست وتسعين، ولم يحدث فيه أحد من الخلفاء شيئًا حتى استخلف المهدي الخليفة العباسي".

وقال علي بن محمد المدائني: "ولي المهدي جعفر بن سليمان مكة والمدنية واليمامة، فزاد في مكة، ومسجد المدينة، وتم بناء مسجد المدينة في سنة اثنتين وستين ومائة، وكان المهدي أتى إلى المدينة في سنة ستين ومائة قبل الحج، فأمر بقلع المقصورة، وتسويتها مع المسجد، ويقال: إن المأمون عمره أيضًا وزاد فيه. ثم لم يزد فيه شيئًا أحدٌ من الخلفاء بعد المأمون، ولم يعمروا إلا

مواضع يسيرة إلى أن حصل الحريق في المسجد النبوي في أول شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة أول الليل لدخول أبي بكر بن أوحد الفراش، الحاصل الذي في الزاوية الغربية؛ لاستخراج قناديل لمنائر المسجد، وترك الضوء الذي كان في يده على قفص من أقفاص القناديل، وفيه مشاق، فاشتعلت النيران فيه، وأعجزه إطفاؤها، وعلقت ببسط وغيرها مما في الحاصل، وتزايد الالتهاب حتى اتصلت بالسقف بسرعة، ثم دبت في السقوف آخذةً قبلةً، فأعجلت الناس عن إطفائها بعد أن نزل أمير المدينة، واجتمع معه غالب أهلها، لم يقدروا على قطعها، وما كان إلا القليل حتى استوى الحريق على جميع سقف المسجد الشريف، وما احتوى من المنبر النبوي والأبواب، والخزائن، والمقاصير، والصناديق، ولم تبق خشبة واحدة.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وأهل الصفة، وصحيفة المدينة

عناصر الدرس

العنصر الأول	: من الأسس التي أقام النبي ﷺ مجتمع المدينة عليها: نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار	٥٧
العنصر الثاني	: إبطال التوارث بين المتآخين من المهاجرين والأنصار بنص القرآن الكريم	٥٧
العنصر الثالث	: آصرة العقيدة هي الأساس الأول في تآلف الناس	٥٨
العنصر الرابع	: قيام المجتمع المدني على أساس الحب والتكافل بين أفراده	٦١
العنصر الخامس	: (أهل الصفة) عدد أهل الصفة وذكر أسمائهم	٦٣
العنصر السادس	: انقطاع أهل الصفة للعبادة، ومشاركتهم في أحداث المجتمع والجهاد، وصفة ملابس أهل الصفة وطعامهم، ومواساة النبي ﷺ لهم	٦٦
العنصر السابع	: رعاية النبي ﷺ وأصحابه لأهل الصفة	٦٨
العنصر الثامن	: (صحيفة المدينة) الوثيقة التي حددت الحقوق والواجبات ورسمت العلاقات بين طوائف السكان في المدينة المنورة	٦٩

من الأسس التي أقام النبي ﷺ مجتمع المدينة عليها نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

آخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ، ومِنَ النَّمَاذجِ الفَرِيْدةِ الَّتي تَدل عَلى هَذِهِ المُؤخاةِ، مَا حَدَثَ بَيْنَ سَعد بن الربيع الأنصاري وعَبْد الرحمن بن عوف المُهَاجِر؛ حَيْثُ قَالَ لَهُ سَعد: " إِنَّ لِي مَالًا فَهُوَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَانِ وَلِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَيُّهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ فَأَنَا أُطَلِّقُهَا فَإِذَا حَلَّتْ فَتَزَوَّجْهَا "، قال: " بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ دُلُّونِي أَيْ عَلَى السُّوقِ" فَلَمْ يَرْجِعْ حَتَّى رَجَعَ بِسَمْنٍ وَأَقِطٍ قَدْ أَفْضَلَهُ. قال الراوي -عَلَى لِسَانِ عَبْدِ الرحمن بن عُوف-: " رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ أَثَرَ صُفْرَةٍ، فَقَالَ: مَهْيَمْ؟ فَقُلْتُ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ". (سنن النسائي) (٦/ ١٣٧).

ولقد طابت نفوس الأنصار بما سيبذلونه لإخوانهم المهاجرين من عون ملتزمين بنظام المؤاخاة، متفانين في تنفيذه.

إبطال التوارث بين المتآخين من المهاجرين والأنصار بنص القرآن الكريم

لا شك أن التوارث بين المتآخين كان لمعالجة ظروف استثنائية مرت بها الدولة الناشئة، فلما ألف المهاجرون جو المدينة، وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم- رجع التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية، على أساس صلة الرحم، وأبطل التوارث بين المتآخين، وذلك بنص آيات القرآن الكريم؛ حيث يقول ربنا ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]. هذه الآية -كما هو واضح منها. نسخت التوارث بموجب نظام المؤاخاة، ويرى ابن عباس أن آية: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣]

هي التي نسخت التوارث بالمؤاخاة، فالموالي في رأيه هم الورثة بالرحم، ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ هم المهاجرون الذين كانوا يرثون بنظام المؤاخاة، وذكر ابن عباس: أن ما ألغي من نظام المؤاخاة هو الإرث، أما النصر والرفادة والنصيحة فباقية، يمكن أن يوصى ببعض الميراث بين المتآخين، ودون وصية لا يرث، وهذا ما قد وردت الإشارة إليه في (صحيح البخاري).

وذهب الإمام النووي أيضًا إلى أن الميراث لا يكون بين المتآخين دون وصية، فقال: "أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء، وأما المؤاخاة في الإسلام، والمحالفة على طاعة الله ﷻ، والتناصر في الدين، والتعاون على البر والتقوى، وإقامة الحق، فباقٍ لم يُنسخ".

إذًان فالمؤاخاة التي شرعت بين المؤمنين باقية لم تُنسخ، اللهم إلا ما يترتب عليها من توارث، فإنه منسوخ، وبوسع المؤمنين في كل عصر أن يتآخوا بينهم على المواساة والارتفاق والنصيحة، ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة العامة بين المؤمنين المقررة بقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠].

وتتمثل استجابة المسلمين لأوامر الله ﷻ في انخلاعهم عن علاقاتهم الاجتماعية والمكانية إذا اقتضت ذلك مصلحة العقيدة.

آصرة العقيدة هي الأساس الأول في تآلف الناس

إن آصرة العقيدة هي أساس الارتباط بين الناس في مجتمع المدينة المنورة الذي أقامه رسول الله ﷺ؛ فالروابط التي تجمع بين الناس مختلفة، وهم يجتمعون قبائل، وشعوب، وأوطان، وقوميات، وقد يجتمع أبناء القوميات المختلفة تحت لواء واحد بسبب الدين أو المصالح المشتركة، وتعتبر آصرة القرب أو الدم والانتماء إلى أصل عرقي من أقدم الروابط التي كونت المجتمعات البشرية.

ويوم أن ظهر الإسلام كانت تجمعات الناس تظهر بشكل قبائل كما في جزيرة العرب، وتظهر في شكل قوميات، كما في بلاد فارس، أو في شكل مجتمعات دينية، كما في الإمبراطورية البيزنطية، لكن الإسلام جعل رابطة العقيدة هي الأساس الأول في ارتباط الناس وتآلفهم، وإن أقرَّ بعض الأواصر الأخرى إذا انضوت تحت هذا الأصل، مثل الأرحام التي حث الإسلام على وصلها، ورتب على ذلك الأحكام المتعلقة بالتكافل الاجتماعي والإرث، ومثل صلة الجوار، وما يترتب عليها من حقوق الجار، ومثل الصلة بين أفراد العشيرة، وما يترتب عليها من تضامن في الديات، ومثل الصلة بين أبناء المدينة، وجعلهم أولى من سواهم بزكاة أغنيائهم، لكن هذه الصلات ينبغي أن تندرج تحت آصرة العقيدة، فإذا خالفتها وأضرت بها لم يبقَ لها أي لون من ألوان الاعتبار، فأساس الارتباط في الإسلام هو العقيدة، التي تقتضي مصلحتها التفريق بين المرء وأبيه، وبين المرء وابنه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، وهكذا قاتل أبو عبادة ﷺ أباه الذي كان يمجد الأصنام، فقتله عندما التقى به في معركة بدر الكبرى، ورأى أبو حذيفة رضي الله عنه أباه المشرك وهو يُسحب ليُرمى في القليب ببدر دون أن ينكر قلبه شيئًا من ذلك.

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك فيما قصَّه عن نوح عليه السلام وابنه، قال الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]. هكذا بيّن الحق تعالى أن ابن نوح وإنْ كان من أهله باعتبار القرابة، لكنه لم يعد من أهله لَّما فارق الحقَّ، وكفر بالله، ولم يتبع نوحًا نبي الله، وصرَّح القرآن الكريم بعلة انقطاع الآصرة بين نوح وابنه بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾.

فإذا كانت القرابة من الدرجة الأولى تنبتُّ عندما تصطدم بالعقيدة، فالأحرى أن تنبتَّ صلات الدم، والعرق، والوطن، واللون إذا اصطدمت بمصلحة العقيدة.

وقد حصر الإسلام الأخوة والموالاة بين المؤمنين فقط، ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[الحجرات: ١٠]، وقد قطعﷻ الولاية بين المؤمنين وبين الكافرين من المشركين واليهود والنصارى، حتى لو كانوا آباءهم، أو إخوانهم، أو أبناءهم، ووصف من يفعل ذلك من المؤمنين بالظلمين.

وقد وضع القرآن الكريم مصالح المسلم، وعلاقاته الدنيوية كلها في كفة، ووضع حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله في كِفة أخرى، وحذر المؤمنين وتوعدهم إن هم غلَّبوا مصالحهم وعلاقاتهم الاجتماعية على مصلحة العقيدة، فقال ﷻ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقد نزلت هذه الآيات في الحضّ على الهجرة إلى المدينة للدفاع عن الدولة الإسلامية التي نشأت فيها، وقد نجح الصحابة الكرام في امتحان العقيدة، ففارقوا الأهل والأموال والمساكن التي يحبونها، وهاجروا إلى الله ورسوله والجهاد في سبيله.

خلاصة القول: أن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعًا عقيديًّا يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا الله ولرسوله وللمؤمنين، وهي أعلى أنواع الارتباط وأرقاها؛ إذ إنه يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وهذا المجتمع مفتوح لمن أراد أن ينتمي إليه مهما كان لونه أو جنسه،

على أن ينخلع من صفته الجاهلية، ويكتسب الشخصية الإسلامية؛ ليتمتع بسائر حقوق المسلمين.

قيام المجتمع المدني على أساس الحب والتكافل بين أفراده

وإذا كانت العقيدة هي آصرة الناس في المجتمع الإسلامي، فإن الحبَّ هو أساس بنية المجتمع المدني؛ لأن الإسلام أقام مجتمعه المدني على أساس الحب والتكافل، كما في الحديث الشريف الذي يعرفه الناس جميعًا، وهو قول النبي ﷺ: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)). فالتواد والرحمة والتواصل أساس العلاقة بين أفراد المجتمع، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، حاكمهم ومحكومهم.

وقد تكفلت تعاليم الإسلام بتدعيم الحب وإشاعته في المجتمع، ففي الحديث النبوي: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)). ويتعاون المؤمنون في مواجهة أعباء الحياة، فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته؛ لقول النبي ﷺ: ((والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)). أخرجه الإمام الترمذي، والإمام أبو داود.

علاقة المؤمنين قائمة على الاحترام المتبادل، فلا يستعلي غنيٌّ على فقير، ولا حاكم على محكوم، ولا قوي على ضعيف؛ ((بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)) رواه مسلم. وقد تفتر العلاقة بين المسلم وأخيه، وقد تنقطع ساعة غضب، لكن انقطاعها لا يستمر فوق ثلاث ليالٍ، ((لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام))، كما جاء في (الصحيحين).

وتدعم أسس الحب بالصلة والصدقة، ((تهادوا تحابوا))، ويضع الغني أمواله في خدمة المجتمع، فيُخرج زكاة أمواله فريضة من الله، ويواسي المحتاجين بأمواله، حتى إنهم ليفرحون إذا كثرت ثروته؛ إذ تعود عليهم بالخير والمواساة الذي يكون سببًا في تكثير الزكاة.

وكان أغنياء الصحابة يعرفون أنهم مستخلفون على المال الذي اكتسبوه، فإذا وجدوا ثغرة تعجز الدولة عن سدها -أو لا تتنبه لها. بذلوا أموالهم في سدها، وقد ثبت في التاريخ أن عثمان بن عفان رضي الله عنه تصدق بقافلة ضخمة بها ألف بعير، تحمل البُرَّ والزيت والزبيب، تصدق بها على فقراء المسلمين عندما حلت الضائقة الاقتصادية بالمدينة المنورة في خلافة الصديق رضي الله عنه، وقد عرض عليه تجار المدينة خمسة أضعاف ثمنها ربحًا، فقال: "أُعطيت أكثر من ذلك"، فقالوا: "مَن الذي أعطاك، وما سبقنا إليك أحد، ونحن تجار المدينة؟"، قال: "إن الله أعطاني عشرة أمثالها"، ثم قسمها بين الفقراء المسلمين.

هذا هو موقف أغنياء المسلمين في المجتمع المدني، فهل لضعفاء المسلمين وفقرائهم موقف -أيضًا في هذا المجتمع المدني؟

لقد وقف الأغنياء والفقراء في صف جهادي واحد؛ فالعقيدة التي منعت ظهور الصراع الطبقي، وآخت بين الأغنياء والفقراء، ووحدت الصف الداخلي، هي العقيدة نفسها التي طالبتهم بالجهاد.

وتلك صورة من المجتمع المدني، توضح كيف عاشت مجموعة من أفقر المسلمين في عصر السيرة النبوية المباركة، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، يذكر ابن سعد في (الطبقات

الكبرى): أن هذه الآية نزلت في أهل الصُّفة، وذكر الطبري أنها نزلت في فقراء المهاجرين.

عَقَبَ هجرةَ المسلمين من مكة إلى المدينة المنورة ظهورُ مشكلة تتعلق بمعيشة المهاجرين الذين تركوا بيوتهم وأموالهم ومتاعهم بمكة فرارًا بدينهم من طغيان المشركين، وقد وضع الأنصار إمكانياتهم المادية في خدمة هؤلاء المهاجرين، لكن تدفق المهاجرين إلى المدينة بقي محتاجًا إلى مأوى دائم لإقامتهم، خاصةً بعد موقعة الخندق.

وقد عمل ﷺ على إيجاد المأوى لهؤلاء المهاجرين الفقراء والوفود الطارقين، وهنا تأتي فرصة ظهور أهل الصُّفَّة، وحانت الفرصة عندما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بعد ستة عشر شهرًا من هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة؛ حيث بقي حائط القبلة الأولى في مؤخر المسجد النبوي، فأمر النبي ﷺ به، فظُلل أو سُقِّفَ، وأطلق عليه اسم الصُّفَّة أو الظلة، ولم يكن لها ما يستر جوانبها، ونسب فقراء المهاجرين إلى صُفَّة المسجد النبوي بالمدينة المنورة فسموا بأهل الصُّفَّة.

عدد أهل الصُّفَّة وذكر أسمائهم

أ. سكان الصُّفة:

أول من نزل الصُّفَّة هم المهاجرون؛ لذلك نُسبوا إليها ونسبت إليهم، فقيل: صُفَّة المهاجرين، وبالإضافة إلى المهاجرين كان يسكنها أو ينزل بها بعض الغرباء من الوفود التي كانت تقدم على النبي ﷺ معلنةً إسلامها وطاعتها، وكان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصُّفَّة، والعريف: هو النقيب أو القائم بأمور القبيلة أو الجماعة.

كان أبو هريرةﷺ عريف من سكن الصُّفَّة من القاطنين، ومن نزلها من الطارقين، فكان النبي ﷺ إذا أراد دعوتهم عهد إلى أبي هريرة فدعاهم، لمعرفته بهم، وبمنازلهم ومراتبهم في العبادة والمجاهدة.

وإلى جانب المهاجرين والغرباء نزل بعض الأنصار في الصُّفَّة؛ حُبًّا لحياة الزهد والفقر، رغم استغنائهم عن ذلك، ووجود دور لهم في المدينة، ومنهم كعب بن مالك الأنصاري، وحنظلة بن أبي عامر الأنصاري - غسيل الملائكة - وحارثة بن النعمان الأنصاري وغير هؤلاء؛ ولأن أهل الصُّفَّة كانوا أخلاطًا من قبائل شتى؛ فسماهم النبي ﷺ الأوفاض، وقيل في سبب هذه التسمية أيضًا: أن كل واحد منهم كان معه وفضه، وهو شيء مثل الكنانة الصغيرة يضع فيها طعامه، لكن القول الأول هو الأجود كما يقول بعض العلماء، وكما ورد عند الإمام أحمد بن حنبل مسنده.

ب. ماذا عن عددهم؟ وماذا عن أسمائهم؟

كان عددهم يختلف باختلاف الطبقات، فهم يزيدون إذا قدمتْ الوفودُ إلى المدينةِ، ويَقِلُّوْنَ إذا قَلَّ الطارقون من الغرباء، على أن عدد المقيمين منهم في الظروف العادية كان في حدود السبعين رجلًا، كما حدد ذلك أبو نعيم في (الحلية)، وقد يزيد عددهم كثيرًا، حتى إن سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم، فضلًا عن الآخرين الذين يتوزعهم بقية الصحابة، ويذكر السمهودي: أن أبا نعيمٍ سرد أسماءهم في (الحلية) فزادوا على المائة، لكن عدد من سمَّاهم أبو نعيم اثنان وخمسون فقط، منهم خمسة نفى أبو نعيم نفسه أن يكونوا من أهل الصُّفَّة، وأبو نعيم وحده هو الذي يقدم إلينا قائمة طويلة بأسماء

المشهورين من أهل الصُّفَّة، مضافًا إليهم من ذكرتهم بقية المصادر ممن لم يذكرهم أبو نعيم:

١. أبو هريرةﷺ؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٢. أبو ذرٍّ الغفاريﷺ؛ حيث نسب نفسه إليهم كذلك.

٣. واثلة بن الأسقع.

٤. قيس بن طهفة الغفاري؛ حيث نسب نفسه إليهم أيضًا، ثم كعب بن مالك الأنصاري، ثم يأتي سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي، ثم سلمان الفارسيﷺ، ثم أسماء بن حارثة بن سعيد الأسلمي، ثم حنظلة بن أبي عامر الأنصاري -غسيل الملائكة-، ثم حازم بن حرملة، فحارثة بن النعمان الأنصاري النجاري، فحذيفة بن أسيد أبو سريحة الأنصاري، ثم حذيفة بن اليمانﷺ -وهو من المهاجرين، حالف الأنصار فعُدَّ في جملتهم-، ثم جارية بن جميل بن شبة بن قرط، ثم جعيل بن سراقة الضمري، ثم جرهد بن خويلد الأسلمي، ثم رفاعة أبو لبابة الأنصاري، ثم عبد الله ذو البجادين، ثم دكين بن سعيد المزني، وقيل: الخثعمي، ثم خبيب بن يساف بن عنبة، ثم خريم بن أوس الطائي، ثم خريم بن فاتك الأسدي، ثم خنيس بن حذافة السهمي، ثم خباب بن الأرت، ثم الحكم بن عمير الثملي، ثم حرملة بن إياس، وقيل: هو حرملة بن عبد الله العنبري، ثم زيد بن الخطاب، ثم عبد الله بن مسعود، ثم الطفوي الدوسي، ثم طلحة بن عمرو النضري، ثم صفوان بن بيضاء الفهري، ثم صهيب بن سنان الرومي، ثم شداد بن أسيد، ثم شقران مولى النبي ﷺ، ثم السائب بن خلاد، ثم سالم بن عمير من الأوس من بني ثعلبة بن عمرو بن عوف، ثم سالم بن عبيد الأشجعي، ثم سفينة مولى النبي ﷺ،

ثم سالم مولى أبي حذيفة، ثم أبي رزين، ثم الأغر المزني، ثم بلال بن رباح، ثم البراء بن مالك الأنصاري، ثم ثوبان مولى النبي ﷺ، ثم ثابت بن وادعة الأنصاري، ثم ثقيف بن عمرو بن الشميط الأسدي، ثم سعد بن مالك أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، ثم العرباض بن سارية، ثم غرفة الأزدي، يأتي بعده عبد الرحمن بن قرط، ثم عباد بن خالد الغفاري.

انقطاع أهل الصُّفَّة للعبادة، ومشاركتهم في أحداث المجتمع والجهاد، وصفة ملابس أهل الصُّفَّة وطعامهم، ومواساة النبي ﷺ لهم

أ. انقطاع أهل الصُّفَّة للعبادة، ومشاركتهم في أحداث المجتمع والجهاد:

كان أهل الصُّفَّة المستقرين في صُفَّتهم بمسجد الرسول ﷺ ينقطعون للعلم، ويعتكفون في المسجد للعبادة، ويألفون حياة الفقر والزهد؛ فكانوا في خلوتهم يُصَلُّوْن، ويقرءون القرآن، ويتدارسون آياته، ويذكرون الله تعالى، ويتعلم بعضهم الكتابة، حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ لأنه كان يعلمهم القراءة والكتابة.

واشتهر بعضهم بالعلم وحفظ الحديث عن النبي ﷺ مثل أبي هريرة رضي الله عنه الذي عُرف بكثرة تحديثه، ومثل حذيفة بن اليمان الذي اهتم بأحاديث الفتن.

لكن انقطاع أهل الصُّفَّة للعلم والعبادة لم يعزلهم عن المشاركة في أحداث المجتمع والإسهام في الجهاد في سبيل الله عز وجل، وكان منهم الشهداء ببدر، مثل: صفوان بن بيضاء، وخريم بن فاتك الأسدي، وخبيب بن يساف، وسالم بن عمير، وحارثة بن النعمان الأنصاري، ومنهم من استشهد بأُحد مثل: حنظلة الغسيل، ومنهم من شهد الحديبية مثل: جرحد بن خويلد، وأبي صريحة الغفاري، ومنهم

من استشهد بخيبر مثل: سقف بن عمرو، ومنهم من استشهد بتبوك مثل: عبد الله ذي البجادين، ومنهم من استشهد باليمامة مثل: سالم مولى أبي حذيفة، وزيد بن الخطاب. هكذا كانوا رهبانًا في الليل، لكنهم كانوا -أيضًا- فرسانًا في النهار.

ب. صفة ملابس أهل الصُّفَّةِ وطعامهم، ومواساة النبي ﷺ لهم:

ولم يكن لأهل الصُّفَّةِ من الملابس ما يقيهم من البرد أو يسترهم سترًا كاملًا، فليست عندهم أردية، وما لأحد منهم ثوب تام، فكانوا يربطون في أعناقهم الأكسية أو البرد، أو يأتزرون بالأزر أو الكساء، فمنهم من تغطي ما يبلغ نصف الساقين، ومنهم من يغطي لباسه، وقد لا يصل حتى يبلغ الركبتين، وتذكر المصادر أنهم كانوا يلبسون ما يسمى بالحويتيكية، وهي عمة يتعمم بها، والحنف، وهي برد شبه يمنية، تعمل من نوع غليظ من أردأ الكتان، كانوا يستخدمونها، وكثيرًا ما كانوا يخجلون من الظهور بملابسهم؛ لأنها لا تسترهم سترًا كاملًا، وسرعان ما كانت تتسخ ملابسهم، فجوانب الصُّفَّة مكشوفة للهواء والتراب، حتى اتخذ العرق من جلودهم طوقًا من الغبار، كما ورد في (الحلية) لأبي نعيم.

أما طعامهم فكان معظمه من التمر، فكان النبي ﷺ يجري لكل رجلين منهم مدًّا من تمر في كل يوم، وقد اشتكوا من أكل التمر، وقالوا له: أَحْرَقَ بطونَهُم.

لكن النبي ﷺ لم يستطع أن يوفر لهم طعامًا غيره، فصبَّرهم وواساهم، وكان ﷺ كثيرًا ما يدعوهم إلى تناول الطعام في بيته، لكنه لم يتمكن من تقديم الطعام الجيد لهم، فلم يكن يوسع على نفسه وأهله بالنفقة، ففي بعض المرات سقاهم لبنًا، ومرة أطعمهم جشيشةً، وهي طعام يصنع من طحين ولحم أو تمر مطبوخ، ومرة أخرى حيسة، وهي طعام من التمر والدقيق والسمن، ومرة ثالثة شعير محمص، لكنهم نالوا في إحدى المرات الثريد، كما ورد في صحيح البخاري، وابن سعد، وغيرهم.

كان ﷺ يقدم إليهم ما يستطيع ، لكنه كان يعتذر إليهم إذا لم يكن الطعام جيدًا ، فقد قدم إليهم مرة صحفة فيها صنيع من شعير، وقال : "والذي نفس محمد بيده ، ما أمسى في آل محمد طعام ليس شيئًا ترونه" ، ذُكِر ذلك في طبقات ابن سعد.

لا شك أنهم كانوا ينالون طعامًا أجود عندما يستضيفهم أحد أغنياء الصحابة في داره ، وكثيرًا ما كان الصحابة يفعلون ، ولكنهم في كثير من الأحيان ما كانوا ليحصلون على ما يمسك رمقهم ؛ فأثر ذلك فيهم ، فكانوا يخرون في الصلاة ، لما بهم من جوع ، حتى قال الأعراب : إن هؤلاء مجانين ، وكان أبو هريرةﷺ يصرع بين المنبر وحجرة عائشة < لما به من الجوع.

لكن قلة طعامهم ما كانت لتؤدي بهم إلى الشره والمغالبة على الطعام ، بل كانت حقوق الأخوة ، وكانت آدابها تحكم علاقاتهم ببعضهم ، وقد حكى أبو هريرة < أنهم كانوا إذا اجتمعوا على أكل التمر وأكل أحدهم تمرتين معًا قال لأصحابه : إني قد قرنت فأقرنوا ؛ لئلا ينال من التمر أكثر مما معهم ، وهذا أيضًا موجود في (الحلية).

رعاية النبي ﷺ وأصحابه لأهل الصُّفَّةِ

لكن النبي ﷺ كان يرعى أهل الصُّفَّة ، فقد كانوا موضع رعاية النبي ﷺ ، وكان يتعهدهم بنفسه فيزورهم ، ويتفقد أحوالهم ، ويعود مرضاهم ، كما كان يكثر مجالستهم ، ويرشدهم ويواسيهم ، ويذكرهم ويقص عليهم ، ويوجههم إلى قراءة القرآن الكريم ومُدارسته ، وذكر الله والتطلع إلى الآخرة ، ويشجعهم على احتقار الدنيا وعدم تمني الحصول على متاعها ، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئًا ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم ، وأصاب منها وأشركهم فيها ، وكثيرًا ما كان يدعوهم إلى الطعام في إحدى حجرات أزواجه -رضي الله عنهن- ولم يكن يغفل عنهم مطلقًا ، بل كانت حالتهم ماثلة أمامه ، وقد طلب من ابنته

فاطمة < أن تتصدق عليهم لما ولدت الحسن > بوزن شعره من الفضة، وقد أوصى النبي ﷺ الصحابة بالتصدق على أهل الصُّفَّة، فجعلوا يَصلونهم بما استطاعوا من خير، فكان أغنياء قريش يبعثون بالطعام إليهم، وكان النبي ﷺ يوزع أهل الصُّفَّة بين أصحابه بعد صلاة العشاء؛ ليتعشوا عندهم، ويقول: ((من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، وإن أربع فخامس أو سادس))؛ ومن بقي منهم يصحبهم النبي ﷺ إلى داره، فيتعشون معه ﷺ.

ويبدو أن الأمر كان كذلك في بداية الهجرة، فلما جاء الله بالغنى لم تعد هناك حاجة لتوزيعهم على دور الصحابة، وقد استثارت حالة أهل الصُّفَّة سبعين من الأنصار يُقال لهم القراء، وهم الذين استشهدوا يوم بئر معونة، فكانوا يقرءون القرآن، ويتدارسونه بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه بالمسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصُّفَّة والفقراء.

وينهي الأستاذ أكرم ضياء العمري حديثه عن أهل الصُّفَّة قائلًا: "رحم الله القوَّامين الصوَّامين المجاهدين الزاهدين أهل الصُّفَّة، وصدق الله العظيم: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٢].

(صحيفة المدينة): الوثيقة التي حددت الحقوق والواجبات ورسمت العلاقات بين طوائف السكان في المدينة المنورة

يقول ابن إسحاق: "كتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادَع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم" وشرط لهم"، أي: لما امتنعوا من اتباعه، وذلك قبل الإذن بالقتال، وأخذ الجزية ممن أبى الإسلام.

وذكر ابن إسحاق ما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام اللغوي الفقيه الأديب، في كتابه (الأموال) بسند جيد عن الزهري؛ حيث ذكر نص هذه الوثيقة التي عقدها النبي ﷺ بينه وبين اليهود وسكان المدينة.

قال أبو عبيد: "حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير، وعبد الله بن صالح، قالا: حدثنا الليث بن سعد قال: حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب الزهري أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب: ((هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم، فلحق بهم، فحل معهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة دون الناس، المهاجرون من قريش على رباعتهم، يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى، وهم يفْدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين والمسلمين، وبنو عوف على رباعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين))، ثم ذكر النبي ﷺ هذا الشرط: ((على رباعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين)).

وقد ذكر النبيُّ ﷺ هذا لكل بطن من بطون الأنصار، وأهل كل دار، وهم بنو الحارث بن الخزرج، وبنو ساعدة، وبنو جشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو الأوس، إلى أن قال: ((وإن المؤمنين لا يتركون مفرحًا -يعني: مثقلًا بالدين منهم- أن يعينوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى أو ابتغى منهم دسيعة -أي: عطية ظلم، أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين- وأن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له المعروف

والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحد، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء عدل بينهم، وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضًا، وإن المؤمنين يبيئ –بمعنى: يكف- بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشركًا ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بينة، فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل، وإن المؤمنين عليه كافّة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فيه هذه الصحيفة، أو آمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يئويه، فمن نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة، لا يقبل منه صرف ولا عدل، وأنكم ما اختلفتم فيه من شيء فإن حكمه إلى الله والرسول، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف ومواليهم وأنفسهم أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمؤمنين دينهم، إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، كذلك ليهود كل من بني الحارث، وبني جشم، وبني ساعدة، والأوس، وإنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظَلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن المدينة جوفها حرم لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تُجارُ حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان من بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله، وإلى محمد رسول

الله، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإنهم إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم فإنهم يصالحونه، وإن دعينا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، وعلى كل أناس حصته من النفقة، وإن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة، وإن بني الشطبة بطن من جفنة، وإن البرَّ دون الإثم، فلا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم، وإنه من خرج آمِن، ومن قعد آمِن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن أولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن، وإن الله جارٌ لمن برَّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ)).

قال أبو عبيد محاولًا شرح بعض الكلمات التي وردت بهذه الصحيفة:

قوله: ((بنو فلان على رباعتهم)) الرباعة: هي المعاقل، وقد يقال: فلان على رباعة قومه، إذا كان المتقلد لأمورهم والوافد على الأمراء فيما ينوبهم.

وقوله: ((إن المؤمنين لا يتركون مفرحًا في فداء أو عقل)) المفرح: هو المثقل بالدين، يقول: فعليهم أن يعينوه وإن كان أسيرًا فكُّوا إساره، وإن كان جنى جناية خطأ عقلوا عنه؛ يعني تحملوا الدية عنه.

وقوله: ((لا يجير مشركًا مالًا لقريش)) يعني: اليهود الذين كان وادعهم، يقولون: فليس من موادعتهم أن يجيروا أموال أعدائه، ولا يعينوهم عليه.

وقوله: ((من اعتبط مؤمنًا قتلًا فهو قود)) الاعتباط: أن يقتله بريئًا محرم الدم، وأصل الاعتباط في الإبل أن ترحم بلا داء يكون فيها.

وقوله: ((إلا أن يرضى أولياء المقتول بالعقل)) جعل النبي ﷺ الخيار في القود أو

الدية إلى أولياء المقتول، وهذا مثل حديثه الآخر: ((ومن قتل له قتيل فهو بأحد النظرين: إن شاء قتل، وإن شاء أخذ الدية)). وهذا يرد قول من يقول: ليس للولي في العمد أن يأخذ الدية إلا بطيب نفس من القاتل، ومصالحة منه له عليها.

وقوله: ((لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثًا أو يئويه)) المحدث: هو كل من أتى حدًّا من حدود الله، فليس لأحد منعه من إقامة الحد عليه، وهذا شبيه بقوله الآخر: ((من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضادّ الله في أمره)).

وقوله: ((لا يقبل منه صرف ولا عدل)) الصرف التوبة، والعدل الفدية، قال أبو عبيد: وهذا أحب إليَّ من قول من يقول: الصرف الفريضة، والعدل النافلة؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]. فكل شيء فدي به شيء فهو عدله.

وقوله: ((إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين))، فهذه النفقة في الحرب خاصة، فقد شرط عليهم المعاونة على عدوه، ونرى أنه إنما كان يُسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرطه عليهم في النفقة، فكان ﷺ يعطي لليهود سهمًا من الغنيمة- إذا غزوا مع المسلمين، لكن بهذا الشرط الذي شرطه عليه من النفقة، ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم، وقال أبو عبيد: وقوله: ((وإن يهود بني عوف أمة من المؤمنين)) إنما أراد نَصْرَهُم المؤمنين، ومعاونتهم إياهم على عدوهم بالنفقة على شرطها الذي شرطناه، أما الدين فليس منه في شيء؛ فقد فقال ﷺ: ((لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم)).

وقوله: ((لا يوتغ إلا نفسه)) أي: لا يهلك غيرها - وقد وقع الرجل وتغًا إذا وتغ في أمر يهلكه أو قد أوتغه غيره.

وروى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة > أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

((لو آمن بي عشرة من أحبار يهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض)).

قال ابن إسحاق: ونصبت بعد ذلك أحبار اليهود لرسول الله ﷺ العداوة بغيًا وحسدًا وضغنًا، لما خص الله ﷻ به العرب من اصطفاء رسوله منهم، وكانت أحبار اليهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه، ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل، وكان القرآن ينزل فيهم، وفيما يسألون عنه، إلا قليلًا من المسائل في الحلال والحرام، كان المسلمون يسألون عنها، وذكر ابن إسحاق وغيره أسماء اليهود، بل جاء ذكره في كتاب تكلمت عنه في اليهود، وكانوا ثلاث قبائل: قينقاع -وهم الوسط من يهود المدينة- وقريظة -وهو أخو النضير والوسط من يهود المدينة- والنضير وقد حاربته هؤلاء الثلاثة، ونقضوا العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ فمنّ على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة وسبى ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قريظة.

هذا ما جاء خاصًّا بهذا الدستور الذي عقده النبي ﷺ بينه وبين المهاجرين والأنصار واليهود ممن كانوا يقيمون في المجتمع المدني أول قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة.

ولقد نظم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المدينة، وكتب هذا الكتاب الذي أوردته المصادر التاريخية، وكان الهدف من وراء ورود هذا الكتاب توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد حقوق وواجبات كل طرف، وقد سمّت المصادر القديمة هذا الكتاب أحيانًا بـ"الكتاب" وأحيانًا بـ"الصحيفة" وأطلقت الأبحاث الحديثة على هذه الصحيفة لفظ "الدستور"، ولفظ "الوثيقة".

وقد اعتمد الباحثون المعاصرون على الوثيقة في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة.

الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والنفاق وظهوره في المدينة المنورة، والإذن بالقتال، السرايا والغزوات قبل بدر الكبرى (طبيعتها، وأهدافها)

عناصر الدرس

العنصر الأول	: الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية بالمدينة المنورة	٧٧
العنصر الثاني	: النفاق وظهوره في المدينة المنورة	٨١
العنصر الثالث	: تابع مراحل الدعوة الإسلامية، وأقسام الكفار بعد الهجرة مع رسول الله ﷺ	٨٣
العنصر الرابع	: عدد غزوات رسول الله ﷺ	٨٧
العنصر الخامس	: أول من صنف في المغازي، وغزوات النبي ﷺ	٨٩
العنصر السادس	: الغزوات التي كانت قبل غزوة بدر الكبرى	٩٠
العنصر السابع	: غزوة بدر الأولى، وسرية عبد الله بن جحش	٩٣

الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية بالمدينة المنورة

كانت المهمة الأولى أمام سيد المرسلين ﷺ عند استقراره في المدينة وبدئه العمل: هي إنشاء جماعة منظمة آمنة في ذلك البلد، وكان الإسلام هو المدخل لقيام الجماعة، فهو يتضمن عقيدة سماوية سامية، كفيلة بأن تجمع قلوب الناس حول لواء واحد، وذلك الدين يتضمن مثلًا أعلى، وعروة وثقى تُحفِّز الناس للعمل، وتفيض في قلوبهم الشعور بالأمن، ويتضمن الإسلام كذلك شريعة فاضلة متكاملة، تضمن الحقوق داخل الجماعة، ويتضمن قانونًا أخلاقيًّا يرتفع بالناس عن فوضى المنازعات الدائمة، ويحمي الجماعة من عدوان الكبار على الصغار، والأقوياء على الضعفاء، ويحيط أموال الناس وأشخاصهم بسياج قانوني لا غنى عنه في مجتمع مستقر منظم، وهناك إلى جانب ذلك كله الرجل الكفيل بتحقيق هذه الآمال، وتطبيقها في الواقع، وهو رسول الله ﷺ الذي اختاره الله رسولًا إلى الناس كافة، كي ينشئ الجماعة الإسلامية في الأرض، ووهبه المَلَكَات والخصائصَ الكفيلة بتمكينه من القيام بذلك العمل العظيم.

وقد بدأ محمد ﷺ في إنشاء هذه الجماعة في الأيام الأولى لوصوله إلى قباء، فقد أسرع إليه كبار رجال المدينة وأخذوا يجتمعون معه ليتشاوروا، واجتمع معه المهاجرون، وكان عدد منهم قد سكن قباء، وتفرق الباقون في نواحي المدينة، وكانت نواة تكوين الجماعة أولئك المهاجرين، ومعهم نقباء أهل المدينة الاثنا عشر الذين انتخبوا ليلة بيعة العقبة الثانية، ومجرد تفكير محمد ﷺ في أن يطلب إلى أهل المدينة، الذين قابلوه في مكة في اجتماع العقبة الثانية انتخاب أولئك النقباء؛ ليشتركوا معهم في تدبير أمر الجماعة المقبلة، يعطينا فكرة عن تصوره ﷺ لتكوين

الجماعة الإسلامية، فهي جماعة من رجال مؤمنين أحرار يتشاورون ويديرون ويدبرون أمورهم معًا، ومحمد ﷺ في وسطهم، يرشدهم إلى الطريق السوي، ويوجههم إلى ما فيه خير الجماعة كلها، وهو لا يقطع دونهم أمرًا فيما عدا ما يتصل بالشريعة والعقيدة، فهذه يتلقاها من الله، ويبلغهم إياها ويوضحها لهم، ويقوم فيها مقام القدوة التي يتبعها الناس.

أ. أهمية المسجد في بناء الجماعة الإسلامية الأولى:

كانت الخطوة الأولى لإنشاء هذه الجماعة هي بناء المسجد، فالمساجد هي رموز الجماعات الإسلامية ومراكزها، وهذا يتجلى بوضوح في إنشاء مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة، فقد أنشأه في وسطها تقريبًا، ولم يجعله مصلى فحسب، بل جعله أيضًا مركزًا لتدبير شئون الجماعة، ومكانًا لالتقاء أفرادها، وفي ركن من صحنه الواسع أقام محمد ﷺ الحجرات -حجرات أمهات المؤمنين- التي أقام فيها بقية حياته، وفي الطرف الشمالي للجامع أنشأ العريش، هذا العريش الذي كان يعين ناحية القبلة، وفي الطرف المقابل لناحية القبلة أقيمت الصُّفَّة، وهي عبارة عن سقف أو ظِلة مُقامة بعرض الجدار، تحملها جذوع نخل ليجلس تحتها أهل الصُّفَّة وهم -كما تؤكد كتب السيرة- نفر من الفقراء أحبوا أن يقضوا حياتهم قرب مسجد الرسول ﷺ للقيام بخدمته، وعبادة الله فيه، ولكننا عندما نقرأ أسماء أهل الصُّفَّة نجد الكثيرين منهم -وقد ذكرناهم من قبل- لا ينطبق عليهم وصف الفقراء، ويبعد أن يكونوا قد عاشوا على صدقات الناس، فقد كان فيهم أبو ذر الغفاري، وأبو ذر لا يمكن أن يكون قد عاش على صدقات الآخرين، وفيهم أيضًا عمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وصهيب الرومي،

وهم من الصحابة القدماء، وكانت لهم بيوتهم المعروفة، ومن هنا فلا بد أن يكون لأهل الصُّفَّة عمل محدد، ووظيفة بالنسبة للمسجد، وبالنسبة للرسول ﷺ، ولنذكر هنا أن نفرًا من أهل الصُّفَّة كانوا دائمًا في خدمة الرسول ﷺ يقدمون له وللمسجد أجلَّ الأعمال التي لا يستغنى عنها.

كان قيام المسجد إيذانًا لقيام الجماعة، فكان مكانًا للصلاة ومجمعًا للمسلمين، يسمعون فيه أخبار جماعتهم، وما تحققه من تقدم وما يحيط بها من ظروف، وما كانت تقوم به من نشاط ديني وسياسي وعسكري واسع، هنا كان يقيم محمد ﷺ رأس الجماعة وقائدها، وكان رجلًا نشيطًا قلما يركن للراحة، فكان إما غازيًا أو زائرًا للناس أو طائفًا بنواحي المدينة، وقليلة هي تلك الأوقات التي كان يقضيها ساكنًا يتحدث مع أصحابه خارج غرفه، وكان ﷺ قليل الكلام فإذا تكلم فالبقدر المناسب فقط، وكان من صفاته الكبرى عندما يجتمع مع الناس - الإنصات وحسن الاستماع، وكان يستوعب المهم مما يسمع؛ سواء أكان جالسًا في بيته أم خارجه، أو في طريقه إلى إحدى الغزوات، وكانت عادته أن يدع الآخرين يتحدثون، وأن يطيل التفكير فيما يسمع ولا يتكلم إلا عن روية، ولم تكن إدارته لشئون الجماعة قائمة على أوامر يصدرها، بل على القدوة الصالحة التي كان يضربها، وقد كان نادرًا ما يصدر أمرًا، ولقد حكى خادمه أنس بن مالك > أنه ﷺ لم يرفع صوته في خطابه معه قط، ولا ترك الغضب يستولي عليه مهما أخطأ خدمه ومعاونوه، ولم يرفع يدًا على خادم أو مولى قط، ولقد كان المنافقون من خصوم الإسلام -وسنعرض لهم بعد قليل- يرتكبون ما يثير ويغضب، فلا يغضب محمد ﷺ ولا يدع العاطفة تستبد به، وإنما كان هادئًا دائمًا يتصرف في صمت، وفي هدوء وبعد مشاورة أصحابه فيما جلَّ من الأمور.

ب. عمران المدينة بعد وصول النبي ﷺ إليها :

لم يكن المسجد وقيامه رمزًا لجماعة إسلامية فقط ، بل كان أيضًا هذا المسجد بداية لعمران المدينة ، لقد امتد شارع من غربي الجامع إلى جبل "سَلْع" في الجانب الغربي من المدينة ، واتصل هذا الشارع شرقًا حتى بلغ بقيع الغرقد الذي أصبح مقبرة المدينة ، ومن عند المسجد امتد شارع آخر نحو الشمال في اتجاه "السنح" ، ونشأت الدور على طول هذين الشارعين الكبيرين.

وكان الاتفاق بين محمد ﷺ وأهل المدينة ، يسمح له بالتصرف في الأراضي المهملة التي لم تكن تتبع أحدًا ، ولم يكن يستغلها أحد ، فأعطى المهاجرين والطارئين على المدينة من المسلمين قطعًا من الأرض بنوا فيها بيوتًا ، وسمح لمن يريد أن يعمر قطعة منها بالزرع بأن يفعل ذلك لحسابه الخاص ، فأقبل على ذلك الكثيرون من القضاعيين والأسالمة بصورة خاصة ، فأصبحت لهم أراضيهم ، وأصبحت لهم زروعهم ، وكان لذلك أكبر الأثر في تحسن أحوالهم وفي عمران المدينة بصفة عامة ، وكانت بعض القطع التي وهبها رسول الله ﷺ نصيب نفر لم تكن لهم بيوت واسعة ، فأنشئوا فيها بيوتًا لهم ولآلهم ، وسميت القطعة بما فيها من البيوت "الدار" ، ومع الزمن تصرف أصحابها أو ورثتهم فيما لا يحتاجون إليه من أرضها فأصبح مكان بعض هذه الدور أحياءً تسمى بأسماء أصحابها مثل : دار عبد الرحمن بن عوف ، ودار الزبير بن العوام ، وشيئًا فشيئًا ، ومع زيادة الرخاء في المدينة كثر إنشاء الناس للبيوت ، والحدائق -وكانوا يسمونها الحوائط.

واتصل عمران المدينة بهذه الطريقة ، وارتبطت الواحات المتباعدة في السهل بعضها ببعض ، وظهرت المدينة كبلد واحدة متصل الأجزاء ، عامر بالبيوت والشوارع والحارات ، مترابط الأطراف ، آهل بالناس. وعندما توقفت تجارة مكة بسبب سيطرة المدينة على طريق التجارة نتيجة لسياسة محمد ﷺ اتجه جانب كبير من

التجارة نحو المدينة المنورة، وأخذت المساحات الواقعة بينها وبين طريق التجارة تتمهد في اتجاه الغرب، مارة بوادي العقيق ومسجد القبلتين، وفي اتجاه الجنوب الغربي مارة غربي جبل عير، وهنا ظهرت أهمية موضع بئر عروة الذي أصبح منذ ذلك الحين مركزًا تجاريًّا هامًّا، وأُنشئت بعض الجسور على وديان المدينة تيسيرًا للمواصلات، وجدير بالذكر أن محمد ﷺ تنبه لأهمية القناطر والمعابر، فشجع على إنشائها حتى تتصل الشوارع، وكثرت في المدينة الأسواق، والمراد بالأسواق هنا الشوارع التجارية، وانصرف إلى التجارة كثيرون من أهل المدينة، وزاد السكان زيادة كبيرة، بل كانوا يزيدون باستمرار بسبب إقبال الناس من كل ناحية؛ لسكنى ذلك البلد العامر الآمن، ومن خلال ما يكتب السمهودي في كتابه (وفاء الوفاء) نستطيع أن نتبين كيف كانت أسعار الأرض والمباني وحاجات الحياة ترتفع في المدينة شيئًا فشيئًا، وهذه كانت بعض نتائج العمران الذي دب في البلد، والسلام الذي سادها عقب قيام الجماعة الإسلامية الأولى فيها.

وقد تضاعف بناء المساجد في المدينة المنورة خلال السنوات القليلة التي أقامها الرسول الكريم ﷺ فيها يدبر أمرها ويسوس جماعتها، ويرسم الخطوط الرئيسية لتنظيم هذه الجماعة التي ستصبح نموذجًا تحتذيه كل الجماعات الإسلامية فيما بعد.

النفاق وظهوره في المدينة المنورة

يذكر لنا الصالحي الشامي صاحب كتاب (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) بعض طوائف المنافقين الذين انضافوا إلى اليهود، وبعض أمور دارت بينهم وبين رسول الله ﷺ، ويذكر لنا هذا المرجع الهام أن ابن إسحاق وجماعة من مؤرخي السيرة ذكروا أسماء المنافقين، وهو يقول: "أنا أذكر هنا بعض من نزل القرآن الكريم بكشف حاله، وقبل ذلك أقدم معنى النفاق. فالنفاق: اسم

إسلامي، لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به". والنفاق: هو فعل المنافق الذي يستر كفره، ويظهر إيمانه، كما يتستر الرجل بالنفق الذي هو السرب، فقيل هذا في اشتقاقه، وقيل: بل هو من قولهم: نافق اليربوع، إذا دخل في قصعائه، وخرج من نفقائه وبالعكس، فهو يرقق أقصى النافقاء -يعني إحدى حجراته- ويكتمها ويظهر غيرها، وله جحر فمن أيها قصد دخل وخرج من الأخرى، فكذلك المنافق يدخل في الإيمان من جهة، ويخرج من جهة أخرى، فعل هذا اليربوع، فاشتقت كلمة النفاق مع هذا الفعل، لكن هذا لا يعنينا كثيرًا، الذي يعنينا أن المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر، ومحل النفاق القلب، فالنفاق كما يقول الشريف الجرجاني: إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب.

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلم بشرٌ كثيرٌ ممن أراد الله ﷻ هدايتهم، وانضاف إلى اليهود أناسٌ من الأوس والخزرج مما كان أمر أمرًا في الجاهلية، فكانوا أهل نفاق، على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه، فتظاهروا بالإسلام، واتخذوه جنة من القتل، ونافقوا في السر، وكان هواهم مع يهود؛ لتكذيبهم برسول الله ﷺ وجحودهم الإسلام.

وقد ذكر الله ﷻ أخبار المنافقين في سورة براءة وغيرها، وسيأتي حديث عن السور التي تحدثت عن النفاق وعن المنافقين، من بين هؤلاء المنافقين المشهورين هذا الرجل الذي يلقب بالجلاس بن سويد بن الصامت، يقول عنه ابن إسحاق: وكان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وروى ابن إسحاق وغيره، قالوا: لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين؛ قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقًا على إخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير، فسمعها عمير بن سعد > وكان في حجر جلاس، خلف على أمه بعد أبيه، فقال له عمير: والله يا جلاس، إنك لأحب الناس إلي وأحسنه عندي يدًا، وأعزه علي أن يصيبه شيء يكرهه، ولئن قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك، ولئن صمت

ليهلكن ديني، ولإحداهما أيسر علي من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر ما قال له جلاس، فأرسل رسول الله ﷺ إليه، فحلف جلاس بالله لرسول الله ﷺ: "لقد كذب عليّ عمير، وما قلت ما قال عمير"، فقال عمير: "بل والله قلته فتب إلى الله ﷻ، ولولا أن ينزل قرآنٌ فيجعلني معك ما قلتُه"، فجاء الوحي إلى رسول الله ﷺ فسكتوا، لا يتحرك أحد -وكذلك كانوا يفعلون، لا يتحركون إذا نزل الوحي- فرفع عن رسول الله ﷺ فقال بعد "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" في سورة براءة: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤]، عندئذ قال جلاس: "قد قلته، وقد عرض الله علي التوبة، فأنا أتوب"، فقبل ذلك منه، وكان همّ أن يلحق بالمشركين. وقال ابن سيرين: لما نزلت هذه الآية أخذ النبي ﷺ بأذن عمير: ((يا غلام، وفت أذنك وصدقك ربك)).

تابع مراحل الدعوة الإسلامية، وأقسام الكفار بعد الهجرة مع رسول الله ﷺ

أ. مراحل الدعوة، والإذن بالقتال:

روى البيهقي وغيره عن أبي بن كعب > قال: "لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمّروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، حتى كان المسلمون لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: تُرى نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله ﷻ؟" فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

وكانت اليهود والمشركون من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه، فأمرهم الله سبحانه وتعالى بالصبر والعفو والصفح، فقال عز وجل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: قطعه قطع إيجاب وإلزام.

وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩] أي: أن محمدًا رسول الله يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي: الإذن بقتالهم.

قال العلماء: لما قويت الشوكة واشتد الجناح، أذن الله عندئذ في القتال للمسلمين، ولكنه لم يفرضه عليهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ﴾ يعني: رخص، وقد وعدهم بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم.

ويقول العلماء: ثم فُرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم فقط، قال ﷻ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة حتى يكون الدين لله، قال اللهﷻ: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ أي: جميعًا ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦]. وقال -عز من قائل-: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٌ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وكان القتال محرمًا، ثم صار مأذونًا فيه، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين.

وروى الإمام أحمد، والترمذي وغيرهم: أن أول آية نزلت في القتال هي قول الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ ﴾، وعن أبي هريرة، وغيره رووا أن رسول الله ﷺ قال: ((أمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن يستقبلوا قبلتنا، ويؤتوا الزكاة، ويأكلوا ذبيحتنا، ويصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك؛ فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وحسابهم على الله، قيل: وما حقها؟ قال: زنًا بعد إحصان، أو كفر بعد إسلام، أو قتل نفس فيُقتل بها)).

ب. أقسام الكفار بعد الهجرة مع رسول الله ﷺ:

ثم كان الكفار معه ﷺ بعد الهجرة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صالحهم، ووادعهم على ألّا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم.

القسم الثاني: حاربوه ونصبوا له العداوة.

القسم الثالث: تركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يئول إليه أمره، وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصاره، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن؛ ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون، فعامل ﷺ كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه ﷻ فصالح يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، فنقض العهد الجميع، وكان من أمرهم ما سيعرض له العلماء عند دراستهم لموضوع الغزوات -إن شاء الله.

أما أهل العقد والصلح؛ فقد أمره الله ﷻ أن يقيم لأهل العقد والصلح بعهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنبذ العهد، وأمره أن يقاتل من نقض عهده، ولما نزلت سورة براءة، نزلت ببيان هذه الأقسام كلها، فأمره الله ﷻ أن يقاتل الكافرين حتى يعطوه الجزية، أو يدخلوا في دين الإسلام، وأمره بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة والبرهان.

وأمره ﷻ في سورة براءة أيضًا بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

الأول: قسم أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له.

الثاني: قسم لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

الثالث: قسم لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، وكان لهم عهدٌ مطلق، فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت الأربعة قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله ﷻ: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ٥]. فـ﴿ ٱلْحُرُمُ ﴾ هنا هي أشهر التسيير، أولها: يوم الأذان وهو العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرها: العاشر من ربيع الآخر، وليست هي الأربعة المذكورة في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة: ٣٦]. فإن تلك واحدٌ فردٌ، وثلاثةٌ سردٌ: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ولم يُسَير المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يمكن؛ لأنها غير متوالية، وإنما هو أجّلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم، فقاتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده إلى مدته؛ فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية.

استقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصار الكفار قسمين: أهل ذمة آمنون، وأهل حرب وهم خائفون منه، وصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

عدد غزوات رسول الله ﷺ

اختلف العلماء في عدد غزوات الرسول ﷺ التي غزا فيها بنفسه، فمنهم من قال إنها سبع وعشرون، وقِيل: تسع وعشرون، وقيل: ست وعشرون، ومن قال بذلك جعل غزوة خيبر ووادي القرى غزوة واحدة. وقِيل: خمس وعشرون.

وروى مسلم بسنده قال: قاتل ﷺ في ثماني غزوات، قال النووي، لعل بريدة أسقط غزوة الفتح، ويكون مذهبه أنها فتحت صلحًا كما قال الشافعي

وموافقوه، والتوجيه الأول أقعد؛ لأن ذو القرد موضع قرب المدينة أغاروا به على لقاح رسول الله ﷺ فغزاهم.

قال الحافظ أبو العباس الحراني: لا يفهم من قوله: أنهﷺ قاتل في كذا وكذا أنه قاتل بنفسه، كما فهمه بعض الطلبة ممن لا اطلاع له على أحواله ﷺ ولا يُعلم أنه قاتل بنفسه في غزوة إلا في أحد فقط، قال: ولا يُعلم أنه ضرب أحدًا بيده إلا أبيّ بن خلف ضربه بحربة في يده.

قلت: وعلى ما ذكره يكون المراد بقولهم: قاتل في كذا وكذا: أنه ﷺ وقع بينه وبين عدوه في هذه الغزوات قتال قاتلت فيها جيوشه بحضرته ﷺ بخلاف بقية الغزوات، فإنه لم يقع فيها قتال أصلًا، لكن نقل الحافظ في الفتح عن ابن عقبة أنه قال: قاتل رسول الله ﷺ بنفسه في ثماني غزوات، ورجعت نسخة صحيحة في (مغازي ابن عقبة) ونصه: "ذكر مغازي رسول الله ﷺ التي قاتل فيها: قاتل في بدر..." إلى آخر ما ذكر، ثم قال: وغزا رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة لم يكن فيها قتال، ولم يذكر فيها أنه ﷺ قاتل بنفسه.

والغزوات الكبار الأمهات سبع: بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، والفتح، وحنين، وتبوك.

وفي شأن هذه الغزوات نزل القرآن الكريم، ففي "بدر" كثير من سورة الأنفال، وفي "أُحد" آخر آل عمران من قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢١]، إلى قبيل آخر السورة بيسير، وفي قصة الخندق، وقريظة صدر سورة الأحزاب، وفي بني النضير سورة الحشر، وفي قصة الحديبية وخيبر سورة الفتح، وأشير فيها إلى الفتح، وذكر الفتح أيضًا في

سورة النصر، وتبوك في سورة براءة، وجُرح منها رسول الله ﷺ في غزوة أحد فقط، وقاتلت معه الملائكة منها: في بدر، وحنين، وأحد على خلاف في الثالثة، كما سيأتي عند الحديث عن هذه الغزوة، ونزلت الملائكة يوم الخندق فزلزلوا المشركين وهزموهم، ورمى بالحصباء في وجوه المشركين فهربوا، فكان الفتح في غزوتين: بدر وحنين، وقاتل بالمنجنيق في غزوة واحدة وهي: الطائف، وتحصن بالخندق في واحدة وهي: الأحزاب، أشار به عليه سلمان الفارسي.

أول من صنف في المغازي، وغزوات النبي ﷺ

أول من صنف في المغازي: عروة بن الزبير أحد أئمة التابعين، ثم تلاه تلميذاه: موسى بن عقبة، ومحمد بن شهاب الزهري، ونحن نتحدث عن أوائل المؤلفين في السيرة النبوية المباركة، الإمام مالك -رحمه الله- يقول: "مغازي موسى بن عقبة أصح المغازي"، والسهيلي: "إن مغازي الزهري أول ما صنف في الإسلام"، والأمر ليس كذلك، وأجمع الثلاثة، وأشهرها مغازي أبي بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، مولاهم المدني نزيل العراقي -رحمه الله- وقد تكلم فيه جماعة، وأثنى عليه آخرون، والمعتمد أنه صدوق لا يدلس، وإذا صرح بالتحديث فهو حسن الحديث.

والمراد بالمغازي: ما وقع من قصد النبي ﷺ بنفسه، أو بجيش من قبله، وقصدهم أعم من أن يكون إلى بلادهم، أو إلى الأماكن التي حلوها حتى دخل مثل أحد والخندق، ويأتي بعد هذا حديثٌ عن الفترات السابقة على بدر الكبرى، والقتال الذي بدأ بعد أن أذن الله ﷻ فيه قبل أن تقع بدر الكبرى.

الغزوات التي كانت قبل غزوة بدر الكبرى

تمثلت أولى حركات الجهاد في غزواتٍ وسرايا، اتجهت إلى مواقع غربي المدينة، واستهدفت ثلاثة أمور:

الأمر الأول: تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام، وهي ضربة خطيرة لاقتصاد مكة التجاري.

الأمر الثاني: عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التي تسكن المنطقة؛ لضمان تعاونها، أو حيادها على الأقل في الصراع بين المسلمين وقريش، وهذه تعتبر خطوة هامة ونجاحًا عظيمًا للمسلمين؛ لأن هناك تحالفات بين هذه القبائل وقريش سمَّاها القرآن الكريم بـ"الإيلاف"، فضلًا عن وحدة العقيدة بين هذه القبائل وبين قريش، واشتراك الجميع في معاداة الإسلام.

الأمر الثالث: إبراز قوة المسلمين في المدينة أمام اليهود وبقايا المشركين، فالمسلمون صاروا لا يقتصرون على السيادة في المدينة وحدها، بل يتحركون لفرض سيطرتهم على أطرافها وما حولها من القبائل، ويؤثرون في مصالحها وعلاقاتها.

وأُولى الغزوات التي قامت لتحقيق هذه الأهداف، هي:

غزوة الأبواء: وتسمى أيضًا: بغزوة (ودّان)، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية، والأبواء تبعد عن المدينة نحو أربعة وعشرين ميلًا، ولم يقع قتال في هذه الغزوة، بل تمت موادعة بني ضمرة من كنانة، وكانت هذه الغزوة في الثاني عشر من شهر صفر سنة اثنتين من الهجرة، وقد عاد الجيش إلى المدينة

المنورة بعد أن مكث خارجها إلى بداية شهر ربيع الأول حسبما يروي المدائني، وكما جاء في (تاريخ خليفة بن خياط).

ويذكر عروة بن الزبير أن النبي ﷺ أرسل سرية من الأبواء تضم ستين رجلًا بقيادة عبيدة بن الحارث، ويذكر ابن إسحاق أن السرية أرسلت إلى سيف البحر بعد العودة إلى المدينة، وأن ثمة سرية أخرى من ثلاثين رجلًا بقيادة حمزة بن عبد المطلب، اتجهت إلى سيف البحر أيضًا في نفس الوقت للتعرض إلى قافلة قرشية، لكن السريتين لم تشتبكا مع القرشيين في قتال، فقد حالت القبائل الموادعة للطرفين دون ذلك في سرية حمزة، وجرى تراشق بالسهام فقط بين سرية عبيدة والقرشيين، كما جاء في (سيرة ابن هشام)، وفي (تاريخ خليفة بن خياط)، وليس من شك في أن السريتين استهدفتا تهديد تجارة قريش بالدرجة الأولى، وهو تحذير أولي لقريش بأن تجارتها أصبحت في خطر ما لم تغير موقفها المتعنت من الإسلام.

وفي ربيع الثاني استمر المسلمون في حملاتهم باتجاه الطريق التجاري، فكانت **غزوة بُواط** إلى رضوى قرب ينبع في مائتي مقاتل؛ لاعتراض قافلة تجارية قرشية.

ثم **غزوة العشيرة**: بينبع في جمادى الأولى، ولم يقع قتال في رضوى، والعشيرة، ولكن جرت موادعة بين مدلج في العشيرة، وقد تعرض كرز بن جابر الفهري في جمادي الآخرة في أعقاب العشيرة إلى أطراف المدينة، ونهب بعض الإبل والمواشي، فطارده الرسول ﷺ إلى صفوان من نواحي بدر، فسميت الغزوة ببدر الأولى، وقد تمكن كرز من الإفلات في حملة المطاردة هذه، لكن الحادث أكد للمسلمين ضرورة تأمين العلاقة مع جيران المدينة، فاستمرت الحملات، ولم يقتصر تعرض المسلمين لتجارة قريش مع الشام، بل تعرضوا

لطريق تجارتها أيضًا مع اليمن، فأرسلت سرية عبد الله بن جحش في ثمانية من المهاجرين إلى نخلة جنوبي مكة في آخر رجب؛ للاستطلاع والتعرف على أخبار قريش، لكنهم تعرضوا لقافلة تجارية لقريش فظفروا بها، وقتلوا قائدها، وأسروا اثنين من رجالها، وعادوا بها إلى المدينة كما يروي صاحب (تاريخ خليفة بن خياط).

ونظرًا لأن هذه الحادثة قد وقعت في الشهر الحرام، فقد أثار المشركون ضجة كبرى بدعوى أن المسلمين ينتهكون حرمة الأشهر الحرم، وكان لذلك وقع خطير في الحواضر والبوادي، فهو خرق لعرف عام ساد الجزيرة العربية مدة طويلة قبل الإسلام، والواقع أن عبد الله بن جحش كان يدرك خطورة الأمر، فقد اختار قرار القتال بعد مشاورة لأصحابه، ولما رجع إلى المدينة، وأراد تسليم الغنائم أبى الرسول ﷺ تسلمها، وقال: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام))، وانتشرت داعية قريش، أن محمد ﷺ قد استحل الشهر الحرام، وسفك وأصحابه فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، ثم نزلت آيات من كتاب الله ﷻ توضح سلامة موقف المسلمين، فأخذ الرسول ﷺ الغنائم وفادى الأسيرين من قريش.

والآيات هي: قول الله ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقد بينت هذه الآيات أن ما فعلته قريش من فتنة المسلمين عن دينهم، وإخراجهم من مكة أكبر من قتال المسلمين في الشهر الحرام، ومطلع الآية يقرر حرمة الأشهر الحرم.

وقد تعرض الشبهة للبعض، فيظن أن تعرض المسلمين لقوافل المشركين، يشبه أعمال قطاع الطرق، فرد هذه الشبهة بأن المسلمين كانوا في حالة حرب مع قريش، فإضعافها اقتصاديًا أو بشريًّا من مقتضيات حالة الحرب، هذا فضلًا عمَّا

قامت به قريش من مصادرة أموال المسلمين عند هجرتهم من مكة، ومازالت حالة الحرب حتى الوقت الحاضر تسمح بضرب الطاقات البشرية والاقتصادية للعدو.

لقد ظل النبي ﷺ أكثر من ستة أشهر في المدينة بعد الهجرة قبل أن يقوم بأي نشاط عسكري، وقد كان مشغولًا خلال تلك الفترة بتأسيس الدولة الإسلامية، وترتيب أوضاع المسلمين في موطنهم الجديد، ولم يغفل أمر تدريب المسلمين على فنون القتال، وحثهم على تعلم الرمي، وأثر عنه ﷺ أنه قال: ((ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي))، قالها ﷺ ثلاثًا، وأول عمل عسكري قام به ﷺ كانت السرية التي عقد لواءها لعمه حمزة بن عبد المطلب، وقد بعثه رسول الله ﷺ في ثلاثين رجلًا من المهاجرين، وخرج حمزة يعترض عير قريش التي جاءت من الشام تريد مكة، وفيها أبو جهل ابن هشام في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر -أي: ساحل البحر من ناحية العَيْصِ- فالتقوا حتى اصطفوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني، وكان حليفًا للفريقين جميعًا إلى هؤلاء مرة وهؤلاء مرة، حتى حجز بينهم ولم يقتتلوا، فتوجه أبو جهل وأصحابه إلى مكة، وانصرف حمزة بن عبد المطلب في أصحابه إلى المدينة، كما يذكر ابن سعد في (الطبقات الكبرى).

غزوة بدر الأولى، وسرية عبد الله بن جحش

أ. غزوة بدر الأولى:

قال ابن إسحاق: ولم يقم رسولُ اللهِ ﷺ بالمدينةِ حين قَدِمَ من العشيرة إلا لياليَ قلائل تبلغ العشرة، حتى أغار كُرْزُ بْنُ جَابِرٍ الْفِهْرِي على صرح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ واديًا يُقال له سفوان من ناحية بدر، وفاته كُرْزُ

بْنُ جَابِرٍ فلم يدركه، وهي غزوة بدر الأولى، كما روى ابن هشام في (السيرة النبوية).

حققت هذه الغزوات والسرايا أهداف كثيرة، ومن بينها:

الهدف الأول: أراد النبي ﷺ تدريب المسلمين عمليًّا على الطرق والمسالك والأماكن التي ستصبح ميادين فعلية للقتال.

الهدف الثاني: تمكن النبيﷺ من إقامة علاقات ودية، وعقد محالفات دفاعية مع بعض القبائل الصديقة لقريش، هذه التحالفات كانت لها دلالات عميقة على بعد نظره ﷺ في تخطيطه لمستقبل الدعوة الإسلامية.

الهدف الثالث: تضييق الخناق على قريش، وضرب حصار اقتصادي صارم عليها، يقطع طريق تجارتها إلى الشام.

وقد حققت هذه التحركات العسكرية هدفًا آخر نفسيًّا: فقد زرعت الخوف والرعب في قلوب قريش، ولا أدل على ذلك من الأعداد الهائلة من الرجال، الذين كانوا يقومون على حراسة القوافل في ذهابها وإيابها إلى الشام ومنه.

ب. سرية عبد الله بن جحش:

هي آخر الحملات الصغيرة التي كانت قبل موقعة بدر الكبرى، ونخص هذه السرية بكلمة خاصة مفصلة؛ لما ترتب عليها من نتائج، ولطبيعتها أيضًا، فالغزوات التي قادها النبي ﷺ بنفسه، والسرايا التي أرسل على رأسها أحد أصحابه كانت وجهتها الطريق الساحلي بين مكة والمدينة، بهدف تهديد الطريق التجاري الرئيسي الذي تمر منه تجارة قريش، أما سرية عبد الله بن جحش، فقد شذت عن هذه القاعدة، فقد أُمِرت هذه السرية باستطلاع أخبار قريش من مكان قريب جدًّا من مكة، ألا وهو "وادي نخلة" بين مكة والطائف.

وهنا يقول ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن الرئاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى -يعني عندما قفل ورجع من بدر الأولى- وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابًا، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا، فلما صار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه، فإذا فيه: ((إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصُد بها قريشًا وتعلَم لنا من أخبارهم))، فلما نظر عبد الله في الكتاب، قال: "سمعًا وطاعة"، ثم قال لأصحابه: "قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشًا، حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ"، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحدٌ، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: بحران، أضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه.

ومضى عبد الله بن جحش، وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأُدْمًا وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كَيْسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريبًا منهم فأشرف لهم عكاشة بن محصِّن، وكان قد حلق رأسه فلما رأوه أمنوا وقالوا: "عمار لا بأس عليكم منهم"، وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: "والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فلا يمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام"، فتردد القوم وهابوا الإقدام

عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأثر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم من عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش، وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ فلما رآهم، قال: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام))، فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين، فيما صنعوا، وقالت قريش: "قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال"، فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرّج الله ﷻ عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: "لا نفديكهما حتى يقدم صاحبانا -يعني: سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان- فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم". فقدم سعد وعتبة، ففداهما رسول الله ﷺ منهم، فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرًا.

وقد ترتب على هذه السرية نتائج كبيرة؛ حيث كشفت للمسلمين عن أشياء ربما كانت خافيةً عنهم، وعلى رأس ذلك موقف اليهود الذين كشفوا عن نواياهم

الخبيثة، في التحريض على الحرب بين المسلمين وبين قريش، وأرادوا أن يشعلوها حربًا على المسلمين.

ونُبَيِّنَ هنا أن سرية عبد الله بن جحش هذه كانت حملة استطلاع، ورصد أخبار عن قريش، لا حملة قتالٍ أو تصدٍ لعير قريش؛ إذ لا يعقل أن يرسل النبي ﷺ ثمانيةً من أصحابه؛ ليقاتلوا قريشًا في عقر دارها، ولو كان النبيﷺ يريدهم أن يقاتلوا لكان حجمُ الحملةِ أكبر من هذا بكثير، فالهدف إذًا هو جمع المعلومات، وعندئذٍ كلما كان العدد أقل كانت الفرصة أكبر في تحقيق الهدف، والدليل على أنها ليست حملة قتال: قول النبي ﷺ عند عودتهم: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام))، فالقتال إذًا جاء اجتهادًا من قائد الحملة ورفاقه.

خلاصة القول: أن سرية عبد الله بن جحش كانت بداية مرحلة جديدة، وهي مرحلة الحرب الصريحة المكشوفة مع قريشٍ، التي ابتدأت بغزوة بدر الكبرى، وانتهت بدخول النبي ﷺ مكة ظافرًا منتصرًا، في رمضان من العام الثامن للهجرة.

غزوة بدر

عناصر الدرس

العنصر الأول :	تحسُّس العير نواحي الشام	١٠١
العنصر الثاني :	علم أبي سفيان بخروج المسلمين، ومساحلته، واستنجاده بقريش، ونجاته	١٠٢
العنصر الثالث :	علمه ﷺ بمجيء قريش واستشارته الصحابة	١٠٤
العنصر الرابع :	الإمساك بسقاة قريش، ومشورة الحباب بن المنذر	١٠٦
العنصر الخامس :	مبيت المسلمين ليلة القتال، ومبيت المشركين ليلة القتال	١٠٨
العنصر السادس :	الاستعداد للمعركة، وصف الصفوف، وعتبة وبداية المعركة	١١٠
العنصر السابع :	شهود الملائكة للمعركة، قتلى المشركين، وأسراهم	١١٥
العنصر الثامن :	بشرى النصر في المدينة، ونبأ الفاجعة في مكة	١١٨

تحسس العير نواحي الشام

وكانت هذه الغزوة قد ندب النبي ﷺ لها المسلمين لما علم برجوع أبي سفيان من الشام بالقافلة التي أفلت بها من ملاحقة المسلمين في غزوة "العسيرة" أو العشيرة التي خرج النبي ﷺ لها في شهر جمادى الأولى، وهي صاعدة من مكة إلى الشام.

وكان أبو سفيان قد أفلت بهذه القافلة فلم يدركه النبي ﷺ فعاد إلى المدينة بعد أن وادع بني مدلج وأقام معهم فترة ختم فيها جمادى الأولى وأيامًا من جمادى الثانية، ثم عاد إلى المدينة ﷺ وكان يترقب هذه القافلة حين عودتها، وترصد لها حتى في نواحي الشام، فإنه ﷺ قبل خروجه لهذه الغزوة في الثاني عشر من شهر رمضان كان قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد نواحي الحوراء فيما يقارب الشام، ونزل على كثير بن مالك الجهني الذي أحسن مقامهما عنده، وكتم على أمرهما، وأنزلهما في خباء على شرف من الأرض مرتفع منهما، حتى جاءت قافلة أبي سفيان، فرآها الرجلان، فلما مضت القافلة بعد أن سأل أبو سفيان ومن معه كثيرًا هذا: هل رأى أحدًا من عيون محمدٍ ﷺ؟ فقال الرجل مستنكرًا: وأنّا عيون محمدٍ بالنخبار؟! أي: في مكان نزول هذه القبيلة؟ فلما مضت القافلة خرج كثير بالرجلين حتى أوردهما ذا المروة.

ورجع الرجلان إلى المدينة فوجدا النبي ﷺ قد خرج للقاء العير، ولعل النبي ﷺ جاءته الأخبار سريعة، وقد ندب # هذه القافلة للمسلمين، فقال # : ((هذه عير قريش أقبلت فمَنْ كان ظهره حاضرًا فليركب معنا لعل الله أن ينفلكموها)).

خرج النبي ﷺ مع أصحابه، وعلى نحو ميل من المدينة في مكان السقيا استعرض النبي ﷺ الرجال معه، فأجاز من يطيق أمر القتال، ورد من استصغره من المسلمين، وبعد أن استعرض النبي ﷺ الرجال معه، أمرهم أن يتعادوا حتى يعرف عددهم، فعرف بأنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، فسر النبي - ﷺ وتفاءل خيرًا؛ لأن هذه كانت عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا النهر معه، فنصرهم الله ﷻ على جالوت وجنوده.

ولما مضى النبي ﷺ في مسيره حتى وصل واديًا يسمى الصفراء قريبًا من ينبع، بعث ﷺ بسبس بن عمرٍ، وعديًّا بن أبي الزغباب نواحي بدر ليتعرفا أمر القافلة، فمضى الرجلان لمهمتهما، وجاوز النبي ﷺ الصفراء، ولم يمض بعيدًا حتى جاءه خبر خروج قريش بعد أن وصلها النذير -الذي بعثه أبو سفيان- لقريش حتى يهبوا لحماية قافلتهم.

علم أبي سفيان بخروج المسلمين، ومساحلته، واستنجاده بقريش، ونجاته

كان أبو سفيان يتحسس منذ أن خرج من الشام أمر المسلمين؛ لما بلغه من رجلٍ من جذام بأن محمدًا ﷺ خرج له متعرضًا له عند خروجه أول الأمر، وهو صاعد إلى الشام، وهو الآن يعد الأيام عدًّا لهم، وحذرهم الرجل أنهم كانوا يومئذ مخفين، أما الآن فهم مثقلون بتعب المسير والرحلة والكسب الذي حققوه، فهم الآن غرض واضح للنبي ﷺ، وهنا بدأ أبو سفيان يأخذ حذره ويترقب، ويسأل الركبان وأهل الطريق، وتأكد له ذلك قريبًا من الشام.

ويقول مخرمة بن نوفل: لما لحقنا بالشام أدركنا رجل من جذام، فأخبرنا أن محمدًا كان عرض لعيرنا في بدأتنا، وأنه تركه مقيمًا ينتظر رجعتنا، قد حالف علينا أهل الطريق ووادعهم.

قال مخرمة: فخرجنا خائفين مخاف الرصد، فبعثنا ضمضم بن عمرو حين فصلنا من الشام، وكذلك يقول عمرو بن العاص: إنه حدث بأن الخبر أتاهم لما كانوا بالزرقاء، والزرقاء بالشام ناحية معان.

ونجد هنا أن كلام ابن هشام لا يستقيم على أن استنفار قريش كان من نواحي بدر، وإنما المعقول أن يكون من نواحي الشام كما ذكر الواقدي في (المغازي).

على أية حال، فإن أبا سفيان أخذ في الحذر وبعث يستنفر قريشًا وساحَل بالقافلة، وأخذ في السير؛ ولذلك نجا بالقافلة، فلم يتأكد له ذلك إلا بعد أن وصل نواحي بدر، وغادر المكان بعد أن عرف أن عيون المسلمين وصلت هي الأخرى إلى نواحي بدر تترصده.

فإن النبي ﷺ لما بعث بسبس وعُدي بن أبي الزغباء نواحي بدر، نزلا في مكان وسمع امرأتين تتلازمان، إحداهما لها دين على الأخرى، وتقول المدينة: غدًا تأتي القافلة، فأعمل لهم وأقضيكِ دينك، قال مجيبًا لهما مجدي بن عمرو: صدقت، فهذا يدل على أن أهل الطريق يعرفون موعد القافلة ويتوكفون موعد وصولها، هنا عاد الصحابيان ليخبرا النبي ﷺ بما سمع، وبما لاحظ في هذا المكان.

وجاء من بعدهما أبو سفيان، وسأل مجدي بن عمرو: هل رأى شيئًا من رجال محمد في هذه النواحي؟ فقال مجدي: إنه لم يلاحظ شيئًا، وإنما رأى رجلين راكبين نزلا في ناحية، واستقيا ماءً ومضيا، فذهب أبو سفيان إلى مكان مناخ راحلتي الصحابيين، فأخذ بعرة من أبعار بعيريهما ففته فوجد فيه النوى، فقال: هذه علائف أهل المدينة؛ ولذلك توجس خيفة من هذا الأمر، ثم خرج مسرعًا حتى يدفع القافلة ويسير على نهجه الذي اتخذه من نواحي الشام في مساحلته نحو مكة، وتمكن أبو سفيان بهذه الخطة أن يفلت بالقافلة بخبرة وحنكة. فبعث قيسًا بن

امـرئ القـيس إلى قـريش يبـشرهم أنـه نجـا بالقافلـة والعـير، ويطلـب إلـيهم أن يرجعوا، وألا يتابعوا المسير.

لكن قريشًا كانت قد هبت لمنع أموالها من المسلمين، وقالوا: أيظن محمدٌ أنها عـيرٌ كعـيرِ بـن الحـضرمي؟ والله لـيعلمن غـير هـذا، فخرجـوا في نفـرة كاملـة، وأعـان بعضهم بعضًا على الخروج؛ ذلك أن قريشًا كادت أن تكون كلها مشتركة في هـذه القافلة، وإنها لم تنس بعد مصابها في أمر قافلة نخلة التي حازها المسلمون، وأسر أسيرين من رجالها، وكان منهما حليفٌ لبني مخزوم، فكانـت صـفعة موجهـة إلى بني مخزوم على الخصوص من بين قريش، فخرجوا، وكانوا أكثـر النـاس حماسًا لهذا الأمر، وكانت عدتهم نحو مائة وثمـانين رجلًا، وكانـت لـهـم أمـوال كـثيرة في القافلة؛ ولذلك أصرُّوا على الخروج.

ولكن بعد نجاة القافلة، لم يرغب كثيرٌ من ذوي الـرأي والمكانـة في مكـة -أمثـال: عتبة بن ربيعة، والعاص بن منبه، وعتبة وشيبة ابني ربيعة- لم يرغبوا في المسير، ولكن أبا جهل استفزهم، فتابعوا المسير ناحية بـدر، وقـال لهـم أبـو جهـل: "لم نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم ثلاثـة أيـام، فننحـر الجـزور، ونـشرب الخمـر، وتعـزف علينا القيان، فلا تزال تهابنا العرب"، لكنه ما كان ليعلم بما يريده الله.

عِلمه ﷺ بمجيء قُريش واستشارته الصحابة

لما بعث النبيُّ ﷺ بسبس وعـدي نـواحي بـدر، عـادا ليخبراه بـالأمر، فعـرف ﷺ بمسير قريش بعد أن جاوز وادي الصفراء في مكان يسمى وادي ذفران، وعلم ﷺ أن الأمر تحول في القـصد، فقـريش خرجـت، رغـم نجـاة قـافلتهم، ومـن ثـم رأى النبي ﷺ أن يُعْلِـمَ الرجـال معـه، وأن يستشيرهم؛ لأن العـدد كـان في الأنـصار، وكان الأنصار لا يرون عليهم -أو كما نصت بنود العقبة بيعة العقبـة- علـى أنهـم يمنعونه داخل المدينة، وليس خارجها.

وهنا وقف النبي ﷺ يستشير أصحابه، فقد خرجوا لأمر سهل تحول القصد فيه إلى أمر أكثر صعوبة على نفوسهم وفي ممارسته، فقال ﷺ: ((أشيروا عليّ أيها الناس))، فهنا تكلم أبو بكر فأحسن الكلام وكذلك عمر ثم قام المقداد بن عمرو؛ فقال: امض يا رسول الله لما أراد الله، لن نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكنا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، فسر النبي ﷺ.

ثم أعاد النبي ﷺ قوله: أشيروا عليّ أيها الناس وكان يقصد الأنصار، فتلقفها سعد بن معاذ رضي الله عنه وكان مع الذين خرجوا مع النبي ﷺ من الأوس، فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال: لقد آمنا بك وصدقناك، وأعطيناك على ذلك مواثيقنا، وعهودنا، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك؛ فامض لما أراك الله يا رسول الله، وإنا تركنا إخوانًا لنا لو يعلمون إنك ستلقى قتالًا ما تخلفوا عنك.

وهنا سُرَّ النبي ﷺ وبشرهم بنصر الله ﷻ، وقال لهم: بأن الله وعده إحدى الطائفتين، وقد نجت القافلة بمالها وعيرها، فوعد الله سيتم بإذنه في هذه الجماعة المشركة التي خرجت تحاد الله ورسوله.

وكانت ثقة النبي ﷺ في نصر الله ووعده عظيمة، ومضى ﷺ حتى نزل قريبًا من بدر، ثم أخذ ﷺ يتحسس المكان، ويسأل الناس، فسأل رجلًا من الأعراب هو: سفيان الضمري فسأله عن قريش؟ وعن محمد وأصحابه ما علمه بهم؟ فقال الرجل: لن أخبركم حتى تخبراني من أنتما؟ وكان أبو بكر والنبي ﷺ معًا في لقاء هذا الشيخ، فقال النبي ﷺ لن نخبرك حتى تخبرنا، فأخبرهم الرجل بأنه علم

بأن قريشًا خرجت في يوم كذا وكذا تقصد بدرًا، فإن كان الذي أخبره صدق فإنهم، الآن في مكان كذا وكذا، وبأنه أخبر بأن محمدًا وأصحابه خرجوا في يوم كذا وكذا، فلو صدقه من أخبره لكانوا اليوم في مكان كذا وكذا، للمكان الذي كان فيه الفريقان.

وهنا مضى النبي ﷺ بعد أن عرف من الرجل، فلما سألهم: من أنتما؟ حتى كما وعداه، قال النبي ﷺ في تورية: نحن من ماء –أي: يقصد من ماء دافق- ولكن الرجل ظن أنهم من ماء العراق أو غيره.

ومضى النبي ﷺ وعاد إلى أصحابه، وهناك بعث عليًّا والزبير وسعد بن أبي وقاص يتحسسون على أماكن الماء حتى يعثروا على سقاة لقريش؛ لأنهﷺ عرف بأمر قريش وأنهم قد جاءوا وعلى مقربة من المكان، والمكان الذي يمكن أن يتصيد فيه المسلمون مَنْ يدلهم على قريش منهم، هو أماكن الماء؛ لأن قريشًا معها الطعام والسلاح والرجال والمال، ولكن ليس معها الماء فهي باحثة عنه ضرورة لها.

الإمساك بسقاة قريش، ومشورة الحباب بن المنذر

ولما ذهب الصحابة إلى آبار بدر وإلى بئرٍ حدده لهم النبي ﷺ، أمسكوا بساقيين وقيل ثلاثة، فجاءوا بهم إلى النبي ﷺ، فأخذ المسلمون يتعرفون من السقاة على أمر القافلة، ويسألون أين أبو سفيان؟ وهم إلى هذا الأمر كانوا يرجون أن يكون السقاة لأبي سفيان، لكن السقاة قالوا: نحن سقاة لقريش، فأوجع الصحابة السقاة ضربًا؛ لأنهم ظنوا أنهم يتسترون على أبي سفيان، فكلما سألهم قالوا: نحن سقاة لقريش، فكانوا يشتدون في ضربهم حتى يقولوا ما كانوا يتمنونه من أنهم سقاة لأبي سفيان. وهنا قضى النبي ﷺ صلاته، وقال لهم: ((إذا صَدَقُوْكُم ضربتموهم، وإذا كَذَبُوْكُم تركتموهم، إنهم سقاة لقريش)).

ثم تلطف ﷺ بالسقاة وسألهم عن قريش: ((أين هم))؟ قالوا: هم خلف هذا الكثيب الذي ترى، وسألهم ﷺ: ((كم عددهم))؟ قالوا: هم كثير، فلم يجيبوا عن عددهم، وهنا سألهم النبي ﷺ عن أمر تعرف به على عدد قريش فلما سألهم ﷺ قال: ((كم ينحرون في اليوم))؟ قالوا: ينحرون يومًا عشرًا ويومًا تسعًا؛ فقال النبي ﷺ: ((القوم بين التسعمائة والألف))، وكان هذا التحديد مطابقًا للواقع؛ فكان المشركون تسعمائة وخمسين رجلًا، فسألهم ﷺ عمن فيهم من رجالات قريش؟ فعدد السقاة رجالًا من صناديدها قالوا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف، وأبا البختري بن هشام، وعددوا كثيرين منهم أبو جهل وغيره.

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه قائلًا: ((ها هي مكة ألقت إليكم أفلاذ كبدها)).

مشورة الحباب بن المنذر:

كان نزول المسلمين في أدنى ماء من بدر من ناحية المدينة أول ما صادف المسلمين، وهنا قال الحباب بن المنذر > يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه؟ أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟ فقال النبيﷺ: ((بل هو الرأي والحرب والمكيدة)). فقال: يا رسول الله، ليس هذا بمنزل، سر بالرجال حتى نأتي أدنى ماء من القوم فنبني حوضًا ونغور أو نعور ما دونه من القُلب -ومعنى نغور أو نعور أي: نفسد باقي القُلب بإلقاء الحجارة أو التراب فيها؛ حتى لا يجد المشركون ماءً يشربونه؛ ولذلك قال: فنشرب، ولا يشربون؛ فاستحسن النبي ﷺ هذا الأمر وانتقل المسلمون في الليل يفعلون ذلك الأمر، ينتقلون إلى أدنى ماء من قريش، وبنوا الحوض، وقاموا في هذا الليل يفعلون كل هذا.

اقترح سعد بن معاذ رضي الله عنه أن يُبنى عريشٌ للنبيﷺ يباشر منه أمر القيادة، ووجد الاقتراح قبولًا من النبيﷺ فبني عريش من جريد للنبي ﷺ أقام فيه يدعو الله، ويباشر أمر القيادة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه.

مبيت المسلمين ليلة القتال، ومبيت المشركين ليلة القتال

أ. مبيت المسلمين ليلة القتال:

كان أمر المسلمين في هذه الليلة عملًا متواصلًا حتى انتهوا منه، فألقى الله عليهم النعاس، ثم بعث الله السماء ماءً غزيرًا على معسكر قريش، فمنعم من المسير حتى تمكن المسلمون من الوصول إلى أدنى ماء منهم، ولم يتمكنوا هم.

كذلك فإن الماء كان على المسلمين كما يصفه علي بن أبي طالب > كان طشًّا - أي: فوق الرذاذ- : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١].

حتى إن عليًّا ليقول: إنهم كانوا يستظلون، ويتقون هذا الرذاذ، وهذا المطر الخفيف بالحجف، وهي التروس التي تكون من الجلد بخاصة. فالصحابة قضوا ليلتهم بعد هذا حتى أذَّنَ المؤذن لصلاة الفجر، فقاموا فصلوا مع النبي ﷺ الذي قضى ليله قائمًا يصلي لله ﷻ ويضرع إليه أن ينصرهم، وفي الصباح أعد النبي ﷺ عسكره ورجاله، وأعطاهم أوامره، وبعد أن بَشَّرَهُم بنصرِ الله ﷻ ورغبهم في الجهاد، وبَشَّرَهُم بمصرع رجال قريش، فحدد أماكن مصارعهم من الأرض، فقال: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، حتى يزيدهم إيمانًا وثقة بنصر الله ﷻ فما تعدى -كما قال الصحابة- رجل من المشركين مصرعه من الأرض الذي حدده النبي ﷺ.

وأمر ﷺ المسلمين ألَّا يقتلوا جماعة من أهل مكة من قريش، وقال: ((من لقي أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، فإنهم خرجوا مستكرهين، ومن لقي العباس عم

النبي ﷺ فلا يقتله ؛ فإنه خرج مستكرهًا ، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله))، وعدد النبي ﷺ أناسًا كثيرين.

وعندما جاءت قريش تحاد الله ورسوله ، كان النبي ﷺ مع أصحابه يصف الصفوف ، ويأمرهم ألا يبدءوا بالقتال حتى يؤذنهم بذلك ، وكان أسلوب الصف الذي هدى الله نبيه إليه هو الأسلوب الأمثل لمواجهة قريش في القتال ، إنه أسلوب الكر والفر.

ولكن النبي ﷺ ولم يكن معه من الرجال مثل ما كان مع المشركين ، ولا معه من العدة والخيل مثل ما كان معهم ؛ ولذلك فقد تحتم عليه أن يباشر أسلوب الدفاع ، وكان أمر الصف خير وسيلة لكي يقف المسلمون أمام هذا الجمع الحاشد من قريش في هذا اللقاء الحاسم.

ولذلك قال النبي ﷺ : ((لا تبدءوا بقتال فإذا أكثبوكم -أي : فإذا قربوا منكم- فانضحوهم بالنبل واستبقوا نبلكم ، ولا تسلوا السيوف حتى آذنكم بالحرب وبالقتال)).

قضى المسلمون هذه الليلة في أمنة من الله ﷻ ، ولم يكن قائمًا يصلي في هذه الليلة إلا رسول الله ﷺ ضارعًا إلى الله ﷻ أن يرزقه النصر ، وأن ينجزه ما وعد ، ولما أذن الفجر ، صلى المسلمون الفجر مع النبي ﷺ وبدأ القوم يستعدون لاستقبال صباح هذا اليوم المبارك.

أعد النبيﷺ جنده ، وأصدر أوامره بألا يبدءوا بقتال حتى يؤذنهم ، وإذا أكسب المشركون المسلمين ، فما عليهم إلا أن ينضحوهم بالنبل ، وأمرهم أن يستبقوا نبلهم حتى لا يكون هناك هدر فيه ، وهذا دليل على الالتزام والانضباط العسكري تحت قيادة النبي ﷺ.

ب. مبيت المشركين ليلة القتال:

أما المشركون فإن ليلهم كان ليل نكد على الرغم من كثرة عددهم وعدتهم، فإن الله ألقى في قلوبهم الخوف والهلع، وبخاصة لما علموا ممن أفلت من سقاتهم بأن المسلمين أخذوا بعض الرواة والسقاة منهم.

وهذه الليلة التي قضيت في فزع وهلع منهم جاءها صباح نكد عليهم؛ حيث انتقلوا في الصباح إلى بطن الوادي استعدادًا للقاء المسلمين.

الاستعداد للمعركة، وصف الصفوف، وعتبة وبداية المعركة

لما رأى النبي ﷺ المشركين دعا عليهم، واستغاث بربه وقال: ((اللهم إن هذه قريش أقبلت تحادك، وتكذب رسولك، فاللهم أحنهم الغداة)) أي: أهلكهم هذا الصباح. ثم إنه ﷺ أخذ يصف الرجال بقدح كان في يده التزامًا بأمر الله ﷻ الذي أوحاه إليه، وهداه إليه ﷺ ونزل في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

وهنا باشر النبي ﷺ صف رجاله، حتى إنه لم يسمح لسواد بن غزية -وكان بارزًا من الصف- فدفعه بقدح كان في يده -والقدح هو السهم الذي لم ينصل بدن السهم نفسه- فقال سواد للنبي ﷺ: أوجعتني يا رسول الله، فأقدني من نفسك فكشف النبي ﷺ عن بطنه الشريف فأكب سواد على بطن النبي ﷺ يقبله، فلما سأله النبي ﷺ عن هذا؟ قال: يا رسول الله، لقد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر عهدي بالدنيا أن يمس جلدي جلدك.

ثم إن قريشًا من جانبها بعثت عميرًا بن وهب الجمحي ليحزر المسلمين: أي ليقدر عددهم، فجال بفرسه حول معسكر المسلمين، ثم رجع وأخبرهم بأن

المسلمين نحو من ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو يقلون قليلًا، ثم قال لهم: أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين؟ كأنه استقل هذا العدد، ثم أبعد في الوادي، ثم رجع فقال: لا كمين، ولكني "رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة، ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل منكم فإن أصاب منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فرووا رأيكم".

فلما سمع حكيم هذا الكلام توجه إلى عتبة في محاولة أخيرة حتى يدعو إلى العودة والرجوع بالناس، فاستجاب عتبة لهذا الأمر، ومشى في الناس يدعو لذلك الأمر حتى إن النبي ﷺ قال: ((إن يكن في القوم خير، ففي صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا))، ولكن لم يأذن الله لهم بأن يرشدوا، وإنما تبعوا أمر أبي جهل الذي سعى سعيه لكي يتم هذا اللقاء الذي أراده الله ﷻ.

هنا في بداية الأمر انسل رجل من المشركين، وهو الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلًا شرسًا سيئ الخلق، وقال أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة > فضربه بسيفه فبتر ساقه، ولكن الرجل حاول أن يزحف ناحية الحوض، فأتبعه حمزة بضربات أجهزت عليه.

وهكذا كان هذا الخارج بلا هدف له قيمة في بداية المعركة مجرد استعراض، وبعدها كان حكيم قد وصل إلى أبي جهل ليعرض عليه ما اقترحه على عتبة الذي قال له: والله إني لا أخاف إلا ابن الحنظلية -يقصد أبا جهل- فإنه لا يشجر الناس غيره، فلما ذهب إليه، قال له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، حتى يرجع بالناس.

وهنا استشاط أبو جهل غضبًا وقال: انتفخ والله سَحره حين رأى محمد وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه رأى أن محمدًا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه.

وهنا بعث إلى عامر بن الحضرمي الذي قتل أخوه عمرو في نخلة، فقال له: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك، ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف، وصرخ: واعمراه!! واعمراه!! فحميت الحرب حينئذ.

أما عتبة فإنه لما بلغه قول أبي جهل: انتفخ، والله سحره. قال: سيعلم من انتفخ سحره، أنا أم هو؟ ثم اندفع هذا الرجل الذي كان يمثل العقل الراجح في القوم، فاندفع غاضبًا ودعا أخاه شيبة، وابنه الوليد، وخرج يطلب المبارزة؛ فخرج من المسلمين شباب من الأنصار، ولكن الرجال أبوا إلا أن يقاتلهم ويبارزهم رجال من بني عمومتهم من المهاجرين، وهذا ما وجد رغبة عند النبي ﷺ كما قال ابن كثير: إن النبي ﷺ كره أن يكون في أول لقاء من المسلمين قتلى أو مصابين من الأنصار، فآثر أن يكون الخارجون من بني قرابته، بل من أوثق الناس صلة به، عميه عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب، ثم ابن عمه علي بن أبي طالب، فأمرهم بالخروج للمبارزة.

بدأت الحرب بهذه المبارزة، وبارز عبيدة عتبة لأنهما كانا أسن القوم، وبارز حمزة شيبة، وعلي الوليد؛ لأن علي والوليد كانا شابين، هذا ما تكاد عليه الروايات؛ وإن كان البعض يقول: بأن شيبة قاتله عتبة، والبعض يقولون قولًا غير هذا.

ولكن على أية حال انتهى هذا اللقاء الأول من المبارزة بمقتل عتبة، وشيبة، والوليد، وجرح عبيدة بن الحارث في ساقه.

ولكن علي وحمزة كرا على من كان من نصيب عبيدة في المبارزة فقتلاه، وهنا انتهت هذه المبارزة بهذا الفأل السيئ على المشركين. فها هم أربعة رجال منهم، ومن أشرافهم كانوا يمثلون بداية سيئة لهم.

ثم حمي الوطيس وبدأ القتال، وكرت جموع المشركين على صفوف المسلمين الذين التزموا بالثبات الذي أمرهم به النبي ﷺ، وكان أسلوب الصف والدفاع هذا مفاجأة في أمر هذا القتال، وجعله الله سببًا في تحقيق النصر على المشركين.

ولما رأى النبي ﷺ ذلك اشتدت ضراعته لله ﷻ فتوجه إليه بخالص الدعاء: ((اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد)) حتى إن أبا بكر لما رأى النبي ﷺ يجتهد في الدعاء قال له: بعض مناشدتك ربك يا نبي الله، فإن الله منجز لك ما وعد، ثم خفق رسول الله ﷺ خفقة، ثم انتبه، وهو في العريش، وبشر أبا بكر بمدد الله ﷻ بالملائكة التي أرسلها الله ﷻ مددًا كريمًا من السماء- ليثبتوا المؤمنين، وليباشروا معهم أمر القتال والمعركة.

وكان أبا جهل قد استفتح بالدعاء فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة، فكان هو المستفتح، والمصاب بسوء دعائه.

ومن ناحية أخرى فإن النبي ﷺ حينما بدأ الالتحام طلب من علي أن يناوله كفًّا من الحصباء، فأخذه، ورماه في وجوه القوم، فما من رجل إلا أصابت عينه من هذه الحصباء.

وقال ﷺ: ((شاهت الوجوه)) وأمر أصحابه بالثبات في القتال، ولما باشر المشركون كرهم على المسلمين، وَثَبَتَ المسلمون مرة من بعد مرة، كان هذا الأمر

دافعًا إلى ثباتهم، وإلى تحقيق النصر، وإلى فشل هذه الكرات التي باشرها المشركون بهذا العدد وهذه العدة التي جاءوا بها، فقد كانت معهم الخيل، والكثرة من الرجال والكثرة من السلاح أمام هذه الفئة القليلة العدد، ولكنها الكثيرة بإيمانها، القوية بيقينها، الملتزمة بأمر رسولها ﷺ.

أفلح هذا الأسلوب الذي أمر به النبي ﷺ وهو -أسلوب الصف- الذي انكسرت على صلابته حدة هجوم المشركين، ولما فشلت جموعهم في أن تحقق نصرًا على هذه الفئة القليلة، هنا أمر النبي ﷺ أصحابه أن يشدوا على القوم، فتبعوهم وحقق الله لهم النصر المؤزر عليهم، وسقطت رءوس المعركة منهم أبو جهل -لعنه الله- الذي قاد الناس بغيه وضلاله إلى هذا المصير المشئوم، وقد قتله شابان من الأنصار هما: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عفراء.

وقد قال النبي ﷺ من ينظر لنا ما فعل أبو جهل، فقام عبد الله بن مسعود > مستجيبًا لأمر النبي ﷺ وذهب يبحث عنه، فوجده في رمقه الأخير، وهنا صعد على صدره فقال له: لقد ارتقيت مرتقًا صعبًا يا رويعي الغنم، وسأله: لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ولرسوله، وقال له: لقد أخزاك الله يا عدو الله. قال: وبماذا أخزاني؟ أعمد من رجل قتلتموه -أي: أعار على رجل قتلتموه؟ وهنا أجهز ابن مسعود عليه.

وبذلك اشتركا هذان الشابان من الأنصار ثم عبد الله بن مسعود > وذهب ابن مسعود ليبلغ النبي ﷺ بأمر مقتل أبي جهل فسجد النبي ﷺ سجود شكر لله ﷻ أن قتل هذا الفرعون، فرعون هذه الأمة.

ورجل آخر كان له شأن هو الآخر في مكة هو أمية بن خلف، يحكي أيضًا أمر قتله عبد الرحمن بن عوف > يقول: كانت معي أدراع غنمها من سلب القوم، فرآه أمية بن خلف، وكان معه ابنه علي، وهذا بعد نهاية المعركة -لأن جمع الأدارع يدل على أن المعركة قد انتهت- فرآه أمية بن خلف فناداه حتى يكون

أسره وأسر ولده، فطرح عبد الرحمن الأدرع التي كانت معه وأخذ بالرجلين أمية، وابنه، وذهب بهما إلى حيث يجمع الأسرى، وهنا رآهما بلال بن رباح، فقال: أمية بن خلف رأس الكفر لا نجوت إن نجا، فهب وصرخ في الأنصار، ولكن بعد أن حاول عبد الرحمن أن يمنع بلالًا أن يمس أسيريه، ولكن بلالًا صرخ في الأنصار، وقال: أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا، واستحث عليه الأنصار وشبابهم، فاجتمعوا على الرجلين فقتلوهما، وانتهوا من أمرهما.

ومن الذين قتلوا أبو البختري ابن هشام، الذي كان النبي ﷺ أمرهم ألا يقتلوه، ولكن المجزر بن زياد لقي أبا البختري، فكف يده عنه، وأراد أن يستأثره، ولكنه أبى إلا أن يقاتل، وكف المجزر عنه، ولكنه لما أبى، وكان معه زميل له، وأراد أن لا يقتل زميله، ولكن المجزر قال له: إنما نهينا عن قتلك، فأبى أبو البختري هذا الأمر، وقاتل، وقتل، فحكى ذلك المجزر للنبي ﷺ وقال: إنه ما قتله إلا بعد أن قاتله وانتهت المعركة بهذا الأمر الذي انكشف فيه المشركون على الرغم مما كان معهم من العدد والعدة.

وقد نصر الله ﷻ رسوله ﷺ ونصر الإسلام أمام هذه الجموع التي خرجت تحاد الله ورسوله، فأراد الله ﷻ في هذا اليوم أن يظهر الحق، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

شهود الملائكة للمعركة، قتلى المشركين، وأسراهم

فالنبي ﷺ لم يكن معزولًا عن المعركة، وإنما كان يجتهد في الدعاء، والضراعة لله ﷻ وكان أيضًا يباشر أمر القتال بنفسه ﷺ كما يقول علي بن أبي طالب > أن النبي ﷺ كان يباشر القتال، وكان الصحابة يحتمون به، وأنه لم يكن أحد أقرب إلى المشركين منه ﷺ.

وكان ﷺ يضرع إلى الله ﷻ فكان بسببه النصر العظيم من الله تعالى، فقد مدَّ سبحانُهُ المسلمينَ ملائكةً نزلوا في يوم بدر يباشرون القتال والأسر مع المسلمين، فهذا الأمر مما اجتمعت عليه الروايات، وجاءت به آيات القرآن العظيم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، كذلك فإن الله ﷻ قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، أي: يتبع بعضهم بعضًا، ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

إن قضية شهود الملائكة كانت أمرًا جاءت به الأخبار متواترة، وحكى هذا الأمر المسلمون، وحكاه أيضًا بعض المشركين الذين أسلموا بعد ذلك، ويقول ابن عباس > إن رجلًا من غفار -قبيلة كانت قريبة من الموقع- حكى له أنه شهد بدرًا، فقال: كنت أنا وابن عمٍّ لي على جبل قريب من ساحة المعركة، نشاهد أمرَ ما سيصير إليه الأمر، نشاهد المعركة وننتظر على من تكون الدبرة -يعني الهزيمة- فبينما نحن وقوفٌ على الجبل إذ مرت سحابةٌ فيها أصوات وفيها حمحمة الخيل، فأما ابن عمي فلم يطق سماع هذا الصوت فانكشف قناع قلبه فمات، وأما أنا فتماسكت، وهذا أمر حكاه رجل من غفار.

ويحكي أبو أسيد مالك بن ربعية -وكان قد شهد بدرًا مع المسلمين- قال: بعد أن ذهب بصره: لو كنت اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشُّعبَ الذي خرجت منه الملائكة لا أشك فيه ولا أتمارى.

وتتوالى الروايات عن الأحداث التي كانت لعمل الملائكة في هذا اليوم العظيم، ويقول الشيخ تقي الدين السبكي: سُئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فقلت: وقع ذلك لإرادة أن

يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش رعاية للأسباب، وسننها التي أجراها الله في عباده.

وبعد أن انتهت المعركة، واطمأن قلب المسلمين، وقلب النبي ﷺ وحمد الله على هذا النصر العظيم، وفرَّ المشركون بجموعهم وعادوا في طريقهم ناجين بأنفسهم، أمر ﷺ بأن يطرح قتلى المشركين في القُلب، وكان هذا من سنته وعادته ﷺ أنه كان يستر كل ميت يراه حتى ولو كان مشركًا، فهؤلاء المشركون ما تركهم النبي ﷺ هكذا، وإنما أمر بهم فطرحوا في القُليب وكان قليب من قلب بدر وضع فيه أربعة وعشرون من صناديد قريش هم: أبو جهل، وعتبة، وشيبة، وكثيرون غيرهم.

هذه سنة كريمة من سنن الإسلام الذي كرم الإنسان، وكان المسلمون شرفاء في معاركهم حتى في قتالهم مع أعدائهم، وهذه هي سمات الإسلام والمسلمين.

بعد هذه المعركة، وهذا الانتصار العظيم، أقام النبي ﷺ في بدر ثلاثة أيام حتى يستشعر نعمة الله ﷻ عليه بهذا النصر العظيم، ولما عزم ﷺ على المسير خرج إلى القُليب الذي ألقي فيه صناديد قريش وناداهم بأسمائهم: يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، وناداهم جميعًا، ونادى على أبي جهل وغيره من المشركين: ((هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا؟)).

وهنا قال عمر: يا رسول الله، أتكلم أناسًا قد جيفوا -أي: تحللوا في قبورهم؟ فقال النبي ﷺ: ((والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا ينطقون)).

ثم توجه النبي ﷺ بعد ذلك عائدًا إلى المدينة، ولكنه قدّم بشيرين أمامه هما: زيد بن ثابت، وعبد الله بن رواحه؛ حتى يبشرا أهل المدينة.

بشرى النصر في المدينة، ونبأ الفاجعة في مكة

أ. بشرى النصر في المدينة:

وجد النبأ ارتيابًا في قلوب بعض الناس، خاصة من لم يكن الإسلام قد تعمق في قلبه، وفزع المناكبون واليهود حينم سمعوا هذا الخبر، وتابع ابن رواحة نشر الخبر بالمدينة والصبية خلفه فارحين، يصيحون: قُتل أبو جهل الفاسق، حتى انتهى البلاغ إلى أهل العالية.

وقد قدم زيد بن حارثه على ناقة النبي ﷺ القصواء يبشر أهل السافلة، فلما جاء المصلى جاء على راحلته ينادي ويعدد قتلى المشركين والأسرى منهم، حتى إن كثيرين من الناس ارتابوا، وخاصة المنافقون، حتى إن بعضهم خلا بأبي لبابة بن عبد المنذر وقال: قد تفرق أصحابكم تفرق لا يجتمعون بعده أبدًا، وقد قتل علية أصحابه، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وقد جاء فالًّا -أي: هاربًا. فقال أبو لبابة: يكذب الله ﷻ قولك، وقالت اليهود: كذلك تروج شائعات الكذب ما جاء هؤلاء إلا فالًّا.

حتى قال أسامة: فجئت حتى خلوت بأبي فقلت: يا أبي، أحقًّا ما تقول؟ فقال: إي والله يا بُني ما أقول إلا الحق، عند ذلك قويت نفس أسامة. يقول: فرجعت إلى ذلك المنافق الذي أرجف بهذا القول فقلت: أنت المرجف برسول الله ﷺ وبالمسلمين، لنقدمنك إلى رسول الله ﷺ إذا قدم فليضربن عنقك، فقال: يا أبا محمد، إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه.

ثم جيء بالأسرى وعليهم شقران مولى النبي ﷺ هذا أمر الناس في المدينة حينما جاء خبر النصر العظيم لأهلها.

ب. نبأ الفاجعة في مكة:

أما أهل مكة فإن الخبر المفزع قد جاءهم، وكان أول من وصلهم به هو الحيثمان بن عبد الله الخزاعي، جاء إلى مكة فسألوه: ما وراءك؟ فأخبرهم بالفاجعة، وأخذ يعدد قتلى أشراف مكة حتى ظنوا به الجنون، حتى إن صفوان بن أمية كان قاعدًا في الحجر يستنكر ما جاء به الحيثمان، فقال مستهزئًا: سلوه عني، فقالوا له: وماذا صنع صفوان بن أمية؟ قال: هو ذاك قاعد في الحجر، ولقد رأيت أباه وأخاه عليًّا حينما قُتلا.

ثم جاء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فتلقاه عمه أبو لهب، فقال له: هلم إليَّ يا ابن أخي فعندك لعمري الخبر، فجلس إليه، والناس قيام عليه، فقال: أخبرني كيف كان أمر الناس؟ فقال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله ما ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالًا بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئًا، ولا يقوم لها شيء.

وهنا تيقن أهل مكة من فادح المصاب، فأخذوا في النواح على قتلاهم هؤلاء القتلى كانوا سادت مكة، ومنهم: أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وغيرهم كثيرون من صناديد هذا البلد الذي كان لهم شأن فيها، هذا غير من قتل من قتلى المشركين، لأنه قتل منهم سبعون، وكذلك أسر منهم سبعون.

تابع غزوة بدر وما بعدها من فداء الأسرى وغيرها من الأمور

عناصر الدرس

العنصر الأول :	في طريق العودة من المعركة	١٢٣
العنصر الثاني :	الاختلاف في أمر الفيء	١٢٦
العنصر الثالث :	وصيته ﷺ بالأسرى	١٢٧
العنصر الرابع :	رد فعل قريش وفداؤهم للأسرى	١٢٩
العنصر الخامس :	نتائج النصر في بدر	١٣٣
العنصر السادس :	موقف ابن سلول المنافق من بني قينقاع وخروجهم من المدينة	١٣٦
العنصر السابع :	الإلحاح في العداء للمسلمين في مكة، وخروجه # لغزوة السويق	١٣٨
العنصر الثامن :	تحول قريش إلى طريق العراق بالشام وملاحقتها بسرية القردة	١٤٠
العنصر التاسع :	استعانة قريش بحلفائها، وخروجه لذلك في غزوتي قرارة وذي أمر	١٤٠

في طريق العودة من المعركة

أ. وفاة أبي عبيدة بن الحارث، وقتل النضر بن الحارث:

بعد يوم النصر العظيم الذي كرم الله به الإسلام، وفرّق فيه بين الحق والباطل، توجه النبي ﷺ بعد أن أمر بما في المعسكر، فجمع وتوجه المسلمون مع رسول الله ﷺ صوب المدينة.

وعند الصفراء كانت المنية قد أدركت عبيدة بن الحارث متأثرًا بجراحه، فدفن بالصفراء.

وفيها أمر النبي ﷺ بضرب عنق رجلٍ كانت له العداوة الواضحة للإسلام ولرسول الله ﷺ وللقرآن، هو النضر بن الحارث، وقد كان أشد قريشًا مبادأة للرسول ﷺ بالتكذيب والأذى، وكان صاحب أحاديث، ونظر في كتب الفرس، والنصارى، واليهود، وكان يكذب النبي ﷺ ويعارض ما يدعو به من القرآن الذي كان يتلوه على أهل مكة ﷺ، فكان يحدث بأساطيره وأحاديثه معارضًا القرآن، وما يدعو إليه النبي ﷺ، ثم يقول: أينا أحسن حديثًا أنا أم محمد؟ وكان يقول: إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين، ونزل فيه قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١] وهو الذي قال: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وكما اشترى مغنيتين كانتا تغنيان بالأغاني التي تصرف الناس عن دين الله، وعن القرآن الكريم، ونزل فيه قول الله ﷻ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [لقمان: ٦].

وكان هذا الرجل يقول: "إنما يعين محمدًا على ما يأتي به جبر غلام الأسود بن المطب، وعداس غلام شيبة، أو عتبة"؛ ولذلك نزل في هذا الأمر قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ ﴾ [النحل: ١٠٣] ونزل فيه أيضًا قول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴾ [الفرقان: ٤].

وكان النضر سببًا في أن يرجع رجل من سادات قريش هو أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية الذي كان يحسن القول في النبي ﷺ وكان يقول لقريش: دعوا محمدًا، ولا تعرضوا له، فجاءه النضر بن الحارث، فقال له: إنه بلغني أنك تحسن القول في محمد، وكيف ذلك وهو يسب الآلهة، ويزعم أن آباءنا في النار؟ ومن هنا تحول أبو أحيحة فأظهر العداوة لرسول الله ﷺ وذمه، وقويت بذلك أنفس المشركين بموقف أبي أحيحة هذا حين رجع عن موقفه المؤيد لرسول الله ﷺ متأثرًا بكلام النضر له.

وبعد ذلك أتاه النضر شاكرًا على ذلك بإعظام هذا الرجل في قومه، وكان النضر خطيب القوم، وكان قد ذهب إلى أهل الكتاب يأخذ منهم ما يجادل به النبي ﷺ.

هذا الرجل وقع في الأسر، وقد أسره المقداد بن عمرو، فأمر النبي ﷺ بهذا الرجل - شديد العداء للإسلام، شديد الإنكار للقرآن - أن يقتل، فضربت عنقه، وكان الذي تولى ذلك علي بن أبي طالب > وهنا قال المقداد بن عمرو: أسيري يا رسول الله، فقال ﷺ: إنه كان يقول في كتاب الله وفي رسوله ما يقول،

ثم قال النبي ﷺ: ((اللهم أغن المقداد من فضلك)) وقد توسل النضر بالمصعب بن عمير؛ لأنه من بني عبد الدار مثله.

فقال: يا مصعب، أنت أقرب مَن هاهنا لي وأمسهم رحمًا بي، فكلم صاحبك في أن يجعلني كرجل من أصحابه، فقال له: إنك كنت تقول ما تقول، وتفعل كذا وكذا، فقال يا مصعب: ليس هذا الحين حين عتاب، فلو أن قريشًا أسرتك لدافعت عنك، فقال المصعب: أنت صادق، ولكني لست مثلك، إن الإسلام قطع العهود بيننا وبينكم.

ب. قتل عقبة بن أبي معيط:

ورجل آخر كذلك كان مصيره هذا المصير، هو عقبة بن أبي معيط الذي كان من أشد الناس أذًى للنبي ﷺ، ففي مكان قريب من الصفراء يسمى "عرق الظبية" قُدم هذا الرجل ليتم فيه أمر الله ﷻ الذي أراده فيه، فأمر ﷺ عاصم بن ثابت بن الأقلح بأن يضرب عنقه، وكان هذا الرجل قد جاءالنبي ﷺ وهو ساجد عند البيت فوطئ بقدمه عنق النبي ﷺ وطئًا شديدًا، حتى إن النبي ﷺ قال: لقد كادت عيناه أن تندران، وجاء مرة بسلا شاة، والنبي ﷺ ساجد فوضعه بين كتفيه، وكان جارًا للنبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يقول: ((بئس الجوار جوار عقبة، وجوار أبي لهب)).

وهذا الرجل وقع في الأسر حينما جمح به فرسه، وأسره عبد الله بن سلمة، وكان هذا مصيره الذي لاقاه بأمر الله ﷻ، وكان ﷺ قد توعده يوم بدر، وقال: ((والله لأقتلنك))، فلما قال: علام أُقتل يا معشر قريش من بين هؤلاء؟ قال النبي ﷺ: ((لعداوتك لله ولرسوله))، وكان هذا الرجل قد توعد النبي ﷺ في شعر لما هاجر إلى المدينة ﷺ فقال:

يا راكبًا ناقة القصواء هاجرنا ❖ عما قليل تراني راكب الفرس

أعل رمحي فيكم ثم أنهله ❖ والسيف يأخذ منكم كل ملتبس

هذان الرجلان اللذان قدما لهذا المصير الذي كان يستحقانه كان على هذا النحو الذي رأينا.

وكان ﷺ يحسن معاملة الأسرى، ويأمر أصحابه بذلك، وهذا من شيمة الكرم والخلق الرفيع منه ﷺ.

الاختلاف في أمر الفيء

كان أمر الفيء والنفل الذي مَنَّ اللهُ به على هؤلاء المؤمنين بعد أن مَنَّ عليهم بنصره سبحانه- من الأمور التي ثار حولها الخلاف بين المسلمين، فقد اهتمت جماعة من المسلمين بجمع ما في المعسكر من السَلب والنفل والغنائم، فقد كان معروفًا أن من قتل قتيلًا فله سلبه، ومن أسر أسيرًا فهو له، أما هذه الأشياء التي جمعها بعض المسلمين ممن شغلوا بهذا الأمر، ظن هؤلاء أن ما جمعوه إنما هو لهم، ولم يكونوا كل من في المعسكر، ولا كل من باشر المعركة، فلقد كان هناك من تابع العدو يقتل ويأسر وينفي العدو عن ميدان المعركة.

وكان هناك أيضًا جماعة تولوا أمرًا كان في غاية الأهمية، وهو حراسة النبي ﷺ في عريشه الذي كان يدير منه المعركة حذر أن يكر العدو على العريش، فيصيبون النبي ﷺ بأذى.

ودب الخلاف بين هؤلاء وأولئك، فالذين جمعوا هذا السلب وهذا النفل قالوا: هو لنا قد كان رسول الله ﷺ نفل كل امرئ ما أصاب، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويتبعونه: لولا نحن ما أصبتموه، نحن شغلنا القوم عنكم حتى أصبتم ما أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون النبي ﷺ مخافة أن يخالف إليه العدو، والله ما

أنتم بأحق به منا، لقد رأينا أن نقتل العدو إذ ولانا الله ومنحنا أكتافهم، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنا خفنا على رسول الله ﷺ كرة العدو فقمنا دونه، فما أنتم بأحق به منا، وهكذا تعددت الآراء حول هذا الأمر، ونزل قول الله ﷻ يَفصل في القضية لقوله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وقد سَأل أبو أمامة الباهلي > عبادة بن الصامت > عن الأنفال؟ فقال: نزلت فينا -معشر أصحاب بدر- حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من بين أيدينا، فجعله إلى الله ورسوله فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء -أي: على السواء- فكان في ذلك تقوى الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ وصلاح ذات البين.

ثم ارتحل ﷺ حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه، قال سلمة بن سلامة بن وقش: وما الذي تهنئون به، فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعًا كالبدن المعقرة فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: ((يا بن أخي أولئك الملأ لو أنك رأيتهم لهبتهم)).

وواصل النبي ﷺ مسيره إلى المدينة التي دخلها من ثنية الوداع، وكان دخوله ﷺ يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من رمضان قبل مجيء الأسارى بيوم.

وصيةُ النبيِّ ﷺ بالأسرى

أمر ﷺ أصحابه بأن يستوصوا بالأسارى خيرًا، ولقد فرقهم ﷺ في أصحابه ﷺ، وكان أبو عزيز بن عمير أخو المصعب بن عمير > كان في الأسارى، فقال أبو عزيز: أنه نزل في جماعة من الأنصار، وكان حين أقبلوا بي من بدر كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية النبي ﷺ إياهم بنا ما تقع في

يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحني بها، قال: فأستحي فأردها على أحدهم، فيردها عليّ ما يمسها، هنا نجد إيثار الأنصار، وإكرامهم، لهؤلاء الأسارى.

وقد اختلفت آراء كبار الصحابة في أمر الأسارى، فتكلم أبو بكر، وقال: يا رسول الله أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر، ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان استبقهم، وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله بك، فيكون لك عضدًا.

قال الرسول ﷺ متوجهًا إلى ابن الخطاب: فما تقول يابن الخطاب؟

فقال عمر: يا رسول الله قد كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، لا أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان -قريب لعمر- فأضرب عنقه، وتمكن علي من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه حتى يضرب عنقه حتى ليعلم الله تعالى أنه ليست في قلوبنا مودة للمشركين، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم، وقادتهم فأضرب أعناقهم، ما أرى أن يكون لك أسرى.

ثم كان هناك رأي للأنصار، وهو رأي عبد الله بن رواحة، قال: يا رسول الله، انظر واديًا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارًا حتى يكون في ذلك هلاكهم.

دخل رسول الله ﷺ بيتًا ليرى أي رأي يأخذ به، فخرج ﷺ إليهم فقال: "إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم في الأنبياء قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثل عيسى بن مريم إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ومثلك يا عمر في الأنبياء مثل نوح إذا قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. ومثلك في الأنبياء مثل موسى إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ " [يونس: ٨٨].

لو اتفقتما ما خالفتكما، أنتم عالة، فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق فقال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت النبي ﷺ، فقال عبد الله: فما رأيتني في يوم أخاف أن تقع عليّ الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء.

هكذا رأينا النبي ﷺ يأخذ برأي الرأفة والرحمة الذي أشار به أبو بكر > وأرضاه، ولكن في اليوم التالي جاء عمر > إلى رسول الله ﷺ فوجده مع أبي بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله ما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإلا تباكيت لبكائكما، فقال ﷺ: ((إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب، لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة)) لشجرة كانت قريبة منه ﷺ ونزل قول الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وهنا فصلت هذه الآية الحكم في أمر هؤلاء الأسرى، وهؤلاء الأسرى ظلوا في المدينة، تحدوهم هذه الرعاية التي وصى بها النبي ﷺ حتى تحركت مكة لكي تفدي أسراها.

ردُّ فعل قريش وفداؤهم للأسرى

مكث أهل مكة ينوحون على قتلاهم مُدة، ثم تواصوا فيما بينهم ألَّا يسرعوا في بذل الفداء للأسرى، وقالوا: لا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء -أي حتى لا يبالغ المسلمون في أمر الفداء-، ولكنهم لم يطيقوا صبرًا على ما اتفقوا عليه، وانسل بعضهم واحدًا تلو الآخر

يريدون فداء أسراهم، حتى إن أبا وداعة بن ضبيرة السهمي، وكان في أسارى القوم، وقال النبي ﷺ: إن له بمكة ابنًا كيسًا تاجرًا ذا مال، وقد جاء الابن في طلب فداء أبيه، وكان هو أول مَنْ انسل ليلًا وقدم المدينة، وفدى أباه بأربعة آلاف درهم، وكان هذا أول أسير فدي من أسارى قريش، ثم بعثت قريش بعد ذلك في فداء أساراهم، وكان من الأسارى سهيل بن عمرو، وهو من كبار الرجال الذين تم أسرهم، وكان النبي ﷺ حينما عاد من الطائف بعد أن ذهب إليها طلب أن يدخل مكة في جوار سهيل بن عمرو، فبعث إليه وإلى الأخنس بن شريق، وإلى المطعم بن عدي، فلم يجب إلا المطعم، وهاهنا هذا الرجل أسير مع أسارى قريش، وقد جيء به مجموعة يداه إلى عنقه، هذا الرجل الذي لم يُجِبْ طلبَ النبيِّ ﷺ حينما بعث إليه في وقت هذه الشدة التي كان يمر بها النبي ﷺ واستجاب لهذا الطلب المطعم بن عدي.

وقد قال النبي ﷺ: "لو أن المطعم بن عدي حي لوهبت له هؤلاء النتنى"، يقصد الأسارى.

وقال عمر بن الخطاب > : يا رسول الله دعني أنزع ثنية سهيل، وكان مشقوق الشفة العليا. فأراد عمر أن ينزع ثنيته حتى لا يقدر أن يتكلم؛ لأنه كان خطيبًا، حتى إذا ذهب يتكلم اندلع لسانه، ولكن النبي ﷺ قال: لا أُمثل حتى لا يُمثل بي، ولو كنت نبيًّا وعسى أن يقوم مقامًا تحمده له يا عمر، وقد حدث ذلك حقًّا وتحققت نبوءة ما قال به النبي ﷺ حينما قام ذلك الرجل بعد أن أسلم، وبعد أن بلغ أهل مكة نبأ وفاة النبي ﷺ، قام هذا الرجل ليشد من أزر المسلمين والإسلام في مكة بما قام يحفز الناس على الثبات على الدين، ويقول: إذا كان محمد قد مات فإن الله حي لا يموت، هذا الرجل جاء صديقه مكرز بن حفص ليقوم بفدائه.

كذلك كان من الأسارى العباس بن عبد المطلب وهو الذي عرض الأنصار أن يتنازلوا عن فدائه، ولكن النبي ﷺ أبى من ذلك، وأخذ من عمه الفداء، وألزمه بفداء ابني أخويه، وهنا نجد أن النبي ﷺ يقف موقفًا لا محاباة فيه مع عمه العباس > وأصر على أن يأخذ الفداء منه ومن ابني عمه وألزم عمه العباس بذلك.

وأيضًا كان من الأسارى أبو العاص بن الربيع زوج بنت النبي ﷺ زينب > ، وهي التي بعثت في فدائه مالًا كان فيه قلادة أعطتها أمها السيدة خديجة > لها، فلما رآها النبي ﷺ رق لها، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا أسيرها وتردوا لها قلادتها.

فهنا نرى الالتزام ونبذ المحاباة في التعامل حتى مع أمس الناس برسول الله ﷺ عمه وابني عمه وزوج بنته ﷺ.

لكنه ﷺ كان قد أخذ على أبي العاص بن الربيع أن يبعث زوجه زينب بنت رسول الله ﷺ فوفى أبو العاص بذلك، ورجعت زينب، كما سنرى بعد ذلك.

وعلى الرغم من تشدده ﷺ بأخذ الفداء من أمس الناس رحمًا به لأنهم أغنياء، إلا أننا نرى أنه ﷺ مَنّ على أُناس من المشركين، ومنهم أبو عزة الشاعر، فكان هذا الرجل من أسارى قريش وقد شكا للنبي ﷺ فقره وعوزه، فمَنَّ عليه النبيُّ ﷺ على ألا يظاهر عليه بشعره أحدًا، وأخلى سبيله، ولكنه عاد فألّب بشعره على النبي ﷺ وعلى المسلمين، وكان من أبواق الدعاية في الجمع لغزوة بدر، ولكنه وقع أسيرًا بعد أن خالف ما عاهد عليه النبي ﷺ، وكان جزاءه القتل في غزوة أحد.

وكان من الأسارى -كذلك- وهب بن عمير بن وهب الجمحي الذي حذر المسلمين قبل بداية المعركة، وكان هذا الرجل من شياطين العرب، وشياطين

قريش شديد الإيذاء للرسول ﷺ وأصحابه بمكة، وكان جلس يومًا بعد الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب قريش ببدر، فقال عمير: والله لولا دين عليّ ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة لركبت إلى محمد فأقتله، فإن ابني أسير عنده، فاغتنمها صفوان بن أمية، فقال له: عليّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم عليّ قال: سأفعل، ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينا عمر بن الخطاب > في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، وما أكرمهم الله به إذ نظر إلى عمير قادمًا، وقد أناخ بعيره على باب المسجد متوشحًا سيفه، فقال: هذا عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا وحذرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل على رسول الله ﷺ فأخبره به فقال له ﷺ: أدخله عليّ فأقبل به عمر آخذًا بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار ادخلوا على رسول الله، فلما رآه النبي ﷺ، وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال أرسله يا عمر، ثم قال: ادن يا عمير فدنا فقال له: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا، قال اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك، قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت: لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا فتحمّل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك، فقال عمير: أشهد أنك رسول الله قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، والله أعلم.

نتائج النصر في بدر

كانت لهؤلاء الذين لم يقبلوا أمر النصر العظيم ردود أفعال معادية للإسلام على المستوى الفردي والمستوى الجماعي، فقد اغتم مشركو المدينة الذين كانوا لا يزالون على شركهم، وكذلك اليهود والذين أظهروا عداءهم للنبي ﷺ، وخاصة يهود بني قينقاع، كما كان هناك بعض اليهود الفرادى مثل كعب بن الأشرف وأبي عفك، الذين كان لهم رد فعلٍ في هذا الأمر.

فلما سمع كعبُ بن الأشرف نَبَأَ النصر من المُبَشِّرَيْنِ الذيْن أرسلهما النبي ﷺ، قال: لئن كان حقًّا ما يقول هذان الرجلان لبطن الأرض خير من ظهرها، ثم إنه لما تيقن له ذلك خرج حتى أتى مكة ونزل على عبد المطلب بن أبي وداعة، وعمل على أن يحرض قريشًا ويَنْعَى من قُتل من رجالها.

وها هو كعبٌ يناقض ما اجتمعت عليه كلمة اليهود في الصحيفة، وعندما رجع إلى المدينة أخذ يشبب بنساء المسلمين، ويحرض على النبي ﷺ وممن نالهم بشعره بالأذى أم الفضل زوج العباس عم النبي ﷺ التي قال فيها شعرًا مقذعًا.

وكان لا بد لكي يردع أمثال هؤلاء أن يدعوا النبي ﷺ لمن يُوقف هذا الإنسان عند حده، فدعا لذلك سعد بن معاذ الذي وجه محمد بن مسلمة ليقوم لقتل هذا الرجل الذي خالف واستحق أن يجازى هذا الجزاء، فكان قتله على يد جماعة مسلمة خرجت لهذه المهمة هذا مثلٌ من الأمثلة الفردية التي ظهر منها العداء للنبي ﷺ.

وكذلك فعلت امرأة اسمها عصماء بنت مروان، وقد قالت شعرًا هي الأخرى تحرض فيه على النبي ﷺ وتقول:

أطعتم أتاوي من غيركم ❖ فلا من مراد ولا مزحة
ترجونه بعد قتل الرءوس ❖ كما يرجى مرق المنضج

والأتاوي: الغريب تقول أطعتم رجلًا غريبًا تقصد به النبي ﷺ، فانبرى لها رجل مسلم هو عمير بن عدي بن خَرشة من قومها من بني خطمة لما بلغه هذا القول، قال: اللهم إن لك علي نذرًا لئن رددت رسول الله ﷺ إلى المدينة لأقتلنها وكان النبي ﷺ لا يزال في بدر لم يرجع بعد، فلما رجع ﷺ من بدرٍ جاءها عمير بن عدي في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها فقتلها بسيفه وهي بين بنيها في فراشها، فلما أصبح وخرج يُصلي مع النبي ﷺ صلاة الصبح نظر إليه النبي ﷺ وقال له: أقتلت بنت مروان قال: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله وخشي عمير أن يكون قد افتات على النبي ﷺ بقتلها، ولكن النبي ﷺ قال قولًا علم منه عمير رضا رسول الله ﷺ بما فعل بهذه المرأة التي أعلنت بالعداء للنبي ﷺ وللإسلام وللمسلمين.

كذلك رجل يهودي وهو أبو عفك، وقد كان من الذين ظهر عداؤهم للإسلام واضحًا وكان شيخًا كبيرًا في السن، وقد قال هذا الرجل شعرًا يحرض فيه كذلك على الإسلام والمسلمين يقول:

قد عشت وما إن أرى ❖ من الناس دارًا ولا مجمع
أجم عقولًا وآتى إلى ❖ منيب سراعًا إذا ما دعا
فسلبهم أمرهم راكب ❖ حرامًا حلالًا لشتى معا

يعرّض بذلك باتباع المسلمين من أهل المدينة للنبي ﷺ، ولذلك انبرى له رجل مسلم هو سالم بن عمرو بن بني النجار وقال: علي نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه، فترقب هذا الرجل المسلم فرصةً من هذا الرجل حتى قتله في ليلة صائفة، فكان ذلك جزاء وفاقًا لذلك الرجل الذي عادى رسول الله والإسلام والمسلمين.

كان هذا هو العداء للإسلام على المستوى الفردي داخل المدينة، أما العداء الجماعي فتمثل فيما قام به بنو قينقاع، وهم أول يهود غدروا بعهدهم مع النبي ﷺ، فلما علم بهم النبي ﷺ ونزل جبريل # يقول: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]، قال النبيُّ ﷺ: "فأنا أخاف بني قينقاع" وكان هؤلاء اليهود أشجع اليهود، وكانوا أول من غدر وخالف ما عاهدوا رسول الله ﷺ عليه في أمر الموادعة التي وادعوه فيها ليعيشوا في المدينة مع المسلمين، فذهب إليهم ووعظهم وقال لهم: احذروا معشر يهود أن ينزل بكم ما نزل بقريش، فقالوا: يا محمد تظن أنَّا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت رجالًا لا بصر لهم بالحرب، فإنك إذا لقيتنا سوف تعلم أنَّا نحن الناس.

كان هذا الكلام بعد أن وعظهم النبي ﷺ وذكرهم ونزل في هذا القرآن العظيم: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٢- ١٣]، وهنا لَمَّا علم النبي ﷺ هذا الأمر من أمرهم، نبذ إليهم على سواء.

وكان من الأمر الذي دفع إلى خروج النبي ﷺ إليهم بعد نحو شهر من غزوة بدر، وكان ذلك في النصف من شوال من السنة الثانية للهجرة: أن امرأة من المسلمين جاءت إلى سوق بني قينقاع بجلب لها فباعته، ثم جلست إلى صائغ يهودي من بني قينقاع تشتري منه بعض الأشياء، فراودوها عن كشف وجهها حتى يكلموها، ولكنها أبت فعمد الصائغ إلى أن يطلب من رجل منهم أن يعقد طرف ثوبها إلى نطاقها فشكه بشوكة فجمع طرف ثوبها إلى نطاقها، فلما قامت

المرأة انكشفت سوءتها فصرخت واستجارت بمن يقف بجانبها من المسلمين، وهنا رآها شاب مسلم، فضرب اليهودي بسيفه فقتله، فاجتمعت اليهود على هذا المسلم فقتلوه.

وهنا توجه النبي ﷺ إلى بني قينقاع وحاصرهم، وعمل على أن يقاتلهم فلما اشتد الحصار عليهم وألقى الله في قلوبهم الرعب، نزلوا على حكم النبي ﷺ فأمر بهم فرُبطوا وكانوا يكتفون كتافًا، واستعمل النبي ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السالمي.

موقف ابن سلول المنافق من بني قينقاع، وخروجهم من المدينة

فمر بهم عبد الله بن أبي بن سلول وقال: حلوهم. فقال المنذر: أتحلون قومًا ربطهم رسول الله ﷺ، والله لا يحلهم رجلٌ إلا ضربت عنقه.

فتوجه عبد الله بن أبي بن سلول إلى النبي ﷺ وقال له: يا محمد أحسن في موالي، وكان بنو قينقاع من الذين حالفوا الخزرج، فإن الفئات الثلاثة من اليهود في المدينة بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة حالف بنو قينقاع الخزرج وحالف بنو النضير وبنو قريظة الأوس.

هنا أعرض النبي ﷺ عن عبد الله بن أُبي بن سلول لما طلب منه ذلك فكرر عليه، وقال يا محمد: أحسن في موالي أربعمائة دارع وثلاثمائة دارع وأربعمائة حاسر منعوني من الأحمر والأسود وإني امرؤ أخشى الدوائر، فأعرض عنه النبي ﷺ، فأدخل يده في جيب درع النبي ﷺ فقال له: ويحك أرسلني، فقال: لن أرسلك حتى تحسن في موالي، فقال: هم لك على أن يخرجوا من المدينة، فخرجوا على أن تكون أموالهم للمسلمين.

ولم يكن أمر بنو قينقاع في الزراعة وإنما كان في الصناعة، وقد تركوا آلات كثيرة وأسلحة كثيرة وراءهم، وقد آل ذلك كله للمسلمين.

وهنا رأينا كيف تشبث عبد الله بن أبي بن سلول في شفاعته لهم حتى وهبهم النبي ﷺ له لأنه كما عرفنا رجل لم يكن مؤمنًا كامل الإيمان وإنما رأس الكفر والنفاق في المدينة، وهذا ما جعله يرتاع لأمر بني قينقاع، ويتشبث حتى ينال الأمان لهم من النبي ﷺ.

وإذا كان عبد الله بن أبي بن سلول على هذا الأمر من التشبث في الدفاع عن هؤلاء الكفرة من اليهود، فإن موقفًا آخر لرجلٍ من الخزرج هو عبادة بن الصامت الذي كان له من حلف اليهود مثل ما كان لابن سلول، ولكنه رجلٌ مؤمن كامل الإيمان لم يكن موقفه منهم كموقف ابن سلول وإنما خلعهم وتبرأ إلى الله ﷻ منهم وإلى رسوله ﷺ وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، ونزلت آيات سورة المائدة تؤكد هذين الموقفين موقف الكفر والنفاق وموالاة أعداء الله وموقف الإيمان الصادق الذي ظهر من عبادة بن الصامت > ، يقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١- ٥٢]، وتمضي الآيات وتذكر أن الولاية الحقة لله ولرسوله وللمؤمنين يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٥- ٥٧].

الإلحاح في العداء للمسلمين في مكة، وخروجه ﷺ لغزوة السويق

أما الأمر في مكة، فقد آل أمرها إلى أن تكون تحت قيادة واحدة لأبي سفيان، والذي أصبح سيد مكة بلا منازع، وكان من بني عبد شمس، بعد أن كانت سيادة مكة في هاش. هنا توجهت الأنظار إليه في أن يكون قائدًا لأهل مكة في مرحلة الثأر من المسلمين؛ ولذلك عهد عهدًا، ونذر ألا يمس رأسه دهن أو ماء غسل حتى يغزو محمدًا والمسلمين، وعمل على أن يفي بهذا النذر.

فخرج في مائتي راكبٍ من قريش حتى نزل نواحي المدينة عند جبلٍ يقال له: (ثيب)، ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير، فأتى حُيي بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له فتوجه إلى سلام بن مِشكَم ففتح لهم، واستضافهم وسقى أبا سفيان خمرًا وأخبرهم من أخبار النبي ﷺ والمسلمين، ودلهم على بعض أحوالهم وفي هذا مخالفة كذلك لما عاهد عليه النبي ﷺ اليهود ولما عاهدوه عليه في الصحيفة، وهنا يمكن أن نستدل بأنه كان اتفاق سابق بين أبي سفيان وبين زعماء بني النضير؛ حيث إنه نزل عليهم مباشرة ولم ينزل على غيرهم، ولما كان بالسَحَر من هذه الليلة خرج فمرَّ بالعريض -واد بالمدينة- فوجد رجلًا من الأنصار مع أجير له في حرثه فقتلهما، وأحرق بيتين بالعريض، وحرَّق حرثًا، فرأى بذلك أنه بَرَّ بيمينه، فعاد راجعًا و فارًّا إلى مكة، وخاف هو ومن معه طلب المسلمين إياهم؛ لأن النبي ﷺ لما علم بأمرهم خرج في أثرهم؛ ولذلك جعل أبو سفيان وأصحابه يتخففون من أحمالهم فكانوا يلقون جرب السويق وهو طعام المسافر، وكانت هذه الجرب عامة زادهم، فجعل المسلمون يمرون بها فيأخذونها؛ ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق، وكانت في شهر ذي الحجة من هذه السنة الثانية للهجرة.

تحول قريش إلى طريق العراق بالشام وملاحقتها بسرية القردة

ومن نتائج غزوة بدر، تغيير أهل مكة طريق متجرهم إلى الشام بعد أن عوَّره المسلمون عليهم، فاقترح صفوان بن أمية على أبي سفيان أن يتوجهوا في تجارتهم إلى طريق بعيدة عن المسلمين وعن المدينة، فاقترحوا طريق العراق، فقالوا: إن هذا الطريق لا يعرفونه، فدلهم على مَن يقودهم فيه وهو فرات بن حيان، لكن الخبر انتقل للمسلمين، فأعد النبيُّ ﷺ سريةً جعل قيادتها في زيد بن حارثة، فخرج زيدٌ ليعترض هذه القافلة ذات المال الكثير، فاعترضهم عند القَرَدة واستولى على القافلة وعاد إلى النبي ﷺ والله أعلم.

كانت هذه السرية في جمادى الأولى في السنة الثالثة من الهجرة وأصاب المسلمون فيها مالًا كثيرًا، وقد أسر فرات بن حيان فيمن أسر فعرضوا عليه الإسلام فأسلم وحسن إسلامه.

استعانة قريش بحلفائها، وخروجه ﷺ لذلك في غزوتي قرارة وذي أَمَر

لما رأت قريشٌ أن النبيَّ ﷺ حالف قبائل طريق الشام عليها؛ فكرت في أن تتوجه إلى الشام عن طريق نجد ومنها إلى العراق ثم إلى الشام، فأرادت قريش أن تستغل قبائل هذه المناطق في تأمين متاجرهم إلى العراق، ووثق القرشيون ما بينهم وبين قبيلتي سُليم وغَطَفان وأغروهم بمحاربة النبي ﷺ الذي كان من سياسته الحكيمة في محاربة هذه القبائل، هو مبدأ المبادأة، فما إن كان يعلم بعزمهم على حربه فيسرع ﷺ ويبادر بالخروج إليهم ليريهم قوة الإسلام والمسلمين، وقد أثمرت هذه السياسة ثمرتها، فكان الله يُلقي الرعب في قلوبهم فيفروا بعيدًا، فيعود النبي ﷺ

غانمًا منتصرًا، قد كفاه الله وكفى المؤمنين شر القتال، بل إن هذه القبائل التي دخلت في معونة قريش على المسلمين، ما كان ليصيبها إلا هذه الخسائر التي كانت تحيق بهم من غزو النبي ﷺ إلى بلادهم وإلى أراضيهم.

غزوة قَرارة الكُدْر:

وكانت إلى بني سُليم وغطفان؛ وسببها أنه قد بلغ النبي ﷺ أن جمعًا اجتمع من غطفان وسليم فسار إليهم ﷺ في مائتي رجل، وأخذ عليهم الطريق حتى جاء فرأى آثار النَعم ومواردها ولم يجد في المجال أحدًا، فأرسل في أعلى الوادي نفرًا من أصحابه، واستقبلهم رسول الله ﷺ في بطن الوادي فوجد رعاءً فيهم غلام يقال له: يسار، فسألهم عن الناس فقال يسار: لا علم لي بهم، فانصرف النبي ﷺ بالناس عائدًا إلى المدينة، وقد ظفر بالنَعم وانحدر إلى المدينة، واقتسموا هذه الغنائم بصرار على ثلاثة أميال من المدينة، وكانت النَعم خمسمائة بعير خرج خمسه لرسول الله ﷺ وقسمت الأربعة أخماس على من خرج مع النبي ﷺ فكان نصيب كل رجلٍ بعيرين، وكان الراعي يسار في سهم النبي ﷺ فأعتقه؛ ذلك أنه ﷺ رآه يصلي.

غزوة غطَفان أو ذي أَمَر:

كانت في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة؛ حيث تجمع بنو ثعلبة ومحارب، وهما حيان من غَطَفان يريدون الغارة على المدينة، فخرج إليهم النبي ﷺ في أربعمائة وخمسين من أصحابه بعد أن خلف على المدينة عثمان بن عفان، فلما سمعت الأعراب بمسيره ﷺ رُعِبوا وفروا، وسار المسلمون حتى وصلوا إلى ماء لهؤلاء القوم يسمى (ذا أَمَر) فعسكروا به، وأمطرت السماء مطرًا غزيرًا فابتُلت ثياب النبي ﷺ، فذهب إلى شجرة بمنأى عن المعسكر ونشر عليها ثيابه.

ورأى المشركون أن ينالوا من النبي ﷺ غرةً، فأرسلوا رجلًا منهم شجاعًا يسمى (دُعْثور)، فذهب هذا الرجل إلى حيث النبي ﷺ فما شعر به النبي ﷺ إلا وهو قائم على رأسه، والسيف مشهورًا في يده، فقال: يا محمد مَن يمنعك مني، فقال النبي ﷺ: الله، وهنا سقط السيف من يد الرجل، فأخذه النبي ﷺ ورفعه عليه، وقال له: من يمنعك مني فقال الرجل: لا أحد فكن خير آخذ، فعفى النبي ﷺ عنه فما كان من هذا الرجل إلا أن أسلم، وتعهد لرسول الله ﷺ ألا يكثر عليه جمعًا وعاد إلى قومه فأخبرهم الخبر، ودعاهم إلى الإسلام.

هذا ما تعلق بأمر الجهاد والأحداث التي أعقبت غزوة بدر.

غزوة أحد

عناصر الدرس

العنصر الأول : أسباب غزوة أحد، وموقف الرسول ﷺ مما عزمت عليه قريش ١٤٥

العنصر الثاني : خروجه ﷺ في نحو ألف رجل، رجع ابن سلول بثلثهم ١٤٧

العنصر الثالث : الاستعداد للمعركة، واستثارة حماس الرجال بنيل سيفه # ونجاح الخطة وانكشاف المشركين وفرارهم، ومخالفة الكثير من الرماة ١٤٩

العنصر الرابع : أثر مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ وإدارة المعركة ساعة المحنة ١٥٢

العنصر الخامس : توجهه # إلى "أحد" يصعد فيه في جماعة من أصحابه ١٥٦

العنصر السادس : بسالة المؤمنين ساعة المحنة في القتال وفي الدفاع عنه # ودور نساء المؤمنين في المعركة ١٥٧

العنصر السابع : أمثلة المشركات في المسلمين، والتأكد من مسير قريش صوب مكة ١٥٩

العنصر الثامن : شهداء أحد؛ دفنهم، والثناء عليهم، عودة النبي ﷺ إلى المدينة ١٦٠

أسباب غزوة أحد، وموقف الرسول ﷺ مما عزمت عليه قريش

أ. خروج قريش برجالها ونسائها في "أُحد" للثأر من المسلمين:

نتيجة لانتصار المسلمين في بدر، أخذت قريشٌ تعد العدة للانتقام، فذهب أشرافها إلى أبي سفيان، وطلبوا منه أن يحبس أرباح هذه القافلة التي نجا بها لتكون عدةً لجيشٍ يثأر لقريش مما نزل بها من المسلمين، فوافق أبو سفيان وأخذ يعد العدة لهذا الانتقام، وعملت قريشٌ على حشد الجموع لقتال النبي ﷺ واستنفار حلفائهم من القبائل المنتشرة حول مكة، فأعدت جيشًا بلغ تعداده نحو ثلاثة آلاف رجل من حلفائها ومن أعراب كنانة وتهامة، وخرجت النساء مع الجمعِ لِيُحَمِّسْنَ الرجال على القتال، وخرجوا جميعًا للثأر متوجهين إلى المدينة تحت قيادة واحدة لأبي سفيان، والذي آلت إليه الزعامة والسيادة في قريش بعد مقتل كبارِ مكة في بدر.

واصل القرشيون سيرهم حتى نزلوا ناحية أحد، وأطلقوا خيلهم وإبلهم في زروع المسلمين من أهل المدينة.

ب. الرسول ﷺ يبلغه الخبر، ويستشير أصحابه في ذلك:

علم النبي ﷺ بأمر هذا المسير من أول الأمر حين بعث إليه عمه العباس مع رجلٍ من غفار يذكر له ما عزمت عليه قريش، وكان ﷺ في قباء، فقرأ الكتاب عليه أبي بن كعب فاستكتمه الخبر، وبعث أنسًا ومؤنسًا ابني فضالة حتى يتعرفا على قريش، وعلى ما جاءت به، فنزل الرجلان، ورجعا للنبي ﷺ يخبرانه بهذا الأمر، كما أنه ﷺ بعث الحباب بن المنذر ليقف له على أمر قريش بعد أن نزلت نواحي أحد، وعلم أهل المدينة بالخبر وأحسوا بالخطر، وبات الأوس والخزرج

يعدون عدتهم ليلة الجمعة وجمع السلاح في المسجد بباب الرسول ﷺ حتى لا يناله أحد بأذى، وحُرست المدينة حتى الصباح، كي لا يؤخذون على حين غرة، وفي صباح الجمعة، أخبر النبي ﷺ أصحابه أنه رأى رؤيا في تلك الليلة، وأنه رأى بقرًا تذبح له، وأنه أصاب سيفه ثلمًا، وأنه أدخل يده في درع حصينة فأول ذلك المدينة.

وكان من عادته ﷺ أن يشاور أصحابه؛ لأنهم الذين سيقاتل بهم عدو الله، فلما عرض عليهم الأمر وجمع وجوه المهاجرين والأنصار، وحضر معهم عبد الله بن أبي بن سلول.

كان رأيُ النبيِّ ﷺ المقام في المدينة والتحصن بها، فإن هم دخلوا عليهم قاتلوهم، وكان هذا رأي شيوخ المهاجرين والأنصار، كما أن هذا الرأي أيده عبد الله بن أبي بن سلول، فقال: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين، كان هذا هو الرأي الذي أحبه النبي ﷺ ورغب فيه، ولكن الكثيرين من الأنصار، لا سيما الشباب ممن لم يشهدوا بدرًا، قالوا: يا رسول الله، أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا وضعفنا، ومن هؤلاء حمزة بن عبد المطلب؛ حيث فقال: "والذي أنزل عليك الكتاب لنجالدنهم"، وصلى رسول الله ﷺ الجمعة، ثم وعظ الناس وذكرهم، وحثهم على الثبات والصبر، ثم دخل بيته فلبس لأمته -أي عدة الحرب. وكان ذلك على غير رغبة منه ﷺ، ولكنه ﷺ استجاب لرأي الأغلبية من المسلمين الذين أحبوا الخروج.

خروجه ﷺ في نحو ألف رجل، رجع ابن سلول بثلثهم

خرج النبي ﷺ وقد لبث لأمته واستعد للحرب والمسير، وهنا أحس أولئك الذين أشاروا بالخروج بأنهم استكرهوا رسول الله ﷺ على أمر لا يحبه، فقالوا: استكرهناك يا رسول الله فإن أردت المقام فأقم، فقال النبي ﷺ في صرامة أمرٍ: ((ما كان لنبي لبث لأمته أن ينزعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه)). هنا نلاحظ أنهﷺ أعطى للمسلمين أسوةً بأنه لا تردد في الأمر، وأذَّنَ مؤذنُ رسولِ الله ﷺ بالخروج، فخرج في ألف من أصحابه، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ثم عقد الألوية، وأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، وسار الجيش، وهنا اقترح بعض الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من اليهود؛ فأبى النبي ﷺ وقال: ((إنا لا نستعين بكافر على مشرك)).

ولما وصلوا إلى الشوط وهو مكان بين المدينة وأحد؛ انخذل عبد الله بن أبي سلول بنحو من ثلث الجيش، وقال: أطاع الصبيان وعصاني، علام نقتل أنفسنا أيها الناس؟ ورجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والشك، فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يا قومي أذكركم الله، لا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم ما حضر. فقالوا: لا نعلم قتالًا ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال.

فلما استعصوا عليه قال: أبعدكم الله أعداء الله؛ فسيغني الله عنكم نبيه ﷺ وفي هؤلاء المنخذلين، نزل قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ

نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]. ولما رجع ابن أبيّ وأصحابه؛ همت طائفتان من المسلمين من الأوس ومن الخزرج أن يرجعا كما رجع ابن سلول بمن معه، وهم بنو سلمة وبنو حارثة، ولكن الله ﷻ ثبتهما وعصمهما، وفي ذلك نزل قول الله ﷻ: ﴿ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

والأمر وصل إلى حدٍّ صعب؛ فقريش بعددها وعدتها نواحي أحد، والمسلمون بمن بقي مع النبي ﷺ نحوٌ من السبعمائة من الرجال متجهون ناحية العدو.

وبمكان يسمى "الشيخين"، عسكر النبي ﷺ واستعرض الرجال معه، فَرَدَّ من لا يطيقُ الحرب من ناشئة المسلمين أمثال: عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنعمان بن بشير... وغيرهم. وكان من هؤلاء الناشئة: رافع بن خديج، وكان راميًا فأجازه النبي ﷺ لذلك، ولما قيل له: إن سمرة بن جندب يصرع رافعًا، فقال النبي ﷺ: ((تصارعا)) فصرع سمرة رافعًا؛ فأجازه رسول الله ﷺ.

هنا نرى تسابق الشباب المسلم الصادق وحرصهم على الجهاد في سبيل الله ﷻ ونذكر عمير بن أبي وقاص -أخي سعد- الذي بكى لما رده النبي ﷺ في بدر، فأجازه ﷺ.

هذه التربية التي ربى عليها النبي ﷺ شباب المسلمين وناشئتهم رجال الإسلام الذين أعز الله بهم دينه.

الاستعداد للمعركة، واستثارة حماس الرجال بنيل سيفه # ونجاح الخطة، وانكشاف المشركين وفرارهم، ومخالفة الكثير من الرماة

أ. النبيﷺ يصفّ الصفوف، ويوصي الرماة:

توجه النبي ﷺ مع من أجاز من الرجال من أصحابه حتى وصلﷺ إلى الشُّعبِ من أُحد، فجعل ظهره وعسكره إلى الجبل، وقالﷺ: لا يقاتلن أحدٌ حتى آمره بالقتال، وفي صبيحة يوم السبت الخامس عشر من شوال من السنة الثالثة للهجرة، عبَّأ رسول الله ﷺ أصحابَه للقتال، وصَفَّ الصفوف، وبوأ كل فريق مكانه، وأمَّرَ ﷺ على الرماة عبد الله بن جبير، وكان معلمًا بثياب بيض، وكانوا خمسين رجلًا وأوصاهم بقوله: ((انضحوا بالنبل عنا، لا نؤتين من قبلكم، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم)) وفي هذا نزل قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢١]. وكان الموقع والتخطيط الذي سار عليه النبي ﷺ أنه نظَّمَ صفوفَ الرجال معه جاعلًا ظهورهم إلى جبل أحد، ووجوههم مستقبلة المدينة، ثم إن الرماة كانوا على جبل يسمى جبل "عينين"، وهو جبلٌ صغير مقابل لجبل أحد لحماية ظهور المسلمين من التفافِ خيالة المشركين عليهم، وبذلك سيطر المسلمون على المرتفعات تاركين الوادي لجيش قريش الذي كان يواجه أحدًا وظهره إلى المدينة.

ب. أبو عامر الفاسق يستعدي قريشًا على المسلمين:

أبو عامر الفاسق والذي كان يسمى أبا عامر الراهب، كان هذا الرجل من الأوس ذهب إلى مكة، واستعدى قريشًا على النبي ﷺ بعد أن خرج من المدينة مغاضبًا

ومعاديًا لله ولرسوله، وأخذ يؤلب قريشًا على المسلمين، ووعدهم بخروج قومه من الأوس من صفوف المسلمين حينما يدعوهم إلى ذلك، وفي بداية المعركة نادى هذا الرجل على قومه، وقال: يا معشر، أنا أبو عامر. قالوا: فلا أنعم الله بك عينًا يا فاسق، فلما سمع ردهم عليه، قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتالًا شديدًا ورماهم بالحجارة.

ج. النبي ﷺ يبعث في المسلمين روح المنافسة:

أخذ النبي ﷺ يحمس رجاله ويحثهم على الثبات، فرفع ﷺ سيفه حتى يبعث فيهم روح المنافسة، وقال: ((من يأخذ هذا السيف)) فتبادر القوم لهذا التكريم، لكنه ﷺ قال: ((من يأخذ هذا السيف بحقه)) فأحجم الكثيرون، ثم تقدم أبو دجانة < وهو سماك بن خرشة، فقال: يا رسول الله، وما حقه؟ قال: ((أن تضرب به العدو حتى ينحني)) قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل، فأخرج عصابته تلك فاعتصب بها، ثم جعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ: ((إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن)).

د. قريش تَصِفّ الصفوف، ونساؤهم يحمسن الرجال:

عبَّأت قريشٌ جيشها وتصافوا للقتال، فكان على الميمنة منهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وكان على المشاة صفوان بن أمية، وكان حامل لوائهم طلحة بن عثمان من بني عبد الدار. وقال أبو سفيان محمسًا أصحاب اللواء حتى يستثير حميتهم: يا بني عبد الدار، قد وليتم لواءنا يوم بدر

فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل رايتهم إذا زالت زالوا فإما أن تكفونا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه، فنكفيكموه، فَهَمُّوا به وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا غدًا، إذا التقينا سترى كيف نصنع، وهذا ما أراده أبو سفيان.

كان للنساء دورٌ واضح في تحميس الرجال، حتى إنهن كن يضربن بالدفوف، ويتجولن بين الصفوف، ويحرضن على القتال، ويقلن:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق ❖ أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وامق: أي غير كاره.

ودب الحماسُ في صفوف المشركين، ثم التحم الجيشان وتعانقت السيوف، وحملت فرسان المشركين على المسلمين مرات متتالية.

هـ. انكشاف المشركين وفرارهم، ومخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ:

وكان لخطة النبي ﷺ أثر واضح في انكسار حدةُ هجمات فرسان المشركين، فكان للرماة دور واضح في ردهم على أعقباهم مرة من بعد مرة؛ ذلك لأن قريش كانت تعتمد على الفرسان اعتمادًا كبيرًا، ولكن الفرسان لم يتمكنوا من أن يفعلوا شيئًا، وبخاصة إذا كان فيهم مثل: خالد بن الوليد، كان هذا مما يدل على أثر الخطة الحكيمة التي وضعها النبي ﷺ لمواجهة هذا الموقف الشديد، ولم تلبث الحال حتى تابع المسلمون المشركين يردونهم على أعقابهم يأخذونهم بالقتل والدفع أمامهم حتى انكشف الرجال، وولولت النساء.

ولكن عندما أبصر الرماةُ المسلمين وهم يكتسحون مواقع المشركين، حاول بعضُ الرماة النزول مخالفين بذلك أمر النبيﷺ الذي أمرهم ألا يغادروا مكانهم، فلما حاول أميرهم عبد الله بن جبير أن يذكرهم بأمر رسول الله ﷺ بالثبات في الموقع،

ما سمعوا له وقالوا: لقد انتهت المعركة، ها أنت ترى رجال المسلمين يدفعون المشركين أمامهم، فنزل الكثيرون منهم وبقي عبد الله بن جبير في نحو عشرة منهم.

أثر مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ وإدارة المعركة ساعة المحنة

أ. نزول البلاء والمحنة بالمسلمين، وإشاعة مقتل النبي ﷺ:

تغير الحال بعد نزول الرماة من أماكنهم، فبعد أن كان المسلمون في جانب القوة، فإذا بالدائرة تنقلب عليهم نتيجة هذه المخالفة، وهنا تنادى المشركون لينتهزوا هذه الفرصة السانحة حتى يثأروا من المسلمين، وتجمعت فلولُ قريشٍ لترجع لتكتسح هذا الموقف وهذا الموقع للمسلمين الذين عَرِيَ ظهرهم من الحماية بالقضاء على الحماة الذين نزلوا لطلب الغنيمة، ومن بقي منهم فوق الجبل، وهكذا وقع الاضطراب والخلل في صفوف المسلمين، وسار كل واحد منهم يلقي بما في يده من مغنم، ويحاول أن يعود إلى سيفه ليقاتل به، ولكن في غير نظام للمعركة؛ وهكذا اختلط الحابل بالنابل، ووقع الخلط في صفوف المسلمين، حتى إن بعضهم قتل بعض المسلمين، كما قُتِلَ اليمانُ أبو حذيفة بن اليمان، وفي هذه الحال التي اختلط فيها الأمر على المسلمين شاعت شائعة أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ؛ ذلك أن رجلًا من المشركين اسمه عمرو بن قمئة قتل المصعب بن عمير > لما تصدى له فقال: قتلت محمدًا، وأعلن ذلك فصار الخلل أكثر في صفوف المسلمين.

كان لإعلان مقتل النبي ﷺ أثره البالغ في نفوس المسلمين، فمنهم من ولى هاربًا، ومنهم من انطلق صاعدًا في الجبل ملقيًا بسلاحه من هول الفاجعة، ثم لم

يلبثوا أن فاءوا إلى الرسول ﷺ بعد أن أفاقوا من أثر هذه الصدمة الشديدة، وفي هؤلاء نزل قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

ب. بطولات فذة للمسلمين رجالًا ونساءً:

وفي غضون هذه المعركة ظهرت بطولات فذة للمسلمين، فهذا أَبو دجانةَ الذي أخذ السيف من رسولِ الله ﷺ، فكان لا يلقى أحدًا من المشركين إلا قتله، وقد رأى إنسانًا يُخمش الناس خمشًا شديدًا، ويقول: فتصديت له فلما حملت عليه بالسيف وَلولَ فإذا هو امرأة، وهي هند بنت عتبة، قال: فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة. كذلك فقد قاتل عليّ، والزبير، وطلحة بن عبيد الله، وأبو طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم.

ج. استشهاد حمزة أسد الله وأسد رسوله:

كان حمزة # من أبطال أحد، كَمنَ له رجلٌ حبشيٌّ خرج يطمع في عتقه بعد أن كان عبدًا لجبير بن مطعم الذي قُتِلَ عمه طعيمة بن عدي في بدر، فقال لوحشي: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فأنت حر، هنا خرج هذا العبد طامعًا في عتقه بقتل هذا الرجل العظيم حمزة بن عبد المطلب، يقول: خرجت مع الناس وكنت رجلًا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته في الناس كأنه الجمل الأورق، يهد الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ أريده، وأستتر منه بشجرة، أو بحجر ليدنو مني فلما دنا هززت حربتي حتى إذا رضيت منها

دفعتها عليه فوقعت في ثنته، أي: تحت سرته > حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي فغلب وتركته وإياها حتى مات، ثم ذهبت إليه فأخذت حربتي ورجعت، ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق.

د. أنس بن النضر من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه:

أنس بن النضر -عم أنس بن مالك-، كان ممن كانت لهم بسالة وإقدام وثبات على الحق، فقد قدم على جماعة من المسلمين ممن أذهلتهم هذه شائعة قتل النبي # فألقوا بسلاحهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ، فقال: يا قومي إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فَقَاتِلُوا على ما قَاتَلَ عليه، وموتوا على ما مات عليه. ثم لقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد، ثم ألقى بنفسه في أتون المعركة، وما زال يقاتل حتى استشهد > ، فوجد به بضع وثمانون جرحًا ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فلم تعرفه إلا أخته، وفي هذا وأمثاله نزل قول الله ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

هـ. إحاطة أمر نجاته ﷺ بالسرية، وأثر ذلك:

لم تطل محنة المسلمين بسماعهم لنبأ وفاة النبي ﷺ- فلم يلبثوا حتى رأى النبيَّ ﷺ رجلٌ من المسلمين وبشر بحياته ﷺ فكان أول من عرف أن رسول الله ﷺ حيٌّ هو كعب بن مالك الذي رأى عيني رسول الله ﷺ تزهران من تحت المِغْفَر، فنادى يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه الرسول ﷺ أن

أنصت، وكانت تلك حكمة بالغة من الرسول ﷺ حتى لا يحاول المشركون الكر على المسلمين؛ لأنهم طمعوا في وفاة النبي ﷺ والله أعلم.

وفي هذا حكمة بالغة تعلم المسلمين أهمية الأخذ بالأسباب على أية حال، فلقد تدافع المسلمون ممن عرف بحياة النبي ﷺ مقبلين، وقد قويت عزائمهم بعد الخور الذي نالها، وتجمعوا بعد تفرق، ثم إن النبي ﷺ توجه نحو شعاب أُحد حتى ينأى بعيدًا عن المشركين، وقد لحق به المسلمون حتى صعد في أحد هذه الشعاب، ثم تمكن المسلمون من صد المشركين عنه.

و. عدم نزول الملائكة للقتال، ونزول النعاس أمنة للمسلمين:

ثبت أن الله ﷻ بعث جبريل وميكائيل من الملائكة؛ ليقاتلا دفاعًا عنه ﷺ تحقيقًا لوعده ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: من الآية٦٧] على أن الملائكة لم تقاتل في أحد؛ لأن قتال الملائكة في هذه الغزوة كما وعد الله ﷻ كان مشروطًا على أمورٍ منها هذه الشروط التي جاءت في قوله ﷻ: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] ولكن لم يحدث الصبر في هذا الموقف، ولقد أصاب المسلمين غمٌ بما أصاب النبي ﷺ ولما أصابهم؛ ولذلك كان من رحمة الله ﷻ أن أنزل عليهم النعاس، أمنةً منه على المسلمين في مواقف القتال، ونزلت الآية تقول: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. هذه الطائفة التي أهمتها أنفسها دون أن تفكر في مصاب المسلمين

ومصير الإسلام هم المنافقون -والعياذ بالله- وهنا كانت هذه الأمنة من النعاس دافعًا لاسترداد القوة، والاستعداد لما بعد ذلك من المراحل التي كانت تحتاجها ظروف الموقف.

توجهه ﷺ إلى "أحد" يصعد فيه في جماعة من أصحابه

أراد النبي ﷺ أن يصعد أُحدًا ولم يستطع لكثرة ما ناله من نزف من دمه الزكي ﷺ، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، ثم نهض به حتى استوى عليها، فقال النبيُّ ﷺ حينئذ أوجب طلحة، ثم بصر النبي ﷺ بجماعة من المشركين على ظهر الجبل، فقال: "لا ينبغي لهم أن يعلونا" وأرسل إليهم جماعة فيهم عمر بن الخطاب > فقاتلوهم حتى أهبطوهم من الجبل، وهذا يدل على أن المسلمين على الرغم مما أصابهم من هزيمة لم تكن في الحسبان، فإنهم كانوا لا يزالون في قوة وإصرار على أن يدافعوا عن عقيدتهم ببسالة ورجولة.

وقد نزل بالنبي ﷺ جراحات، وإن بعض المشركين كانوا قد تعاقدوا وتعاهدوا فيما بينهم على أن يقتلوا النبي ﷺ منهم: عبد الله بن شهاب الزهري، وعتبة بن أبي وقاص أخو سعد، وابن قمئة وأُبيٌّ بن خلف، وعبد الله بن حميد بن زهير، ونال الرسول ﷺ من كل واحدٍ منهم أذًى، فقد رماه عتبة بن أبي وقاص بأحجار كسرت رباعيته السفلى اليمنى ﷺ كما أن شهاب أصابه في جبهته، وابن قمئة جرح وجنتي النبي ﷺ حتى غيبت حلقتا المغفر فيهما، وعلاه بالسيف فلم يؤتِ شيئًا، وسقط النبي ﷺ على ركبته فجحشت وأصابها جراح، أما أبي بن خلف فإنه أقبل بحربته يريد قتل النبي ﷺ ويقول: لأقتلنك بها يا محمد، فقال رسول الله ﷺ: "بل أنا قاتلك إن شاء الله"، فأخذ النبي ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، وطعن بها أبيًّا طعنة في عنقه فمات.

بسالة المؤمنين ساعة المحنة في القتال، وفي الدفاع عنه # ودور نساء المؤمنين في المعركة

أ. بسالة المؤمنين ساعة المحنة:

روى البيهقي: أن المشركين لما رهقوا رسول الله ﷺ وهو صاعد في الجبل كان معه جماعة من الأنصار، ومعه أبو طلحة، فقال رسول الله ﷺ: ((ألا رجلٌ لهؤلاء؟))، فقال طلحة: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: ((كما أنت يا طلحة))، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فأذن له النبي ﷺ فقاتلهم حتى قتل فأذن له النبي ﷺ فلحق النبي المشركون، وما زال يقول # : ((ألا رجل لهؤلاء)) وطلحة يعرض نفسه، فيقول: أنا. فيدخره النبي ﷺ ويتقدم أحد الأنصار فيقاتلهم حتى يقتل، حتى قتلوا جميعًا، ثم قتلهم طلحة قتالًا مثل قتال جميع من كانوا قبله وأصيبت أنامله، فقال: "حث" وهي كلمة تقال عند الألم، فقال رسول الله ﷺ:))لو قلت: بسم الله ؛ لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء)) ومنهم كذلك: سعد بن أبي وقاص < الذي نثر له رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد، وقال له: ((ارم فداك أبي وأمي)).

وقد ثبت في (صحيح البخاري) أن رسول الله ﷺ لم يجمع أبويه لأحد في التفدية إلا له < .

كذلك فإن أبا طلحة الأنصاري كان من أولئك الذين ثبتوا مع النبي ﷺ وكان رجلًا راميًا شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمر معه جعبته، فيقول النبي ﷺ انثرها لأبي طلحة، ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله: لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك، وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ويقول: إني جلدٌ يا رسول الله فوجهني في حوائجك، ومُرْني بِمَا شئتَ.

كان من هؤلاء النفر: أبو دجانة الذي ترّس بنفسه على رسول الله ﷺ فحنى ظهره عليه والنبل يقع فيه حتى كثرت به الجراح، كذلك كان عليٌّ > ممن ثبت مع الرسول ﷺ ودافع ونافح عنه.

ب. بلاء عظيم لنسيبة بنت كعب وغيرها من المسلمات:

كان لنساء المسلمين دورٌ هام في هذه المحنة، فها هي المؤمنة الصادقة نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية كغيرها من نساء المؤمنين كان لهن دور في إسقاء الجرحى ومداواتهم والقيام بما ينفع، ولكن لما تحوَّلَ الأمرُ إلى ما صار إليه؛ نجد هذه المؤمنة نسيبة بنت كعب تحمل سلاحها، وتهرع إلى رسول الله ﷺ تدافع عنه حتى إنه ﷺ ذكر دورها، فقال: ((ما التفت يوم أحدٍ يمينًا ولا شمالًا إلا وأراها تقاتل دوني))، ثم إنها انحازت إلى رسول الله ﷺ في وقت أقبل فيه ابن قمئة يريد قتل النبي ﷺ فتصدت له بعد أن اعترض مصعب لهذا الكافر فأصيب وقتل، وهذه المرأة أيضًا قامت لتدافع عن النبي ﷺ فأصابها هذا الكافر بضربة على عاتقها تركت فيها جرحًا غائرًا ظل معها بقية حياتها، وكانت > قد غشي عليها من كثرة ما نزفت من جراحاتها، فلما أفاقت قالت: أين رسول الله ﷺ؟ وما صنع المشركون معه؟ فقالوا لها: هو بخير إن شاء الله.

هذه المرأة المؤمنة الصادقة التي كان لها دور في بيعة العقبة، وفي بيعة الرضوان والثبات في أحد ليس غريبًا عليها أن تكون بهذا الموقف المشرف لنساء المسلمين وقدوة حسنة لهن عبر الأيام والدهور، هذا الدور المشرف الكريم لنساء المسلمين في القتال والدفاع والدور العظيم في مواساة الجرحى كنّ يقمن بهذا كله في احتشام والتزام يليق بالمرأة المسلمة.

مثلة المشركات في المسلمين، والتأكد من مسير قريش صوب مكة

أ. المشركات يُمثِّلن بقتلى المسلمين:

أمَّا نساءُ المشركين فقد مَثلن بهؤلاء الرجال العظام، فيجدعن الأنوف، ويقطعن الآذان، ويبقرن البطون في بشاعةٍ لا يمكن أن تتصور من نسوة، واتخذن من هذه الأنوف التي سجدت لله ﷻ وتلك الآذان صنعن منها أقراطًا، وعقائد وخلاخيل، ومعاصم لهن.

فلما رأى النبي ﷺ ما صنع المشركون بالقتلى المسلمين، ويلتمس عمه حمزة فوجده على مثل تلك الحال التي مُثِّلَ به فيها؛ قال: ((لن أصاب بمثلك أبدًا، وما وقفت موقفًا قط أغيظ عليّ من هذا))، ثم قال ﷺ: ((لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن، لأمثلن بثلاثين رجلًا منهم مكانك))، ولما رأى المسلمون هذه المثلة في قتلاهم، وحُزْنَ النبي ﷺ البالغ على عمه حمزة، قالوا: لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر؛ لنمثلن بهم مثلةً لم يمثلها أحدٌ من العرب، ولكن نزل قوله ﷻ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]. فهذه المثلة التي قامت بها المشركات في المسلمين لم ينج منها إلا حنظلة غسيل الملائكة > لأن أباه كان في صفوف المشركين، وطلب ألا يمثل بابنه فنجا حنظلة > من المثلة لدور أبيه مع المشركين.

ب. أبو سفيان يتساءل، ويتوعد المسلمين باللقاء في العام القادم:

وقف أبو سفيان ينادي ويقول: أفي القوم محمد؟ فقال النبي ﷺ: ((لا تجيبوه))، فنادى أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ والنبي ﷺ

يقول: ((لا تجيبوه))، فقال أبو سفيان: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياءً لأجابوا، فلم يَملك عمرُ نفسَه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذي عددت لأحياء، وقد بقي لك ما يسوءك. فقال أبو سفيان: أعل هبل، أي: أعل دينك، فقال ﷺ: ((ألا تجيبوه؟))، فقالوا: ماذا نقول يا رسول الله؟ فقال: ((قولوا: الله أعلى وأجل))، فأجابوه بهذا، ثم قال: الحرب سجال يوم بيوم بدر، فقال عمرُ مجيبًا له بأمر النبي ﷺ: ((لا سواء؛ قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار))، فقال أبو سفيان: إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسوءني، ثم قال: موعدكم بدر العام المقبل، فقال ﷺ: ((قولوا نعم، هو بيننا وبينكم موعد)).

هنا أراد النبي ﷺ أن يتعرف على وجهة المشركين، أهم يقصدون مكة أم يريدون أمرًا آخر، فبعث عليًّا رضي الله عنه وأمره أن يخرج في آثارهم حتى يتعرف ما يصنعون وما يريدون، وقال # : ((إن ركبوا الإبل، وجنبوا الخيل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فإنهم يريدون المدينة)) وأقسم لو أنهم قصدوا المدينة ليدخلنها عليهم وليناجزنهم فيها، فعاد عليٌّ ليخبر النبي ﷺ أن المشركين ركبوا الإبل وجنبوا الخيل، وأنهم قاصدون لمكة.

شهداء أحد، دفنهم، والثناء عليهم، عودة النبي # إلى المدينة

أ. حمد الله عز وجل على ما كان، ودفن شهداء المسلمين:

بعد هذا المصاب الذي أَلَمَّ بالمسلمين، ما كان للنبي ﷺ إلا أن يتوجه شاكرًا لله عز وجل مثنيًا عليه بما هو أهله فقال لأصحابه: ((اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا

مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ، وَلَا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا، وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلْ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلْ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ)). رواه الإمام أحمد.

ثم صلى النبيﷺ الظهر قاعدًا لكثرة ما نزف من دمه، وكان من نتيجة هذه المعركة بعد أن تحولت الحال: استشهاد سبعين من خيار المسلمين كان منهم: حمزة والمصعب بن عمير وغيرهم ممن كان لهم دور عظيم في نشر الإسلام في المدينة.

وقد قام النبي ﷺ بعد هذا بدفن الشهداء، ووقف مشرفًا عليهم يوم أحد، وقال: ((أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا ويبعثه يوم القيامة يدمي جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح مسك، وانظروا أكثر هؤلاء جمعًا للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر، فكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر الواحد)) هنا موقفٌ يدل على ثبات الإيمان عند عمةِ النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب التي أقبلت لتعرف أمر أخيها حمزة ﷺ وهنا أمر النبي ﷺ ابنها الزبير بن العوام أن يردها، ولكنها أصرت أن ترى أخاها، وكان أمر النبي ﷺ رفقًا بها حتى لا ترى ما صنع بأخيها، ولكنها وقفت على

أخيها مظهرة الثبات والرضا بأمر الله، فاسترجعت، وحمدت الله ﷻ على هذا المصاب.

أمر النبي ﷺ أن يدفن القتلى في مكان المعركة حتى لا يغادروها، فقد جاءوا إلى هذا المكان استجابة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، فأمر النبي ﷺ أن يبقوا في هذا المكان، بل إنه أمر من ذهب إلى المدينة بمن قتل من ذويهم أن يرجع بهم حتى يدفنوا في مكان الشرف الذي جعله الله لهم في صعيد أحد.

ب. عودة النبي ﷺ إلى المدينة، والسؤال عن سلامته:

بعد هذا كله توجه النبي ﷺ عائدًا إلى المدينة، وقد رضي بقضاء الله ﷻ، وهنا نجد أن أهل المدينة لما سمعوا بهذا الأمر نالهم الأسى والحزن على من فقدوا من أحبائهم وبكوا بكاءً مباحًا عليهم لا نواح فيه، ونرى حمنة بنت جحش التي قتل أبوها عبد الله، وخالها حمزة بن عبد المطلب، وزوجها المصعب بن عمير، فلما نعي لها أخوها استرجعت واستغفرت له، ثم لما نعي لها خالها حمزة كذلك استرجعت واستغفرت له، ثم لما نعي لها زوجها المصعب بن عمير > صاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: ((إن زوج المرأة منها لبمكان)) لما رأى من تثبتها عند سماعها بنبأ مقتل أخيها وخالها وصياحها على زوجها.

هنا نرى بأن البكاء كان شائعًا في بيوت الأنصار على قتلاهم، ولكن النبي ﷺ قال لما سمع بكاء الأنصار على ذويهم: ((ولكن حمزة لا بواكي له)) فلما رجع سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير إلى دار بني الأشهل أمر نساءهم أن يبكين على عم النبي ﷺ وبلغ ذلك النبي ﷺ بهذه المواساة الرقيقة، فخرج وهو على باب المسجد وقد رآهن يبكين على حمزة قال لهن: ((ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن

بأنفسكن)) ونهى يومئذ ﷺ عن النواح، أمرٌ من الثبات والرضا بأمر الله وقدره حتى وإن أصاب الإنسان ومسه في ذويه من القتل.

ونجد مثلًا آخر عظيمًا وهو: المرأة الدينارية التي مر بها المسلمون عائدين، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ في هذه الموقعة فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ تسأل عن رسول الله أولًا سؤالًا يدل على مدى الحب في قلوب المسلمين لرسول الله ﷺ فقال المسلمون لها: خيرًا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه حتى إذا رأت، قالت: كل مصيبة بعدك جللٌ يا رسول الله.

أصبح المسلمون في بيوتهم عائدين إليها، فلما انتهى النبي ﷺ إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: ((اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقني اليوم)) وكذلك ناولها علي سيفه قائلًا: ((وهذا أيضًا اغسلي عنه فوالله لقد صدقني اليوم)) فقال ﷺ: ((لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيث، وأبو دجانة)) هنا رضًا بقضاء الله ﷻ كان هذا العود الحميد للنبي ﷺ والمسلمين - والله أعلم.

إن الإنسان ليعجب مما قام به النبي ﷺ في أول المعركة حينما خطط لها التخطيط السليم، وحينما رضي بقضاء الله فلم يُعنِّف أحدًا، ورضي بما نزل بالمسلمين، وها نحن قد رأينا ثناءه على الله، وكأنه ثناء على كسب، وعلى نصر -وهو نصر والحمد لله- نصرٌ للمسلمين على أنفسهم، هذا اليوم العظيم يوم أحد كانت هذه المشاهد العظيمة النادرة، قد عمت في هذا اليوم المبارك.

غزوة حمراء الأسد وغيرها من السرايا، وغزوة بني النضير

عناصر الدرس

العنصر الأول : غزوة حمراء الأسد ١٦٧

العنصر الثاني : سرية أبي سلمة ١٦٩

العنصر الثالث : سرية عرنة ١٧٠

العنصر الرابع : يوم الرجيع ١٧١

العنصر الخامس : حادثة بئر معونة ١٧٣

العنصر السادس : غزوة بني النضير، وسببها، حصار بني النضير، وإباؤهم الخروج ١٧٦

العنصر السابع : خروج بني النضير، ومسيرهم إلى خيبر ١٨٠

العنصر الثامن : نكوص أبي سفيان عن موعده ١٨٢

غـــزوة حمــــراء الأســـد

أ. خروج المسلمين بجراحاتهم في اليوم التالي لأحد؛ إظهارًا لقوتهم:

خرج رسول الله ﷺ متعقبًا قريشًا في اليوم التالي لغزوة أُحد، وذلك يوم الأحد الموافق السادس عشر من شوال، فوصل إلى "حمراء الأسد" وهي على نحوٍ من ثمانية أميال من المدينة؛ وذلك كي يُشعر أهل المدينة ممن كان مشركًا أخفى شركه في قلبه، واليهود كذلك؛ حتى يعلمهم بأن المسلمين ما زالوا في ثبات وقوة.

وأمر ألا يخرج إلا من كان معهم بالأمس؛ حتى لا يعطي فرصة لمن عاد راجعًا مع عبد الله بن أبي بن سلول؛ حتى لا يكون الشرف إلا لمن ثبت بالأمس، فخرج النبي ﷺ بأولئك الأبطال من أصحابه على جراحاتهم ماضين يتعقبون العدو.

ولم يأذن النبي ﷺ لأحدٍ ممن تقاعس بالأمس، اللهم أنه حينما جاءه عبد الله بن جابر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله، والله ما منعني أن أخرج بالأمس إلا أن أبي أمرني أن أبقى مع أخواتي؛ لأنه قال: لا نخرج معًا، ونترك هؤلاء النسوة فآثرته بالخروج معك، وقد أكرمه الله بالشهادة، وهذا الرجل الوحيد الذي أذن له النبي ﷺ بالخروج في هذه الغزوة - غزوة حمراء الأسد.

ب. استعمال عبد الله بن أم مكتوم على المدينة، وملاقاة معبد بن أبي معبد:

استعمل النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم كما استعمله عند خروجه لأحد، وقد لقي النبي ﷺ معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكانت خزاعة كلها مسلمهم ومشركهم عيبة نصحٍ رسول ﷺ -أي معه- ، كانوا يخبرونه بأمر قريش

ويفرحون لفرحه، ويحزنون لما ينزل به من أسى أو مصاب، فقال معبد للنبي ﷺ، وكان الرجل لا يزال مشركًا: "يا محمد، أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافك فيهم"، ثم لما خرج النبي ﷺ تابع معبد المسير حتى لَقِيَ أَبا سفيان بن حَرْبٍ ومَنْ معه بِالرّوْحَاءِ وقد أجمعوا الرّجْعة إِلَى رسولِ اللهﷺ، فوجدهم وقد أجمعوا أو لعلهم راجعوا أنفسهم أن يرجعوا، وقالوا: أَصَبْنَا حَدَّ أَصْحَابِهِ وَأَشْرَافَهُمْ وَقَادَتَهُمْ ثُمّ نَرْجِعُ قَبْلَ أَنْ نَسْتَأْصِلَهُمْ لَنَكُرّنّ عَلَى بَقِيّتِهِمْ فَلَنَفْرُغَنّ مَعَهُمْ، فلما رأى أبو سفيان معبدًا، قال له: ما وراءك يا معبد؟ قال له: لقد خرج مُحَمَّدٌ في أصحابِهِ الذين لم يخرجوا معه بالأمس، خرجوا في جَمْعٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطّ يَتَحَرّقُونَ عليكم تحرقًا، قد اجتمع معه من كان تَخَلّفَ عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فقال أبو سفيان: ويحك ما تقول؟ قال: والله إني أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن هذا، وكان في هذا صنيع خير قام به معبد الخزاعي، وكان في كلامه ما حفز أبا سفيان ومن معه على أن يمضوا في طريقهم إلى مكة.

وقد مَرَّ بأبي سفيان والمشركين ركبٌ من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: هل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غدًا زبيبًا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: ((حسبنا الله ونعم الوكيل))، وفي هذا نزل قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣- ١٧٤]. وهنا قال صفوان بن أمية بن خلف ناصحًا أبا سفيان

ألا يعاود الكرة ويعود إلى المدينة، فقال صفوان: لا تفعلوا، فَإِن القَومَ قد حَرِبُوا، وقد خَشِينَا أَن يكونَ لهم قِتَالٌ غيرُ الذي كَانَ فَارْجِعُوا، فَرَجَعُوا. فقالَ النَّبِيُّ ﷺ وهو بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ حين بلغهُ أَنَّهُمْ هَمّوا بِالرَّجْعَةِ: ((وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سُوّمَتْ لَهُمْ حِجَارَةٌ لَوْ صُبّحُوا بِهَا لَكَانُوا كَأَمْسِ الذّاهِبِ)). ثم إنه ﷺ أقام في حمراء الأسد يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم عاد ﷺ إلى المدينة التي وصلها يوم الجمعة.

ج. مواجهة الحرب النفسية في المدينة:

وفي المدينة كان على المسلمين أن يتصدوا لقالات السوء التي أشاعها اليهود والمنافقون الذين أرجفوا في المدينة بكل ما ينال المسلمين، حتى إن اليهود قالوا: إنما محمدٌ طالب مُلكٍ، ولو كان نبيًّا ما وقع له ما وقع.

كذلك المنافقين الذين أرجفوا في المدينة، وقالوا كلامًا كثيرًا مما يدل على ما كان يعتمل في قلوبهم من النفاق والكفر والعداء للإسلام.

وحكى القرآن العظيم كثيرًا مما قاله المنافقون، ورد عليهم الرد الذي يفحمهم، وتشهد لهذا كله آيات سورة آل عمران التي تناولت هذه الغزوة الهامة من غزوات النبي ﷺ.

محذوف: <sp>¶

عِلم النبيِّ ﷺ بأمر طليحة الأسدي، وأخيه سلمة، أنهما يسيران في الناس يجمعان لحربه ﷺ، وقد علم النبي ﷺ ذلك في المدينة؛ حيث قدم رجلٌ من طيئ زائرًا قرابة له في المدينة، فأخبره بهذا الخبر، فدعا النبي ﷺ أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد ليخرج في مائة وخمسين رجلًا من المهاجرين والأنصار في سرية إلى قطن، وهي ماء بنجد لبني أسد، وقال لأبي سلمة: ((سِر حتى ترد أرض بني أسد بن خزيمة، فأغر عليهم قبل أن تلاقى عليكم جموعهم))، وأوصاه بتقوى

الله ﷻ وبمن معه من المسلمين خيرًا، فخرج في تلك السرية، ومعه الرجل الطائي دليلًا، وساروا ليلًا ونهارًا، فسبقوا الأخبار وانتهوا إلى ذي قطن ماء بني أسد، وهو الذي كان عليه جمعهم، فأغاروا على صرحٍ لهم فضموه، وأخذوا رعاءً لهم مماليك ثلاثة، وأفلت سائرهم، فجاءوا جمعهم فأخبروهم الخبر، وحذروهم جمع أبي سلمة، فتفرق الجمع في كلِّ وجه، وورد أبو سلمة الماء، فوجد الجمع قد تفرق، فعسكر وفرق أصحابه في طلب النعم والشاء، فجمعهم ثلاث فرق: فرقة أقامت معه، وفرقتان أغارتا في ناحيتين شتى، وأوعز إليهما ألَّا يمعنوا في الطلب؛ حتى لا يُؤخذوا على غرة في كمائن من العدو، وألا يبيتوا إلا عنده إن سلموا، وأمرهم ألا يفترقوا، واستعمل على كل فرقة أميرًا عليهم، فآبوا إليه جميعًا سالمين وقد أصابوا إبلًا وشاءً، ولم يلقوا أحدًا من هؤلاء الأعداء، وانحدر أبو سلمة بعد ذلك راجعًا إلى المدينة ورجع معه الرجل الطائي الذي كان سببًا في العلم بهذا الأمر.

وقسَّم أبو سلمة الغنائم، وأخرج الخمس لرسول الله ﷺ وأعطى الطائي الدليل رضاءً له من الغنم ثم قسَّم ما بقي بين أصحابه، وعاد أبو سلمة ﷺ إلى المدينة بعد أن لقَّنَ بأمر الله هذين العدوين درسًا بأن المسلمين منتبهون لكل من ينالهم بأذى، وأنهم يبادرون إياه بكل ما يسوءه ويرده إن شاء الله.

محذوف: <sp>¶

ثم رجلٌ آخر كان نواحي عرنة -قريبًا من عرفات- هو سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي، الذي خرج يجمع الناس لحرب النبي ﷺ وقد جمع الجموع.

فلما علم النبيُّ ﷺ بأمره بعث عبد الله بن أنيس ليقتله، حتى يقضي على هذه الحركة في مهدها، فخرج عبد الله بن أنيس، واستأذن النبي ﷺ وأخذ سيفه، وقال خرج يعتزي لخزاعة -أي ينتسب إليها. وقال: حتى إذا كُنتُ ببطن عرنة

لقيته يمشي -أي: لقي سفيان يمشي وراءه الأحابيش وما انضوى إليه- فعرفه بنعت النبيﷺ له؛ حيث إنه ﷺ كان قد وصفه له، وقال عبد الله بن أنيس لهذا الرجل إنه سمع بجمعه لمحمدٍ فجاء ليكون معه، فقال: أجل، إني لأجمع له، يقول: فمشيت معه وحدثته حتى انتهى إلى خبائه، وتفرق عنه أصحابه، فلما هدأ الناس وناموا، يقول: اغتررته فقتلته، ثم عاد ﷺ، وخرج رهط سفيان يطلبون عبد الله بن أنيس، ولكنهم لم يقدروا عليه؛ لأنهﷺ كان يتوارى منهم حتى قدم المدينة على رسول اللهﷺ بعد ثمانية عشر يومًا قضاها في أداء هذه المهمة.

محذوف: <sp>¶

جاء رهطَ سفيان بن نبيح الهذلي إلى جماعة من عضل والقارة، يجمعهم نسبٌ يريدون أن يثأروا لمقتل شيخهم سفيان بن نبيح الهذلي، وأوعزوا إليهم أن يطلبوا من المسلمين مَن يُقرئهم القرآن ويُعلمهم أمر الدين؛ خديعة بهم؛ لكي يصيبوا من المسلمين من يشفي غليل صدر قريش؛ ولذلك وافق المسلمون على أن يقوموا بهذه المهمة.

والرجيع: ماء لهزيل كانت عنده هذه الحادثة التي نزلت بجماعة من المسلمين بعثهم النبيﷺ مع هؤلاء النفر الذين قدموا إلى المدينة، يطلبون منه ﷺ أن يبعث إليهم قراءً ومعلمين يعلمونهم الإسلام ويقرءونهم القرآن، وذكروا له ﷺ بأن فيهم إسلامًا، فبعث معهم النبي ﷺ نفرًا ستة من خيرة الصحابة والقراء، كان منهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخبيب بن عدي، وزيدٌ بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، وقد أمر عليهم مرثد بن أبي مرثد، فخرجوا جميعًا مع القوم حتى إذا كانوا بالرجيع، فاستصرخ عليهم القوم هذيلًا، وغدروا بهم، وأحاط بهم مائة من الرماة، فأخذ

المسلمون سيوفهم ليقاتلوهم، ولكنهم أمنوهم وأخبروهم أنهم لا أرب لهم في قتلهم، وإنما يريدون أن يصيبوا بهم فداء من أهل مكة.

فأما مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وعاصم بن ثابت، وخالد بن البكير، فإنهم أبوا، وقالوا: والله لا قبلنا لمشرك عهدًا أبدًا، وقاتلوا حتى قتل ثلاثتهم رضوان الله عليهم ورحمته.

أما زيد بن الدثنة، وخبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق فإنهم لانوا، وأعطوا بأيديهم، فأسروهم، وخرجوا بهم إلى مكة، فلما ساروا بمر الظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القران، ثم أخذ سيفه، وأراد أن يناجز القوم، واستأخر عنهم، فلما رأوا ذلك منه، رموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره > بمر الظهران.

ثم إنهم حملوا خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، فباعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا أبو حجير بن أبي إيهاب التميمي حليف بني نوفل حتى يقتله بلحارث بن عامر خال أبي إيهاب، واشترى زيدًا بن الدثنة صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قتل في بدر.

ولما علم المنافقون بهذا الأمر، قالوا: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهليهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

هؤلاء الذين خرجوا يؤدون رسالة الإسلام؛ وإن كانوا قد مكر بهم، وخدعوا فإنهم خرجوا في ذات الله، إنما أرادوا أن ينشروا الدين، وأن يعلموا الإسلام للناس

كما تعلّموه وعلِموه، وأن يكون سببًا في هداية الخلق، كما هداهم الله ﷻ، كانت هذه السرية سرية الرجيع في صفر من السنة الثالثة للهجرة في أعقاب أحدٍ كما عرفنا.

حادثـــــة بئـــــر معونـــــة

في نفسه الشهر كانت حادثة أصحاب بئر معونة أو سرية القراء، ومعونة اسمٌ لموضع من بلاد هذيلٍ بين مكة وعسفان؛ حيث وفد على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وهو من رءوس بني عامر، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام، فلم يسلم، ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: ((إني أخشى عليهم أهل نجد))، فقال أبو براء: أنا لهم جار، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرٍ في سبعين رجلًا من خيار المسلمين، وكانوا يعرفون بالقراء، وهم حفظة للقرآن، وذكر الكتاب أنهم كانوا أربعين رجلًا، والصحيح أنهم كانوا سبعين، وكان منهم الحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان خال أنس بن مالك < ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق.

فساروا حتى نزلوا بئر معونة، فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب كان معهم من النبي ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما آتاه حرام بن ملحان لم ينظر في الكتاب وأوعز إلى رجل فطعنه بالرمح من خلفه، فقال حرام لما طعن بالرمح: فزت ورب الكعبة.

ثم إن عامر بن الطفيل استصرخ على المسلمين بني عامر، فأبت بنو عامرٍ أن يجيبوه، وقالوا: لن نخفر ذمة أبي براء، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا، فاستصرخ قبائل من بني سليم: رعلًا، وذكوان، وعصية، فأجابوه، فخرجوا حتى غشوا الناس فأحاطوا بهم في رحالهم، فقال لهم المسلمون: والله ما إياكم أردنا، وإنما

نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ، فأبوا عليهم فقاتلوهم جميعًا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث بين القتلى -أي: حمل وبه رمقٌ كأنه قتيل من القتلى- فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا.

كذلك كان ممن لم يكن مع القوم، عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد بن عقبة، فإنهما كانا في صرح القوم وقيل: كانا يطلبان ضالة لهما.

هنا لم يعرف عمرو بن أمية، والمنذر بأمر أصحابهما إلا برؤيتهما الطير تحوم حول المعسكر، فقال: والله إن لِهذا الطير لشأنًا، فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال المنذر لعمر: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال المنذر بن محمد: فإني والله لا أرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنت لأخبر عنه الرجال، فقاتل عنه حتى قتل رضي الله عنه شهيدًا، وأخذوا عمرو بن أمية أسيرًا، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن جزَّ ناصيته، وأعتقه منًّا عليه لقاء رقبة كانت على أمه فيما زعم، فخرج عمرو قاصدًا المدينة، فلقي رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من الرسول ﷺ وهو لا يعلم به، فأمنهما حتى ناما، فقتلهما، وهو يرى أنه أصاب بهذا ثأرًا من بني عامر، لما قتلوا المسلمين.

قدم عمرو وأخبر النبيﷺ بأمره، فقال ﷺ: لقد قتلت قتيلين؛ لآدينهما، ثم قال: هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهًا متخوفًا، فبلغ ذلك أبا براء، فشق عليه ذلك، وذهب ابنه ربيعة إلى ابن عامر بن الطفيل، فطعنه انتقامًا منه على فعلته هذه، فجرح في فخذه، ولكنه لم يمت.

هذا أمر هاتين السريتين اللتين كان الغدر واضحًا فيهما بالمسلمين، وكان وصول خبر سرية الرجيع وبئر معونة معًا في وقت واحد، فحزن النبي ﷺ والمسلمون

حزنًا شديدًا، ولقد بلغ من حزن النبي ﷺ أنه مكث شهرًا يدعو في صلاة الصبح على رعل وذكوان وعصية الذين غدروا بالقراء.

وروى البخاري أن النبي ﷺ لما نعي القراء له قال: ((إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم، فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك، ورضيت عنا)) فأخبرهم عنهم فأنزل الله ﷻ فيهم قرآنا نسخ - كما يذكر أنس.

والنص الذي ذكر في الصحيح: ((أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا، ورضينا عنه))، وهذا مما نسخ من القرآن.

كان للنبي ﷺ شأن مع أمثال هؤلاء الغدرة الخونة، فإنه ﷺ أعد لقبيلة لحيان الجزاءَ الذي يليق بهم، فقد خرج ﷺ في مائتي رجلٍ معهم عشرون فرسًا بعد أن استخلف على المدينة عبد الله بن أم كتوم، وأسرع السير حتى انتهى إلى بلادهم.

فلما سمعت بهم لحيان هربوا في رءوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومًا أو يومين، وبعث السرايا في كل ناحية حتى يشعرهم بطلبه إياهم، ثم خرجﷺ حتى أتى عسفان، فبعث أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع بهم قريش، فيذعرهم ذلك فأتوا قراع الغميم.

ثم رجعوا ولم يلقوا أحدًا، وانصرف النبي ﷺ عائدًا إلى المدينة من هذه الغزوة التي قصد بها أن يؤدب الغدرة بأصحاب الرجيع.

على أنه كان للكلمة وللشعر دور في تمجيد هؤلاء الذين غدر بهم الفجرة، فلقد قال حسان في بكاء أصحاب الرجيع:

صلى الإله على الذين تتابعوا ❖ يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا

في شعر طويل، عدد فيه مآثر هؤلاء الرجال الذين خرجوا في سبيل الله يبلغون أمانة الله، كما أنه نال الغادرين بالهجاء المقذع. وقد يُقال: كيف يُخدع النبي ﷺ من أمثال هؤلاء الذين جاءوا يطلبون القراء يعلموهم؟ وفي شهر واحد يتم هذا مع أصحاب الرجيع وأصحاب بئر معونة، وهو شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة؟

ويُرد على هذا أنه يجب على المؤمن أن يبلغ دعوة ربه مهما كانت العواقب؛ لأن المؤمن إنما هو في سبيل الله كل أمره.

وإن إيفاد هاتين السريتين اللتين لم تخرجا لقتال، وإنما خرجتا للدعوة، ولتعليم الناس دين الله ﷻ، كان أمرهما حلقة من حلقات الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى هذا الدين ونشره بشتى الوسائل.

ومهما كانت الحال، فإن غاية ما يحتمل أن يموتوا شهداء، أو أن يبلغوا أمانة هذا الدين العظيم، فلهم الحسنى في الحالين.

غزوة بني النضير، وسببها، حصار بني النضير، وإباؤهم الخروج

أ. سبب غزوة بني النضير:

كانت غزوة بني النضير في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، ذلك أن النبيَّ ﷺ خرج إليهم يبغي إشراكهم في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، وهما من بني عامر، وبنو عامر حلفاء لبني النضير، وكان الحلف يلزمهم المشاركة في الدية.

ولما وصل النبي ﷺ إلى بني النضير في جمعٍ من صحابته رضي الله عنهم، وعرض عليهم الأمر، فرحبوا في بداية الأمر، وأجلسوا النبي ﷺ وأشعروه أنهم سوف

يودونهم، ولكنهم تآمروا ودبروا لمقتله ﷺ، فصعد واحدٌ منهم وهو عمرو بن جحاش إلى سطح الدار التي يجلس النبيﷺ إلى جدارها؛ ليلقي عليه حجرًا.

وبينما هم يدبرون ذلك الأمر؛ إذ بالنبي ﷺ يأتيه الوحي من السماء يخبره بما عزمت عليه يهود بني النضير، فقام النبي ﷺ عائدا إلى المدينة لم يعرج على شيء، وقد ظن الصحابة رضوان الله عليهم أن النبي ﷺ خرج لبعض حاجاته، وأنه سوف يعود.

ولكنه لما طال مقامهم، جاء من يخبرهم بأن النبي ﷺ دخل المدينة، فرجع المسلمون إلى المدينة، حتى يعلموا أمر النبي ﷺ.

ثم إنهﷺ دعا محمد بن مسلمة الأوسي، وأمره أن يذهب إلى بني النضير بأمر النبي ﷺ أن يخرجوا من بلده؛ لهذا الجرم الذي عزموا عليه، وهنا قال حيي بن أخطب لمحمد بن مسلمة: ما كنا نتوقع أن يأتينا بهذا الأمر رجل من الأوس؛ لأنهم كانوا حلفاءً للأوس، ولكن محمد بن مسلمة قال لهم: لقد تغيرت القلوب بعد الإسلام، أي: لم يعد بيننا ود لكم كما كان أيام الجاهلية؛ بسبب عدائكم للنبي ﷺ وللإسلام.

وهنا عرف بنو النضير بجرمهم، وتشاوروا فيما بينهم ورأوا أنه لا مجال أمامهم إلا أن يستجيبوا لأمر النبي ﷺ فمكثوا أيامًا يتجهزون، ولكن عبد الله بن أبي ابن سلول وجماعة من المنافقين أرسلوا إليهم من يَحضهم على ألا يستجيبوا لأمر النبي ﷺ، وقالوا: اثبتوا وتمنعوا فإنَّا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم.

وكان من كلام عبد الله بن أبي سلول: إن معي ألفين من قومي، ومن غير العرب يدخلون معكم حصونكم، فيموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم،

وأطمعهم في نصر إخوانهم من بني قريظة ومن غطفان، وأرسل إلى كعب بن أسد القرظي يسأله أن يقف مع إخوانه من بني النضير فأبى، ولم يرضَ نقض العهد مع النبي ﷺ.

فيئس عبد الله بن أُبي بن أبي سلول من قريظة، وهنا أمام هذه الوعود الكاذبة، والتي لم يحدث منها شيء، تشدد بن أخطب ورفض الاستجابة بعد أن كانوا استعدوا للخروج، ولطمعه فيما وعد به ابن سلول، استعد بإعداد الحصون، وتهيأ لحصار المسلمين لهم.

هنا نلاحظ أمرًا غريبًا، وهو أن عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج، وبنو النضير لم يكونوا حلفاءه، وإنما كانوا أعداءه بالأمس، فوقوف عبد الله بن أبي ابن سلول معهم أمر يعتبر غريبًا، ولكن لا يستغرب الأمر ما دام الكفر يجمع بين هؤلاء وأولئك؛ ولذلك نزلت قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١٢].

أمَّا حيي بن أخطب، فقد أخذ في الاستعداد طمعًا في إنجاز ابن سلول وعده، فعدل عن الخروج، ولما عرض عليهم سلام بن مشكم أن يقبلوا ما عرضه عليهم النبي ﷺ من الخروج في أمان منه، وحذرهم المخالفة، حتى لا تصاب أموالهم وأنفسهم؛ لأنه لو سار إليهم محمدٌ ﷺ فلن يكون لهم إلا ما يكون كرههم له أشد من الشروط.

لكن ابن أخطب أبى معتمدًا على وعود ابن سلول، فأرسل إلى النبي ﷺ بخطاب له مع أخيه جدي، فقال له: "إنا لن نبرح دارنا وأموالنا، فاصنع ما بدا لك"؛ ثم أمره أن يخبر ابن سلول بذلك حتى يستحثه لإنجاز وعده لهم.

ب. حصار بني النضير، وإباؤهم الخروج:

ولكن النبي ﷺ لما علم بأمرهم كَبَّرَ، وكَبَّرَ المسلمون لتكبيره، وقال ﷺ: حاربت يهود.

ولما ذهب جدي إلى ابن سلول حتى يخبره بما تم مع النبي ﷺ من إخباره، رأى عبد الله بن أبي ابن سلول أن يُسرع للخروج، فخرج جدي مسرعًا، وقد يئس من ابن سلول يخبر أخاه بما تم أمر المسلمين عليه، وأنهم مستعدون للخروج لبني النضير، وهنا علم حيي بن أخطب خطأ ما كان عليه.

ولكن قام بنو النضير على حصونهم معهم النبل، والحجارة، وكانوا وحدهم هكذا، وجعلوا يرمون المسلمين بالنبل والحجارة، حتى أظلموا، وبات المسلمون يحاصرونهم ويُكَبِّرون حتى أصبحوا، ولقد اشتد حصاره ﷺ لهم، كما اشتدوا هم في المقاومة، والتجلد.

ومن ثم أمر النبي ﷺ بأمرٍ لعله أن يصيب من ثباتهم وتجلدهم، فأمر بالنخل فقطعت وحرقت كيدًا لهم، واستعمل على قطع النخل رجلين من أصحابه: أبا ليلى المازني، وعبد الله بن سلام.

وكانت العجوة أحرق لقلوب اليهود، وقد صاحت النساء وشققن جيوبهن لهذا الخراب، والدمار، الذي حل بهم، وأرسل ابن أخطب إلى النبي ﷺ: إنك كنت تنهى عن الفساد، فَلِمَ تقطع النخل؟ وهنا كان المسلمون الذين يقومون بتنفيذ أمر النبي ﷺ قد وقع في قلوبهم شيء من هذا، ولكن نزلت آية سورة الحشر التي هي سورة بني النضير يقول الله ﷻ فيها: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

أي: إن هذا الأمر الذي تقومون به إنما هو أمر من عند الله ﷻ، تقومون به كيدًا لهؤلاء الكافرين الذين هَمُّوا بما لم ينالوا.

وأخيرًا: رضي بنو النضير أن يخرجوا على أن يعطوا النبي ﷺ ما سألهم إياه، وقالوا: نعطيك الذي سألت، ونخرج من بلادك، فقال ﷺ: لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها، ولكم ما حملت الإبل إلا الحلقة، أي: إلا السلاح. فقال سلام بن مشكم لحيي: اقبل قبل أن تقبل شرًّا من هذا. فقال حييٌ: وما هو شرٌّ من هذا؟ قال: سبي الذرية، وقتل المقاتلة، مع الأموال؛ ولذلك مكث حييٌّ يومًا أو يومين يفكر في الأمر، وأخيرًا: استقر الرأي عند بني النضير، وخضع ابن أخطب لأمر النبي ﷺ فاستعدوا للخروج من المدينة على ما شرط عليهم النبي ﷺ.

ولقد كان بنو النضير حينما استعدوا للخروج يخربون بيوتهم، فقال تعالى: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ [الحشر: ٣].

خروج بني النضير، ومسيرهم إلى خيبر

خرجت بنو النضير، وقد حملوا النساء والذرية، وما استقلت به الإبل من الأمتعة، وأظهروا تجلدًا عظيمًا.

أما منافقو المدينة، فقد حزنوا حزنًا شديدًا لخروج بني النضير ثاني القبائل من اليهود، خرجت بنو قينقاع بعد بدر وها هم بنو النضير يخرجون من بعد أُحد. ولكأن ما ينزله ﷻ بقريش من الهزيمة كان يعقبه نصر من الله ﷻ للمسلمين على اليهود - كفار المدينة.

سار ركب اليهود، فكان منهم من نزل خيبر والبعد سار إلى الشام، ولكن من ساروا إلى خيبر كانوا يعدون العدة للمقاومة ضد الإسلام والمسلمين عن مكانٍ

قريبٍ من المدينة وهو خيبر، فلم يغادروا إلى الشام، فكانت بنو النضير أكثر قبائل اليهود عداء للإسلام.

هكذا كانت الحال مع هؤلاء اليهود الذين كانوا ثاني قبيلة منهم تخرج من المدينة.

وقد جعل الله تعالى أموال بني النضير لنبيه خاصة، فنزل قوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الحشر: ٦].

وهذه الأموال التي جعلها الله للنبي ﷺ قسمها النبي ﷺ بين المهاجرين الأولين دون الأنصار، لكنه أعطى سهل بن حنيث، وأبا دجانة، وقيل: والحارث بن الصمة لفقرهم، ولم يجعل للأنصار شيئًا من هذه الأموال؛ لأن الأنصار كانوا قد وسعوا المهاجرين الأولين في أموالهم، وزروعهم.

وهنا أراد النبي ﷺ بهذا الفيء أن يرفع عن الأنصار كلفة الأموال التي جعلوها لإخوانهم المهاجرين، ولقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله: ألا تخمس ما أصبت؟ فقال ﷺ: لا أجعل شيئًا جعله الله تعالى لي دون المؤمنين كهيئة ما وقع فيه السهمان يقصد قوله ﷻ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ [الحشر: ٧].

فلما غنم رسول الله ﷺ أموال بني النضير دعا ثابت بن قيس بن شماس، فقال: ادعُ لي قومك، فقال ثابت بن قيس: الخزرج؟ قال رسول الله ﷺ: الأنصار كلها.

وفي هذا حكمة من أن الأنصار كلهم أصبحوا إخوة، ثم إنه لما جاء الأوس والخزرج تكلم رسول الله ﷺ فحمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار، وما صنعوا بالمهاجرين، وإنزالهم إياهم في منازلهم، وإيثارهم على أنفسهم، ثم قال موجهًا الكلام للأنصار: إن أحببتم قسمت بينكم وبين

المهاجرين مما أفاء الله عليّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم، وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وحدهم، وخرجوا من دوركم. فتكلم سعدُ بن عبادة، وسعد بن معاذ، وهما سيدا الأوس والخزرج فقالا: يا رسول الله. بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا -كما كانوا. ونادت الأنصار رضينا وسلمنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار.

فقسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه وأعطى المهاجرين، ولم يعط الأنصار، اللهم إلا ما ذكرنا من أمر سهلٍ من حنيث وأبي دجانة، وكذلك الحارث بن الصمة > . وكان لموقف الأنصار تجاه إخوانهم المهاجرين ما نزل فيهم من قول الله ﷻ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ هذه الأموال الذي جعلها الله ﷻ لرسوله ﷺ أنه جعلها: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ثم ذكر الأنصار بما هم أهلٌ له، فقال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

نكوص أبي سفيان عن موعده

وجاء الموعد الذي نادى به أبو سفيان بعد أن ظنّ أنه حقق انتصارًا على المسلمين بأن موعدهم بدرٌ من العام القابل، فقبل النبي ﷺ هذا الأمر، وأعد له عدته، والتزم بالموعد، وبالمكان؛ ولذلك خرج النبي ﷺ في غزوة بدر الموعد كما طلب أبو سفيان، وكانت في شهر ذي القعدة، وقد أعد النبي ﷺ للأمر عدته، حتى

إنه # قال: ((والذي نفسي بيده لأخرجن، وإن لم يخرج معي أحد))، فنصر الله المسلمين بذلك، وأذهب عنهم الرعب، واستخلف النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن رواحة، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، وسار في المسلمين -وهم ألفٌ وخمسمائة- وكانت الخيل عشرة أفراس، كما أنهم خرجوا ببضائع لهم، وتجارات، وكانت بدرٌ مجتمعًا يجتمع فيه العرب كل عامٍ، وكانت تقام لهم سوقٌ فيه لهلال ذي القعدة إلى ثمانٍ منه، ثم تخلو منه ويتفرق الناس إلى بلادهم.

فانتهى النبي ﷺ وأصحابه إلى بدر ليلة هلال ذي القعدة، وقامت السوق صبيحة الهلال، فأقام المسلمون ثمانية أيام، وباعوا ما خرجوا به من التجارات فربحوا للدرهم درهمًا وانصرفوا؛ لأن أبا سفيان الذي طلب الموعد، وتحدى به، قد حل الموعد، فإنه لما دنا الموعد كره الخروج؛ لأنه ربما داخله شيء في نفسه من أن المسلمين ربما يحققون عليه نصرًا؛ لذلك قال أبو سفيان لنعيم بن مسعود الأشجعي - وهو رجل ينقل الشائعات-: "إني قد واعدت محمدًا وأصحابه أن نلتقي ببدر، وقد جاء ذلك الوقت، وهذا عام جدب -يتعلل أبو سفيان بهذا الأمر- وإنما يصلحنا عام خصب، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج فيجترأ علينا".

وهذا الأمر قاله أبو سفيان لأهل مكة حينما أوعز إليهم أنه لن يصلحهم إلا عام خصبٍ ترعى فيه الإبل والخيل ويشربون فيه اللبن، وجعل أبو سفيان لنعيمٍ بن مسعود عشرين فريضة -أي: عشرين ناقة- يضمنها له سهيل بن عمرو على أن يقدم المدينة فيخذل محمدًا وأصحابه -كما قال- فرضي نعيمٌ بهذا الأمر، وخرج مسرعًا إلى المدينة ليخبر المسلمين بجمع أبي سفيان الذي أراد أن يوهن المسلمين به، وأن معه من العدة والسلاح الشيء الكثير، فقال رسول الله ﷺ لما سمع هذه

القالة، وهذه الشائعة الكاذبة: ((والذي نفسي بيده لأخرجن، وإن لم يخرج معي أحد))، فنصر الله المسلمين، وأذهب عنهم الرعب.

أما أبو سفيان ومن معه من المشركين، فإنهم خرجوا على غير عزم من أبي سفيان لمواصلة السير معتمدًا على أثر هذه الشائعة التي توقع أن تأتي بثمرةٍ في إرهاب المسلمين في المدينة؛ فخرج من مكة حتى وصل إلى مر الظهران، ونزل بمياه مجنة على بعد أربعين كيلو مترًا تقريبًا من مكة، ثم عاد بهم من غير أن يواصلوا المسير لموعدهم الذي واعدوا به المسلمين.

ورجع النبي ﷺ إلى المدينة، وقد أيده الله بالنصر؛ لأن أبا سفيان لم يأتِ للموعد، وخالف فيه.

غزوة الأحزاب (الخندق)

عناصر الدرس

العنصر الأول	: سبب الغزوة	١٨٧
العنصر الثاني	: علمه ﷺ بأمرهم، وعمله	١٨٨
العنصر الثالث	: مساحة الخندق وموقعه وعمل المسلمين الشاق لحفره	١٨٩
العنصر الرابع	: مفاجأة المشركين بالخندق، ومحاولات لاقتحام الخندق	١٩٠
العنصر الخامس	: موقف بني قريظة، والتحرّي عن موقفهم	١٩٢
العنصر السادس	: مفاوضة الصلح مع غطفان، وإسلام نعيم بن مسعود	١٩٣
العنصر السابع	: جنود الله تنزل للمشركين، ومجيء حذيفة	١٩٦
العنصر الثامن	: انصراف الأحزاب	١٩٧

سبب غزوة الأحزاب (الخندق)

سُميت "الأحزاب" بسبب الجموع التي اجتمعت على الكيد للإسلام وحرب المسلمين، من قريشٍ واليهود والأعراب وكلهم كانوا موتورين من المسلمين.

فجاء حيي بن أخطب في جمعٍ من رؤوس يهود بني النضير يستحثون قريشًا على قتال النبي ﷺ، وبخاصة بعد أن عرفوا بأن قريشًا لم تفِ بعهدها في لقاء "بدر" الموعد، وهنا رأت قريش أن تجيبهم؛ لأن في مصلحتها أن تجتمع هذه الأحزاب المعادية للإسلام؛ سواء أكانوا من اليهود أو من الأعراب.

وخرجت اليهود بعد أن منّوا قريشًا بأنهم سوف يجمعون الأعراب من غطفان وغيرهم؛ فخرجت اليهود إلى غطفان، يدعوهم إلى حرب النبي ﷺ وأغروهم بأن يكون لهم نصف تمر خيبر إذا اشتركوا معهم في الحرب، فاستجابوا لذلك. كما بعث المشركون إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبو سفيان بقريش ومن اتبعه من قبائل العرب.

فنزلوا بِمَرِّ الظهران، فجاءتهم القبائل التي أجابتهم من بني سليم بقيادة سفيان بن عبد شمس، وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف، وأشجع بقيادة مسعر بن رخيلة.

وسارت قريشٌ فيمن تبعها من بني كنانة وأهل تهامة.

فصاروا جميعًا عظيمًا، وسماهم الله ﷻ "الأحزاب"، وكانت عدة الجميع نحو عشرة آلاف؛ أجمعوا على المسير صوب المدينة.

علمه ﷺ بأمرهم، وعمله

كانت قبيلة "خُزَاعة" عين النبي ﷺ التي كانت تنبئه بأحوال "قريش"، فلما تهيأت "قريش" للخروج أسرعت "خُزَاعة" بأن أرسلت إلى النبي ﷺ تُخبره بهذا الأمر حتى يأخذ للأمر عدته.

فجمع النبي ﷺ أصحابه، وشاورهم في الأمر، فأجمعوا على أن يكونوا في "المدينة"، ولكن أنَّى للمدينة في تصديها لهذا الجمع الكبير؛ ولذلك كانت هناك فكرة أشار بها سلمان الفارسي، فقال: يا رسول الله، إنا كنا إذا حوصرنا في بلادنا خَنْدَقْنَا -أي: حفرنا خندقًا.

وكانت جهات "المدينة" كلها تكاد تكون متشابكة: الحرتان من نواحيهما، وحيطان النخل والبيوت المتلاصقة كل ذلك كان يمثل عقبة تمنع مسير الجيش واقتحامه، اللهم عدا المنطقة الشمالية التي كانت عارية من نواحي المدينة، ولذلك اختير هذا المكان ليحفر فيه الخندق حتى تكتمل دائرة حماية "المدينة".

وخرج النبي ﷺ في عدة من المهاجرين والأنصار فارتاد موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل جبل سلع خلف ظهره، ويخندق من المزاد إلى ذباب إلى راتج، فعمل يومئذ في الخندق، وندب الناس وخبرهم بدنو عدوهم، وعسكرهم في سفح سلع، وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو ويتعجلون.

ووكل النبي ﷺ بكل جانب من الخندق قومًا يحفرونه، وربط الخندق بين طرفي حرة واقم، وحرة الوبرة وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل، وتحيطها الحرات التي يصعب السير فيها.

مساحة الخندق وموقعه عمل المسلمين الشاق لحفره

شرع المسلمون في حفر الخندق، وكان طوله نحو من خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة.

ولقد تراوحت مدة الحفر ما بين ست أيام وأربعة وعشرين يومًا -على خلاف فيما ذكره الرواة، وكتّاب السيرة.

وقد شارك المسلمون جميعهم في الحفر، لا فرق بين غني وفقير، وأسوتهم في كل ذلك رسول الله ﷺ الذي كان يحمل التراب حتى وارى التراب جلده الشريف، ويذكر أنسٌ بن مالك أن النبي ﷺ كان يحفر بيده الشريفة، ويحمل التراب على ظهره حتى إن الغبار علا ظهره وعكنه ﷺ.

وهنا نشير إلى أن النبي ﷺ ترك للغلمان دورًا في المساهمة في أعمال الحفر، ولكن لما اشتد الأمر، وأصبح المشركون على مقربة من المدينة، فإنه ﷺ أمر من لم يبلغ مبلغ القتال أن يرجع إلى أهله.

وقد أجاز النبي ﷺ يوم الخندق عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأبا سعيد الخدري، والبراء بن عازب، وكانوا في الخامسة عشرة عامًا.

أما المنافقون فقد أبطؤوا في العمل، ويتعللون بالعلل الواهية حتى لا يكون لهم دور في هذا العمل الذي سوف يحمي المدينة، وكان ﷺ يأذن لهم؛ لأنه يعلم أنهم ليس فيهم خير يُرجى في أمثال هذه الشدائد.

وبعد انتهاء المسلمين من حفر الخندق والاستعداد للأمر، نزل النبي ﷺ أمام سلع فجعله خلف ظهره، والخندق أمامه، وكان عسكره ﷺ فيما هنالك، وضربت

له قبةٌ من أدمٍ كانت على المسجد الأعلى الذي بأصل الجبل -جبل الأحزاب.
وكان المسلمون نحوًا من ثلاثة آلاف.

وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة، واستعد المسلمون لهذا اللقاء، بعد أن أحكمت حلقة الدفاع عن المدينة.

مفاجأة المشركين بالخندق، ومحاولات لاقتحامه

أ. مفاجأة المشركين بالخندق:

أقبلت قريشٌ حتى نزلت بمجمع الأسيال فيمن جاء معها وما انضوى إليها من كنانة، وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد، فسرحت قريشٌ ركابها في وادي العقيق، كما سرحت غطفان إبلها إلى الغابة.

ولما رأى المؤمنون هذه الجموع الغفيرة التي اجتمعت كلمتها على العداء للإسلام والمسلمين، فإنهم لما رأوا ذلك، ما قالوا إلا ما ذكره القرآن: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٢٢].

ودهشت قريش ومن معها لما رأوا الخندق؛ لأن العرب لم يكن لهم عهدٌ بهذا النوع من الدفاع، وقالوا: هذه خدعة لم تعرفها العرب.

وكان النبيُّ ﷺ في غزواته مع قريش في بدر وأحد والأحزاب، كان يُفاجئ بالجديد من التخطيط الذي يمكن أن يؤدي إلى نجاح المؤمنين والمسلمين في معركتهم ضد قريش، فنذكر أمر الصف في "بدر"، وأمر الرماة على الجبل، وهنا نجد بأن النبي ﷺ بمشورة سلمان كان أمر الخندق من الأمور التي جعلها الله سببًا في ردِّ هذا الخطر الذي كان يمثل خطرًا كبيرًا على المسلمين في "المدينة".

وأمام هذا الأمر، لم يجد المشركون سبيلًا إلا الرمي بالنبل، ومحاولة اقتحام الخندق، ولكن كان المسلمون يردوهم على أعقابهم، ومن كان يحاول اقتحام الخندق كان: إما أن يقتل، وإما أن يرتد على عقبه.

ولعله كان من الخطة أن يُترك مكانٌ يمكن أن يَسمح لفرادى من فرسان المشركين أن يعبروه، ولا يسمح للجموع أن تقتحم "الخندق"؛ لذلك كانت هناك بعض المحاولات من المشركين في العبور من هذه المناطق، ولعل هذا كان نوعًا من الاصطياد لأمثال هؤلاء.

وكان ممن اقتحم الخندق منهم: عمرو بن عبد ود، الذي كان قد شارك في غزوة بدر، ونالته جراحات كثيرة فيها، ولم يحضر "أُحدًا"، حتى يشفى صدره المسلمين -كما كان يعزم- فلما جاءت الأحزاب خرج.

وكان رجلًا كبيرًا في السن، ولكنه كان ذا بأسٍ وقوة وعناد وإصرار في الكفر، فلما جاوز الخندق نادى: مَنْ يُبارز؟ خرج له عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد أن أَذِنَ له النبيُّ ﷺ.

وتنازل الرجلان وقد استهزأ عمرو بعليٍّ في بداية الأمر، لكنه لما رأى إصرار عليٍّ نَزَلَ عن فرسه ليبارزه، وانتهى الأمر بأن نصر اللهُ عليًّا، فكبّر المسلمون، وعلم النبي ﷺ أن عليًّا قتل هذا الرجل.

لم يكن عمرو وحده هو الذي عبر الخندق، وإنما عبر كذلك جماعة من المشركين، ومنهم: عكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب بن مرداس، لكن عاد هؤلاء لما قتل عمرو بن عبد ود.

فكان المشركون يتشوقون إلى أن يستعرضوا قدراتهم، وبطولاتهم، لكن حال بينهم وبين المسلمين هذا الخندق الذي جعله الله سببًا في درء هذا الخطر، ودفع هذا البلاء عن المسلمين.

طال الحصار حول المسلمين، وكان النبي ﷺ يحرص على أن يكون الخندق تحت عيون المسلمين، وبخاصة تلك الثغرة التي ربما تَعَمَّدَ المسلمون عملها؛ حتى تستدرج منهم من تستدرج.

موقف بني قريظة، والتحرّي عن موقفهم

أ. موقف بني قريظة:

لما طال المقام، تشاور أبو سفيان مع حيي ابن أخطب؛ ففكّر حيي في أن يُدخل يهود "بني قريظة" مع الأحزاب في هذا القصد، فسعى إليهم، ولما توجه إلى دور "بني قريظة"، واستأذن على كعب بن أسد حتى يدخله مع الناس، ولكن كعبًا أبى في أول الأمر في أن يجيب حُيًّا إلى هذا الطلب، واستمسك بعهده مع النبي ﷺ، وبخاصة أنه رأى ما حدث لـ: "بني قينقاع"، و"بني النضير"، ولكن حُييًا ما زال به يغريه حتى استجاب هذا الرجل، ونقض عهد بني قريظة مع النبي ﷺ.

وهنا عظم الخطب والخطر على المسلمين؛ لأن منازل "بني قريظة" كانت داخلة في حلقة الدفاع عن المسلمين وعن المدينة.

ب. التحري عن موقفهم:

وسرى الخبر، وعلم النبي ﷺ به، ولكنه أراد أن يتثبت، فبعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وخوات بن جبير -في جماعة- وطلب منهم أن يتعرفوا له أمر "بني قريظة"، وأمرهم: ألَّا يصرِّحوا إذا كان الخبر حقيقة حتى لا يفت ذلك في أعضاد الناس، أما إذا كان الخبر غير حقيقيّ فأمرهم أن يعلنوه حتى يستبشر الناس، وحتى يطمئنوا فذهب الجماعة إلى حيث "بنو قريظة"، ولما ذكر لهم سعدٌ ما أمرهم بعهد رسول الله قالوا: مَنْ رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد، فعاد الرجال إلى النبي ﷺ وأخبروه في تورية بما حدث.

فقال النبي ﷺ : الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، هنا نجم النفاق واضحًا، وظهر نفاق المنافقين على أكثر ما كان عليه، وعظم الخطب على المسلمين، ورأوا أنهم قد أوتوا من جميع النواحي، فقد أتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم؛ حتى ظن المؤمنون والناس كل ظنٍّ؛ حتى قال بعض المنافقين: إن محمدًا كان يَعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط وحده، وكان منهم التسلل الذي كثر منهم حتى إنهم تنادوا: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣].

هنا يتنادون بالاسم القديم الذي لم يكن في الإسلام، والذي لم يكن يحب النبي ﷺ أن تُسمَّى به المدينة، بعد أن سماها "المدينة"، و"طابة" وغير ذلك من الأسماء، فكان تناديهم بهذا الاسم دليل على بعث أمور الجاهلية التي كانت قبل الإسلام في نفوسهم، ولكأنه رمز بينهم.

مفاوضة الصلح مع غطفان، و إسلام نعيم بن مسعود

أ. مفاوضة الصلح مع غطفان:

ولما اشتد الخطبُ على المسلمين، رأى النبيُّ ﷺ أنه كي يكسر حدة هذه الجموع، يجب أن تخرج الأعراب وبخاصةً غطفان التي كانت شديدة البأس، كثيرة العدد في الأحزاب، فدعا شيخيها: عُيينة بن حصن، والحارث بن عوف المري، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، وجرى بينه ﷺ وبينهما الصلح على هذا حتى كتبوا الكتاب.

ولكن لم تقع شهادة ولا عزيمة على الصلح اللهم إلا المفاوضة والمراودة في هذا الأمر؛ لأن أصحاب الأمر والثمار بعد ذلك هم أهل "المدينة"، وإن كانوا لن يرجعوا عن أمر أمضاه النبي ﷺ، ولكنا كما نعرف بأنه ﷺ ما كان يبرم أمرًا من الأمور الخطيرة إلا بعد أن يأخذ فيه المشورة؛ لذلك دعا سعدًا بن معاذ وسعدًا بن عبادة -سيدي الأوس والخزرج. وعرض عليهما ما فاوض عليه هذين الرجلين، وهنا فطن الرجلان لهذا الأمر، وهذا العمل؛ فقالا: يا رسول الله أمرٌ أمرك الله به فلا نتأخر، ولا نتقدم عنه، وما علينا إلا أن نلتزم به، أو أمرٌ تحب أن نصنعه فنصنعه، لأنك تحب ذلك، أو أنك تفعل ذلك من أجلنا، تفعله لنا، قال النبي ﷺ: بل أفعل هذا من أجلكم ولكم، فإني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.

وهنا ظهر الإيمان واضحًا عند هذين الرجلين اللذين كانا يتكلمان بلسان الأنصار جميعاً، قالا: يا رسول الله! لقد كنا نحن وهؤلاء -أي: المشركون- لا نعرف الله، ولا نعبده، وكنا معهم على الشرك، وكانوا لا يطمعون في تمرة من تمر المدينة إلا قرىً -أي: ضيافة- أو بيعًا، أفبعد أن أكرمنا الله بك، وأعزّنا بالإسلام، وعبدنا الله، نعطيهم أموالنا؟ لا، والله ما نعطيهم إلا السيف، والله يحكم بيننا وبينهم.

فرضي النبي ﷺ بذلك الأمر، وحمد الله أن كان هذا رأي السعدين.

ب. إسلام نعيم بن مسعود:

ومن فضل الله ﷻ ونعمته على المسلمين؛ إذ جاء برجل من صفوف الأحزاب هو "نعيم بن مسعود الأشجعي"، والذي كان قد استعمله أبو سفيان من قبل عند بدر الموعد حتى يخذل المسلمين، ويقول لهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فقد قذف الله في قلبه الإيمان والإسلام في هذه المحنة، فجاء متسترًا يعرض إسلامه على النبي ﷺ، ويشهد شهادة التوحيد، ويسأل النبي ﷺ أن يوجهه إلى عمل يقوم به في صفوف الأحزاب، فَسُرَّ النبيُّ ﷺ بإسلامه، وقال: إنما أنت رجلٌ واحدٌ، فخذّل عنا بما استطعت.

وهنا خرج نعيم بن مسعود يباشر براعته في أمثال هذه المواقف، وفي السعي بين الناس، كما سعى من قبل بين المسلمين وبين قريش لما استعمله أبو سفيان، فقد خرج إلى بني قريظة الذين كان له ودٌّ معهم، فلما دخل عندهم أبدى لهم نصحًا، وقال: تعرفون ودّي لكم؛ ثم تحدث معهم عن أمرهم الذي فعلوا، ولكأنه قبح ذلك الأمر لهم، وحذرهم منه، وقال: أنتم لستم كقريش، وغطفان، والأحزاب، فإن هؤلاء أصحاب فرصة، إذا وجدوها انتهزوها، وإن لم يجدوها عادوا إلى بلادهم وتركوكم مع الرجل، فأنتم تساكنونه في بلده، فماذا يكون الأمر بعد أن يرجع الأحزاب وقريش إلى بلادهم ويتركونكم؟ إذا لم يحاربوه، فقالوا له: بماذا تشير علينا؟ فعرض عليهم ألا يدخلوا القتال حتى يأخذوا رهنًا من قريشٍ، ومن الأحزاب، وقال لهم: حتى تضمنوا بهؤلاء الرهن أن سوف يقاتلون معكم، حتى يستأصلوا محمدًا وأصحابه. وخرج وذهب إلى أبي سفيان، وقال له: إن "بني قريظة" ندموا على ما فعلوا مع محمد، وعزموا على أن يكفروا عن خطئهم معه، بأن يأتوه برجالٍ منكم حتى يضرب أعناقهم فيكفروا بذلك عن خطأهم الذي فعلوا، وإذا بعثوا لكم على رهن منكم، فلا تعطوهم، فإنهم سوف يذهبون بهم إلى محمد ليقتلهم.

هنا أخذ أبو سفيان هذا الكلام مأخذ الجد، وبعث إلى "بني قريظة" يقول لهم: لقد هلك الخف والحافر -أي: الإبل والخيل، وأصبحنا بغير دار مقام، وأصابنا

من البرد والشتاء ما أصابنا ولم نفعل شيئًا، وهنا عرض عليهم أن يخرجوا للقتال معهم حتى يتمكن الأحزاب من هزيمة المسلمين إذا دخلت معهم بنو قريظة، ولما عرض عليهم ذلك قالوا له: إن أمرنا ليس كأمركم، وإنا لن نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا منكم نضمن بهم أنكم ستواصلون القتال حتى تنتهوا من محمد وأصحابه.

ولكن لما رجع القوم إلى أبي سفيان، عرفوا بأن ما ذكره لهم نعيم بن مسعود عن اليهود إنما هو حقيقة، وقالوا: لقد صدقكم نعيم، وهكذا قال اليهود حين رفض هذا الوفد ما طلبوا من رهن لهم.

كذلك ذهب نعيم إلى قومه غطفان ناصحًا لهم، وقال لهم ما قاله لقريش، ولليهود، وأن اليهود لن يقاتلوا حتى يأخذوا الرهن. وبذلك وقعت الفتنة بين الأحزاب جميعهم.

جنود الله تتنزل للمشركين، ومجيء حذيفة

وفي هذه الحال الشديدة البرودة والريح العاصفة، أراد النبي ﷺ أن يعرف ما عليه حال المشركين؛ فطلب ﷺ مَنْ يخرج إليهم يتعرف له أمرهم، فنادى في الناس: ((مَنْ رجلٌ يذهب فينزل في القوم فيعرف لنا أخبارهم أضمن له الرجعة، يكون رفيقي في الجنة؟)) ومع هذا الإغراء في الجزاء، فإن أحدًا لم يقم ليقوم بهذه المهمة. ولكنهﷺ كرر هذا العرض حتى يقوم أحد، ولكن من شدة الفزع، والبرد فإن أحدًا لم يجب لهذا، وفي مرور النبي ﷺ رأى رجلًا محتميًا بردائه فقال: مَنْ؟ قال: حذيفة. قال: قُم. فلم يسع حذيفة إلا أن يقول: قم، فانزل، فاذهب، فانزل في الناس، وتعرف أمرهم، ولا تحدث شيئًا حتى ترجع.

وهنا خرج حذيفة لهذا الأمر، فألقى الله في قلبه إيمانًا وثباتًا، وإقبالًا على الأمر، وأضفى على جسده دفئًا، يقول: ذهبت فنزلت في القوم، فإذا جنود الله تفعل بهم أفاعيلها، تقلب قدورهم، وتطيح بخيامهم، وتطفئ نيرانهم، وسمعت أبا سفيان يقول: أيها الناس لقد أصبحنا بغير دار مقام، وقد أخلفتنا بنو قريظة، ولا آمن أن يكون بيننا بعض رجال محمد، فلينظر كل رجل منكم من جليسه، وهنا يبادر حذيفة بنور الإيمان، فيأخذ بيد الرجل، فيقول: من الرجل؟ فلكأنه من قريش ويسأل ليطمئن؛ حتى لا يبادر جليسه بسؤاله، وهذه فطانة من هذا الصحابي الجليل، يقول حذيفة: ولقد رأيت أبا سفيان يقول للناس بعد أن قال لهم ذلك: أما إني مرتحلٌ، وعائدٌ إلى مكة، فأمرهم بالرجوع.

ثم عاد حذيفة يذكر للنبي ﷺ أمر هؤلاء المشركين.

انصراف الأحزاب

رجعت قريشٌ إلى مكة بعدما انفرط عقد الأحزاب. ورجع المسلمون إلى "المدينة"، وقد نجاهم الله ﷻ من هذه المحنة التي ألمت بهم.

ورجع المسلمون إلى "المدينة"، وقد نجاهم الله ﷻ من هذه المحنة، والتي اجتمع لها أعداء الإسلام كلهم في وقت واحد ومكان واحد عشرة آلاف من الحانقين على هذا الدين العظيم من المشركين واليهود: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢]، ومن الأعراب الأشد كفرًا ونفاقًا، ولكن الله ﷻ خيب آمالهم جميعًا وردهم على أعقابهم: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

هذه الغزوة التي جمع الحقد فيها هذه الجموع كلها على المسلمين، نزلت بها سورة سميت باسمها "سورة الأحزاب".

غزوة بني قريظة، وغزوة بني المصطلق

عناصر الدرس

العنصر الأول	: سبب غزوة بني قريظة، واستعداد المسلمين لها	٢٠١
العنصر الثاني	: موقف النبي ﷺ من بني قريظة وإسلام بعضهم	٢٠٢
العنصر الثالث	: الجزاء الذي نزل ببني قريظة، وطلب تحكيم سعد بن معاذ فيهم	٢٠٢
العنصر الرابع	: تطهير المدينة من آخر جماعات اليهود، وخلوصها للإسلام	٢٠٣
العنصر الخامس	: سبب غزوة بني المصطلق، ومباغتة المسلمين للأعداء، ومميزات هذه الغزوة	٢٠٤
العنصر السادس	: تقسيم سبيهم، وزواج النبي ﷺ من بنت شيخهم، وأثر ذلك	٢٠٦
العنصر السابع	: كثرة المنافقين في غزوة بني المصطلق، وسعيهم في الفتنة	٢٠٦
العنصر الثامن	: حكمة النبي ﷺ في معالجة الفتنة	٢٠٧

سبب غزوة بني قريظة، واستعداد المسلمين لها

عاد أبو حذيفة بن اليمان وأخبر النبي بأمر قريش ورجوعها إلى مكة، فاطمأن النبي ﷺ بذلك، وفي الصباح، عاد ﷺ إلى المدينة، ثم خلع لباس الحرب واغتسل، ولما جاء وقت الظهر جاء جبريل # وقال: وضعتم سلاحكم؟ فإن الملائكة لم تضع سلاحها، وإن الله ﷻ يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، وإني عامد إليهم فمزلزل بهم حصونهم؛ ولذلك نادى النبي ﷺ بلالًا وأمره أن يؤذن في الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكان اللواء لواء غزوة الأحزاب ما يزال معقودًا كحاله، فدفعه النبي ﷺ إلى عليٍّ وخرج آمرًا الناس: ((فإنه من كان سامعًا مطيعًا لا يصلين العصر إلا في بني قريظة)). حتى يحث الناس على المسير والإسراع إليهم.

بدأ الحصار لهذه القبيلة نحوًا من خمسة وعشرين يومًا، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، وكان حيي بن أخطب قد دخل مع بني قريظة في حصنهم؛ لأنه كان قد واعد كعب بن أسد أنه سيكون معه ينال ما يناله لو أن الأحزاب رجعوا من غير أن يقاتلوا محمدًا ﷺ، ولما اشتد الحصار على بني قريظة ورأوا أنه لا مجال للنجاة، قال كعب بن أسد: إن محمدًا لن ينصرف حتى ينجازكم، ولقد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالًا ثلاثًا فخذوا أيها شئتم، فقالوا، وما هي؟ قال: نتبع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. لكنهم أبوا هذا النصح في أول الأمر، ثم رجعوا عن ذلك.

موقف النبي ﷺ من بني قريظة وإسلام بعضهم

كان أناسٌ من بني قريظة نَجَّاهم الله بإيمانهم، فأسلموا في تلك الليلة التي نزلت فيها بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ، كذلك خرج رجل من بني قريظة لم يخن خيانتهم ولم يغدر غدرهم هو عمرو بن سعدى الذي مر بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد بن مسلمة، فلما رآه قال: "من هذا؟" قال: أنا عمرو بن سعدى، وكان أبى أن يدخل فيما دخل فيه بنو قريظة من الغدر برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبدًا، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام؛ ثم خلى سبيله، فخرج على وجهه حتى أتى باب مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلم يدر به أين توجه من الأرض ولم يعلم له مكان، فذكر أمره لرسول الله ﷺ فقال: ذاك رجل نجاه الله بوفائه.

الجزاء الذي نزل ببني قريظة، وطلب تحكيم سعد بن معاذ فيهم

لما نزل بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ يرجون منه ﷺ أن يقبل شفاعة الأوس فيهم؛ لأنهم كانوا حلفاءهم، وطمعوا في أن يجعل لهم رسول الله ﷺ مثل ما جعل لعبد الله بن أبي بن سلول في شفاعته في بني قينقاع، وكلم الأوس رسول الله ﷺ في هذا، فقال لهم: "ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟" قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: "فذاك إلى سعد بن معاذ".

فجيء بسعد لما طلبه النبي ﷺ وأقبلوا معه إلى رسول الله وهم يقولون لسعد: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد أنى لسعد ألَّا تأخذه في الله لومة لائم، فلما وصل سعد بن معاذ إلى حيث النبي ﷺ قال النبيﷺ: قوموا إلى سيدكم، فأما

المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله الأنصار، وأما الأنصار فيقولون: قد عم النبي ﷺ بكلامه، فقاموا إليه، ثم إنهم أحاطوا به فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، وعلى من هاهنا؟ مشيرًا إلى الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض إجلالًا له، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، فقال النبي ﷺ لما سمع ذلك: "لَقَدْ حَكَمْتِ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ"، أي سبع سماوات.

ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم جيء برجال بني قريظة أرسالًا، فكانت تضرب أعناقهم الجماعة بعد الجماعة، وجيء بعدو الله حيي بن أخطب وكذلك كعب بن سعد رأس بني قريظة فتم فيهم حكم الله ﷻ وكان بنو قريظة نحو من ستمائة أو سبعمائة كما في بعض الروايات. ولقد قُسم فيء بني قريظة أموالهم ونساءهم وأبناءهم على المسلمين.

تطهير المدينة من آخر جماعات اليهود، وخلوصها للإسلام

كان يوم بني قريظة هو تمام أمر غزوة الأحزاب، وكانت آخر الآيات التي نزلت في أمر هذه الغزوة كانت تتعلق ببني قريظة وما فعله الله بهم، قال ﷻ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

وبعد هذا النصر الذي وهبه الله للمسلمين على الأحزاب وعلى يهود بني قريظة خلت المدينة لأهلها ولدين الله الإسلام، بعد أن تكرر العداء والغدر من اليهود قبيلًا من بعد قبيل.

غزوة بني المصطلق وسببها، ومباغتة المسلمين للأعداء، ومميزات الغزوة

وبعد غزوة الأحزاب، بَشَّرَ النبيُّ ﷺ أصحابه بأن قريشًا لن تغزوهم بعد هذا، وإنما المسلمون هم الذين سوف يغزونهم في عقر دارهم، وكانت نبوءتهﷺ صادقة، وأقام ﷺ بالمدينة إلى أن خرج ﷺ في جمادى الأولى لِيُنْزِلَ الجزاء ببني لحيان الذين غدروا بأصحاب الرجيع، وكانت ديارهم متوغلة إلى حدود مكة، فسمعت بنو لحيان بأمر النبي ﷺ وقصده إياهم فهربوا في رءوس الجبال، ومن ثم لم يقدر على أحد منهم فسار إلى عسفان، ثم بعث فرسانًا إلى كراع الغميم لتسمع بهم قريش فيذعرهم ويريهم قوة الإسلام.

غزوة بني المصطلق، وسميت باسم آخر هو: غزوة المريسيع:

"المصطلق": هو جزيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة، وهم بطن من خزاعة، وسُمي جزيمة بالمصطلق، أما المريسيع فهو ماء لبني خزاعة، وكانت ديار بني المصطلق تتوسط ديار خزاعة، وكان موقعهم مهمًّا بالنسبة للصراع بين المسلمين وبين قريش.

ورغم أن خزاعة كانت عينًا للنبي ﷺ وموادة له؛ إلا أن بني المصطلق أخذوا جانب العداء من المسلمين، وكان أول ما فعلوه أنهم شاركوا قريشًا في غزوها المسلمين في أحد، ولما كانت المصالح التجارية التي حرصت عليها بنو المصطلق تمثل دافعًا من دوافع التعامل مع قريش، فإن بني المصلطق عملوا على أن يؤلبوا ضد المسلمين، ومن ناحية أخرى فإنه كان للعقيدة الوثنية التي كان عليها بنو المصطلق وهي عبادتهم لمناة؛ فإنهم كذلك كرهوا الإسلام لذلك.

سبب الغزوة: وسبب هذه الغزوة أن الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق جمع لحرب رسول الله ﷺ مَن قدر عليه من قومه ومن العرب، لعله خشي انتقام النبي ﷺ لمواقف بني المصطلق من المسلمين ومؤازرتهم لقريش، ولما علم النبي ﷺ بأمرهم بعث بريدة ابن الحصيب الأسلمي حتى يقف على أمرهم، فنزل بريدة بينهم ووجدهم قد تألبوا وجمعوا الجموع، فأوهمهم أنه جاء ليشترك معهم ضد المسلمين؛ ولذلك وقف هذا الرجل على حقيقة أمر بني المصطلق وعاد ليخبر النبي ﷺ الذي أسرع ليرد على هذه الجموع قبل أن يستفحل خطرهم.

خرج النبي ﷺ إليهم في شعبان من السنة السادسة للهجرة، وقد استعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، ويُقال نميلة بن عبد الله الليثي، ومضى ﷺ يقصد ديار بني المصطلق التي اجتمعوا فيها تحت زعامة قائدهم وشيخهم الحارث بن أبي ضرار أبي جويرية بنت الحارث التي تزوجها النبي ﷺ بعد ذلك، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم وهو المريسيع وهو من ناحية قديد إلى الساحل، وتزاحم الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وقتل منهم من قتل، وسبى النبي ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم، وأسر كثيرين من رجالهم؛ لأنه ﷺ غزاهم كما يقول البخاري: وهم غارون، أي: غافلون، وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث > التي تزوجها فيما بعد.

وهنا نجد بأن النبي ﷺ فاجأهم وباغتهم بغزوه من غير إعلان لهم؛ لأن دعوة الإسلام كانت قد بلغتهم؛ ولأنهم كذلك حاربوها مع قريش وجمعوا بعد ذلك لحرب المسلمين من جمعوا في هذه الغزوة.

تقسيم سبيهم، وزواج النبي ﷺ من بنت شيخهم، وأثر ذلك

ويذكر الواقدي أن عدد القتلى من بني المصطلق كان عشرة، وأن سائرهم قد وقع في الأسر فما أفلت منهم إنسان، ويذكر كذلك أن الغنائم كانت ألفي بعير وخمسة آلاف شاه، وأن السبي كانوا مائتي أهل بيت، وروي أن السبي أكثر من سبعمائة، وعاد النبي ﷺ بعد أن من الله عليه بهذا النصر وأذل هذا العدو الذي اجتمع لحرب الإسلام والمسلمين على هذا النحو والله أعلم.

كثرة المنافقين في غزوة بني المصطلق، وسعيهم في الفتنة

كثر المنافقون في هذه الغزوة، فقد خرج معهم شيخهم ورأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، وقد استغل موقفًا عارضًا بين رجلين: أحدهما من الأنصار، وآخر كان أجيرًا لعمر بن الخطاب من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود، فازدحم الرجلان على الماء، فكسع -كما يقولون- جهجاه هذا الأنصاري برجله، فنادى: يا للأنصار، ثم نادى جهجاه بقوله: يا للمهاجرين، وهنا سمع النبي ﷺ ذلك، فقال: "دعوها فإنها منتنه"، أي: دعوى الجاهلية، النداء لتأليب الناس على بعضهم.

ولما سمع عبد الله بن أبي بن سلول هذه المناداة، فاستغلها ليحدث فتنة بين المسلمين، وقد أساء القول عن الرسول ﷺ، وكان قريبًا من عبد الله بن أبي بن سلول غلام من المسلمين، هو زيد بن أرقم الذي مشى إلى النبي ﷺ يخبره بكلام عبد الله بن أبي بن سلول، ولما سمع عمر بن الخطاب > ذلك قال: يا رسول الله، مُر به عباد بن بشر فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: "يا عمر فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا، ولكن آذن بالرحيل".

وهنا مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه مقالة زيد للنبي ﷺ وأنه بلغ الرسول ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، وكان هذا الرجل شريفًا عظيمًا في قومه، فقال مَنْ حضر رسول الله ﷺ من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، يحرصون بذلك على أمر ابن سلول لأن ما نقله زيد كان عظيمًا في أمر النبي ﷺ.

حكمة النبي ﷺ في معالجة الفتنة

وهنا أمر النبي ﷺ بالمسير، وكان ذلك في ساعة لم يألفها أصحابه من ساعات المسير التي كان يأذن فيها النبي ﷺ ولكنه كان لبالغ حكمته ﷺ أراد أن يعالج هذه الفتنة وأن يأدها في مهدها؛ ولذلك خرج ﷺ وسار بالناس في ذلك الوقت يومهم ذلك الذي ساروا فيه حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم التالي حتى آذتهم الشمس، ثم أذن بالنزول، فنزل الناس وقد أجهدهم المسير والتعب، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نيامًا.

وهكذا نرى هذه الحكمة السامية من فعله ﷺ ليشغل الناس عن هذا الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي بن سلول.

ولما وصل الركب إلى مشارف المدينة هنا وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ينتظر مجيء أبيه، وهنا قال له: والله لا تدخل المدينة حتى يأمر لك رسول الله ﷺ فرسول الله الأعز وأنت الأذل، وهنا هدأ النبي ﷺ كذلك من خطورة هذا الموقف بين الابن وأبيه، وسمح لعبد الله بن أبي بن سلول أن يدخل المدينة، وكان في هذا أبلغ الرد إذ جعل الله من صلب هذا المنافق من يدفع عن رسول الله ﷺ قالة السوء التي قالها هذا الرجل.

حادثة الإفك وملاحظات على غزوة بني المصطلق، و صلح الحديبية

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	من الأمور التي ارتبطت بغزوة بني المصطلق: حادثة الإفك، وشيوع نبأ الكذب بين الناس، ودور ابن سلول فيه، وموقف المسلمين منه، ومراجعة النبي ﷺ لعائشة، وحدُّ من خاض في الحديث إلا ابن أبي سلول	٢١١
العنصر الثاني	:	من الآداب التي علمها القرآن للمؤمنين خلال الأحداث السابقة، ملاحظات على غزوة بني المصطلق	٢١٥
العنصر الثالث	:	صلح الحديبية	٢١٨
العنصر الرابع	:	النزول بالحديبية، ومجيء رسل قريش إلى النبي ﷺ ورسل المسلمين إلى قريش، وموقفها منهم، وشيوع نبأ مقتل عثمان، وبيعة الرضوان، ووقوع الصلح، وموقف المسلمين منه	٢٢٠
العنصر الخامس	:	بنود الصلح، وتطبيقها في رد أبي جندل	٢٢٣
العنصر السادس	:	نزول سورة الفتح وتسميتها صلح الحديبية: فتحًا	٢٢٤
العنصر السابع	:	نتائج صلح الحديبية، وأمر أبي بصير واستفحال خطره	٢٢٥
العنصر الثامن	:	استثناء المهاجرات من هجرة المسلمين من مكة، وحكم القرآن في الإمساك بعصم الكوافر، و كتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، والدعوة العامة إلى الإسلام، وأثر ذلك	٢٢٩

من الأمور التي ارتبطت بغزوة بني المصطلق: حادثة الإفك، وشيوع نبأ الكذب بين الناس، ودور ابن سلول فيه، وموقف المسلمين منه، ومراجعة النبي ﷺ لعائشة، وحد مَن خاض في الحديث إلا ابن أبي سلول

ارتبط بغزوة بني المصلق أمرٌ خطير، هو حادث الإفك الذي تزعم أمره عبد الله بن أبي بن سلول لما ألحق الأذى بعائشة > والمسلمين جميعًا:

وحاصل ذلك: أن النبي ﷺ كما عرفنا قد خرج بعائشة معه في هذه الغزوة بعد أن أقرع بين نسائه، وتحكي السيدة عائشة هذا الأمر فتقول: أنهم -أي: الرجال- كانوا يحملون هودجها، ويأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به -وكانت عائشة في هذه السن خفيفة الوزن- فقالت: أنها لما فرغ رسول الله ﷺ من سفره وجه قافلًا، حتى إذا كان قريبًا من المدينة نزل منزلًا فبات فيه بعض الليل، ثم أذَّن المؤذن في الناس بالرحيل، تقول: فارتحل الناس وخرجت لبعض حاجتي، وكان في عنقها عقد لما فرغت من أمرها انسلَّ من عنقها. تقول: لم تدر به، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت لتلتمسه في عنقها فلم تجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، ولكنها رجعت إلى مكانها تلتمس عقدها.

فلما عادت بعد أن وجدته وجدت الناسَ قد مضوا في طريقهم، تقول: فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو افتقدت لرجع الناس إلي، قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته، ولما رأى سوادي أقبل حتى وقف عليَّ، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني استرجع ثم قال: ظعينة رسول الله ﷺ وهي متلففة في ثيابها، ثم قال: ما خلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته. ثم إنه

قرب إليها البعير فركبت، واستأخر عنها حتى تركب، ومضى منطلقًا يطلب الناس. تقول عائشة: فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي بعيره، فقال أهل الإفك لما رأوا ذلك قالوا ما قالوا، وارتج العسكر، فوالله ما أعلم بشيء مما قيل؛ لأن ابن سلول قال كلمة الإفك والعياذ بالله، قال: والله ما نجى منها وما نجت منه، وهنا انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى بيت أبي بكر، وكانوا يذكرون شيئًا لعائشة > إلا أنها قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بها، فكانت إذا اشتكت تقول: رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلكﷺ بها في شكواها تلك، ولذلك أنكرت ذلك منه، كان إذا دخلﷺ عليها وعندها أمها تمرضها يقول: ((كيف تيكم))، أي: كيف هذه، لا ينطق باسمها ولا يزيد على ذلك، قالت: حتى وجدت في نفسي، فقلت: يا رسول الله -حين رأيت ما رأيت من جفائه- لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني، قال: ((لا عليك))، قالت: فانقلبت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان حتى برئت من وجعي الذي كنت فيه بعد بضع وعشرين ليلة.

علم السيدة عائشة بالأمر، وموقف الرسول ﷺ والمسلمين منه:

خرجت السيدة عائشة في ليلة من الليالي مع أم مسطح بن أثاثة لحاجاتهن؛ حيث كانت النساء يخرجن في كل ليلة في حوائجهن.

فعلمت السيدة عائشة بالأمر من حديث الناس، فرجعت بيتها ولم تقض حاجاتها. وهنا عرفت عائشة لماذا جفاء رسول الله ﷺ بها.

تقول: إن رسول الله ﷺ قام في الناس فخطبهم، ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ((أيها الناس، ما بال رجال يؤذنني في أهل بيتي، ويقولون عليهم غير الحق، ووالله ما علمت عليهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما

علمت منه إلا خيرًا، ولا يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي))، قالت: وكان كِبْر ذلك كله عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج، مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش وكذلك حسان بن ثابت.

واستشار رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وعليّ بن أبي طالب، فقالوا خيرًا في حق عائشة، وهكذا كانت كل أقوال المؤمنين الصادقين، وقال علي: يا رسول الله، سَل الجارية تصدقك، فجيء بالجارية "بريرة" ولما سئلت قالت: والله ما أعلم عنها إلا خيرًا، وأثنت عليها.

النبي ﷺ يراجع السيدة عائشة فيما أشيع، والوحي ينزل ببراءتها:

دخل النبي ﷺ على عائشة فقال لها، وكان عندها أبواها وامرأة من الأنصار كانت تبكي معها، فجلس النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ((يا عائشة، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس -ولعل النبي ﷺ عرف بأمرها بعد أن عرفت من أم مسطح- فإن كان فاتّقِ اللهَ، وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس فتوبي إلى الله؛ فإن الله يقبل التوبة عن عباده)) قالت: فوالله إن هو إلا أن قال هذا حتى قلص دمعي -أي: احتبس- حتى ما أحس منه شيئًا، وانتظرت أبوي أن يجيبَا عني رسول الله ﷺ فلم يتكلما، قالت: وايم الله، لأَنَا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأنًا من أن ينزل الله فيَّ قرآنًا، ويصلى به، ولكني كنت أرجو أن يرى النبي ﷺ في نومه شيئًا يكذب الله به عني؛ لما يعلم من براءتي ويخبر خيرًا، وأما قرآن ينزل فيَّ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك.

قالت: فلما لم أرَ أبويَّ يتكلمان، قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ فقالا: والله ما ندري بما نجيبه، قالت: فوالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل أبي

بكر في تلك الأيام، ثم قالت: فلما استعجما عليَّ استعبرت -أي: لما لَمْ يتكلمَا نيابةً عنها، استعبرت فبكت- ثم قالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبدًا يا رسول الله، والله إني لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس والله يعلم أني منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني، قالت: ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، ولكني سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه ووضعت وسادة من أدم تحت رأسه، فأما أنا حينما رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت وما باليت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وقالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ فجلس وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شاتٍ، فجعل يمسح العرق -الذي كان يتغشاه من شدة الوحي- عن وجهه ويقول: ((أبشري يا عائشة، قد أنزل الله ﷻ براءتك))، قالت: قلت: الحمد لله.

إقامة الحد على من خاض في حديث الإفك، وإعفاء عبد الله بن أبي بن سلول من إقامة الحد عليه:

ثم خرج إلى الناس فخطب وتلا عليهم القرآن الذي أنزل الله، فأمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فحدوا حد القذف ثلاثتهم.

وهنا نشير بأن من تولى كبر هذا هو عبد الله بن أبي بن سلول، تقول الروايات عنه: إنه لم يحد في هذا حتى يلقى الله بجرمه وإثمه، فإنه لو حد لكان الحد فيه نوع من العفو من الله ﷻ؛ لأنه نال جزاءه في الدنيا، ولقد نزل في هذا الأمر -حادث

الإفك- آيات من سورة النور التي برَّأ الله فيها عائشة > ومن هذا قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١]، فالذي تولى كبر هذا كله هو عبد الله بن أبي بن سلول.

الآداب التي علمها القرآن للمؤمنين خلال هذه الأحداث، ملاحظات على غزوة بني المصطلق

نزل القرآن الكريم في هذا الأمر يُعلم المسلمين أن يلتزموا جانب الحق والصواب؛ يقول تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١٤ - ١٨].

ثم تمضي الآيات وتتوعد أولئك الذين أشاعوا هذه الفاحشة في بيت رسول الله ﷺ؛ يقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ١٩، ٢٠].

وهنا أقسم أبو بكر بعد هذا، وكان يحسن ويعطي مسطح بن أثاثة صدقات كان يعطيه إياها، فلما وقع ذلك منه في حق ابنته، وسعى فيه أقسم لا يعطيه أبدًا، فنزل قول الله ﷻ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

هنا نرى تأديب الإسلام وتأديب القرآن للمؤمنين، ينالهم ما ينالهم ولا يكون ردهم إلا خيرًا.

ب. ملاحظات على غزوة بني المصطلق:

أولاً: أن المنافقين -ولأول مرة- يكون لهم هذا الخروج بهذه الكثرة، وتحت هذه الزعامة المنافقة الكافرة، زعامة شيخهم عبد الله بن أبي بن سلول، فخرجوا في هذا السفر وكانوا من قبل في أُحد وفي الأحزاب، ففي الأولى رجعوا من الطريق ولم يكن لهم شرف المساهمة في هذه الموقعة التي كانت على حدود المدينة، وكذلك كان أمرهم بعدها شماتة في المسلمين وفيمن أصيب منهم، أما مصابهم في ذويهم من المؤمنين، فقد تلقوها بعدم التسليم لأمر الله وقبول الابتلاء، بخلاف تقبل المؤمنين لقضاء الله في أنفسهم وفي ذويهم، وآيات سورة آل عمران تشهد بهذا، وفي الأحزاب رأينا أمرهم في تسللهم وقولهم في أمر النبي ﷺ ووعده إياهم بالفتوح: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢]، إلى غير ذلك من الآيات التي بينت أمر هؤلاء، وأنهم لم يكن لهم نصيب في الخير.

أما هنا فقد خرجوا طمعًا في الدنيا، ولا نراهم خرجوا مع النبي ﷺ بجمعهم هذا، وإنما خرجوا مع عبد الله بن أبي بن سلول.

ثانيًا: الكلام السيئ الذي سمعه زيد بن أرقم من عبد الله بن أبي بن سلول، أو قالة السوء التي قالها في حق النبي ﷺ وحق المهاجرين، يدل على أنهم كانوا جميعًا معًا، لا يفارقون أنفسهم، ولا يدخل بينهم مؤمن؛ لأنه ما كان يمكن أن يتكلم ابن سلول هذا الكلام في حق المهاجرين وحق النبي ﷺ وبينهم رجل مؤمن، وهذا ما يدلنا على أنهم كانوا جميعًا مجتمعين معًا، ويسيرون ويتحدثون

معًا، وما كان يظن هذا الرجل أن هذا الغلام صغير السن يمكن أن يلتقط كلامه وأن ينقله، ولكنه كان أُذن خير نقلت أمر هؤلاء للنبي ﷺ حتى تظهر الحكمة منه ﷺ حينما كان لا يحب خروجهم معه، وحينما كان يستأذنه بعضهم فيأذن له.

ثالثًا: أن خروجهم لم يكن إلا للدنيا، ولانتهاز الفرص التي توقع الفتنة بين المؤمنين، وقد رأينا كيف اجترأ هؤلاء على النبي ﷺ وقالوا قالة السوء فيه وفي المهاجرين، وكذلك ما قالوه كذلك في حق النبي ﷺ وفي حق عائشة.

وهنا نرى حلم رسول الله ﷺ على أمثال هؤلاء.

تقسيم الأسرى، وزواج النبي ﷺ من أم المؤمنين جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، وأثر ذلك في إطلاق المسلمين من بأيديهم من الأسرى:

أصاب رسول ﷺ سبيًا كثيرًا فقسمه في المسلمين، وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار زوج رسول الله ﷺ، وجاءت جويرية إلى رسول الله ﷺ بعد أن وقعت في سهم ثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها؛ لأنها بنت سيد في قومه، وجاءت للنبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: ((فهل لك في خير من ذلك؟))، قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: ((أقضي عنك كتابتك وأتزوجك))، قالت: نعم يا رسول الله، قالت: قال قد فعلت.

هكذا ساقها الله ﷻ في الأسر لتنال شرف أمومة المؤمنين.

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺوأرسلوا ما بأيديهم من السبايا

والأسارَى، ولقد أعتق الله بتزويجه ﷺ من جويرية مائتي أهل بيت من بني المصطلق، تقول عائشة: فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

وهناك رواية تقول بأن أباها الحارث بن أبي ضرار جاء إلى النبي ﷺ بفداء ابنته، وقال: يا محمد، أصبتم ابنتي وهذا فداؤها، ثم لما دفع فداءها خطبها النبي ﷺ بعد أن أسلم الحارث وأسلم معه ابنان من أولاده، وناسٌ من قومه، وحسن إسلام هؤلاء، ودفعت إليه ابنته جويرية فأسلمت وحسن إسلامها، وخطبها النبي ﷺ إلى أبيها، فزوجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم ﷺ.

صلح الحديبية

رأى النبي ﷺ رؤيا خير، أنه هو وأصحابه دخلوا مكة وطافوا بالبيت الحرام محلقين مقصرين لا يخافون، فلما قص ذلك على أصحابه، اشتاقوا إلى هذا الخروج، وأذاع ﷺ هذا بين الناس، واستنفر من حول المدينة من الأعراب حتى يخرجوا معه في جمع تخشاه قريش؛ لأنه ﷺ كان يخشى قريشًا على أصحابه؛ ولذلك فإنه ﷺ خرج في شهر حرام حتى يأمن الناس ويأمنه الناس، فلا يظنوا أنه خرج لحرب.

وخرج معه ﷺ ألف وأربعمائة من المسلمين قاصدًا مكةَ، ومضى ﷺ بعد أن أحرم من ذي الحليفة، وقلد البدن والهدي، ومضى الجميع في طريقهم إلى مكة معتمرين.

ويعرف هذا الخروج بـ"غزوة الحديبية" التي كانت في السنة السادسة للهجرة في ذي القعدة منها، وكانت هذه أول خروجة بعد غزوة الأحزاب توجهًا إلى مكةَ بهذا الجمع، وكانت لخير وتعظيم للبيت ولحرمته. وقد اختار النبي ﷺ شهرًا من أشهر الحج حتى يصحح معتقدَ الناس الذين كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور؛ ولذلك كانت عُمَرُه ﷺ في شهر ذي القعدة.

سار النبي ﷺ بأصحابه وأخذ في الاحتياط، فكانت معهم السيوف في قربها؛ فربما تغدر بهم قريش، وقد بعث النبي ﷺ بسر بن سفيان الخزاعي أمامه ليرتاد الطريق، فلما وصل النبي ﷺ إلى عُسْفَان وهي منزل من منازل الطريق بين الجحفة ومكة لقيه بسر بن سفيان الخزاعي، وأخبره بخروج قريش التي علمت بأمره ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: ((يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؟، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش أني فاعل؟، فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة -أي: الموت-)). ثم قال ﷺ: ((مَن رجل يخرج بنا على طريق غير طريق القوم التي هم عليها؟)).

فقال رجل: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقًا وعرًا أجرلَ -أي: صعبًا، كثيرَ الحجارة- بين شعاب، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين، فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله ﷺ: ((قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه))، فقالوا ذلك، فقال: ((والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها)).

ولما رأى المشركون أن المسلمين خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش ليخبروهم بأمر النبي ﷺ وأنه سلك طريقاً آخر، ولما وصل المسلمون إلى قريب من الحديبية، بركت ناقة النبي ﷺ القصواء، فقال الناس: خلأت الناقة -أي: حرنت- ولكن النبي ﷺ قال: ((ما خلأت القصواء وما كان لها هذا بخلق، إنما حبسها حابس الفيل عن مكة)).

ولقد نزلت قريش في بلدح -وهو واد بمكة شمالي الحديبية- وسبقوا المسلمين على الماء في هذا الوادي، وهنا لما أمر النبي ﷺ الناس بالنزول؛ لأنه رأى ﷺ أن هذا إيذان من الله ﷻ ألا يتابعوا المسير، كما بركت الناقة في موضع المسجد أول يوم دخوله المدينة ﷺ وقال: ((ها هنا المنزل إن شاء الله))، كذلك لما بركت الناقة رأى النبي ﷺ أن في هذا توجيهًا للمسلمين أن ينزلوا في هذا المكان، فأمر النبي ﷺ أن ينزلوا، وهنا قال الناس: يا رسول الله، إنه ليس هناك ماء حتى يقوم بأمر الناس، وكانت هناك بئر فيها قليل من الماء، وهنا حدثت من معجزات النبي ﷺ حينما أخرج سهمًا من كنانته، وأمر مَن ينزل بالبئر حتى يغرسها فيه، فنزل ناجية بن جندب سائق البدن للنبي ﷺ، فنزل فجاشت البئر بالماء وشرب الناس، وسقوا دوابهم وكفاهم الماء.

النزول بالحديبية، ومجيء رسل قريش إلى النبي ﷺ ورسل المسلمين إلى قريش، وموقفها منهم، وشيوع نبأ مقتل عثمان، وبيعة الرضوان، ووقوع الصلح، وموقف المسلمين منه

نزل النبي ﷺ والمسلمون الحديبيةَ لأمر الله ﷻ الذي أراد، وهاهم ما وجدوا عوزًا في ماء، فقد سقاهم الله وأسقاهم من فضله، وببركة الله، وبركة نبيه ﷺ وإن المسلمين في مقامهم هذا أهداهم عمرو بن سالم وبسر بن سفيان الخزاعيان غنمًا وجزورًا، فَرَّقها النبي ﷺ في الناس، وأقام النبي ﷺ في هذا المكان.

وبعثت قريش أكثر من رسول إلى النبي ليستطلعوا منه حقيقة خروجه ﷺ، فأخبرهم ﷺ أنه لم يأتِ يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيت، ومُعظمًا لحرمته، وفي كل مرة كان رسول قريش يرجع إليهم ويخبرهم بحسن نوايا المسلمين وأنهم ما جائوا إلا زائرين للبيت.

رسل النبي ﷺ إلى قريش وموقفها منهم، وشيوع نبأ مقتل عثمان بمكة، وبيعة الرضوان، ووقوع الصلح:

دعا النبي ﷺ خراشة بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش يخبرهم بأمر النبي ﷺ وحمله على بعير له يقال له: الثعلب. وهذا فيه دَلالة أنه بعير سباق حتى ينجو به إذا ناله أذًى منها، فخرج خراش حتى وصل مكة، ولما رأوه قاموا به، فعقروا البعير وأرادوا قتله، ولكن الأحابيش منعتهم، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ.

ولقد قامت قريش قبل هذا ببعث فريق منهم يطوفون بعسكر النبيﷺ يرمون بالحجارة والنبل ليصيبوا لهم من أصحابه أحدًا، ولكن المسلمين أمسكوا بهم، وأَتَوْا بهم إلى رسول الله ﷺ ولكنه ﷺ عفا عنهم.

وهنا نرى فعل النبي ﷺ حتى بمن اعتدَى منهم، فشتان شتان بين فعل هؤلاء الكفار، وفعل النبي ﷺ.

وأراد النبي ﷺ بعد ذلك أن يبعث رجلًا له شأنه من أصحابه، فدعاﷺ عثمان بن عفان > فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم بمجيء النبي ﷺ وأنه لم يأتِ لحرب، وإنما جاء زائرًا للبيت مُعظمًا لحرمته، فخرج عثمان حتى وصل مكةَ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص وهو ذو قرابة منه، فأجاره حتى دخل مكة، وحمله بين يديه.

ولما جاء عثمان أبا سفيان وعظماءَ مكةَ، وبلغهم رسالة النبيﷺ، قالوا له: إن شئتَ أن تطوف بالبيت فَطُفْ، ولكن عثمان أَبَى، وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول اللهﷺ ومكث عثمان في مكة أيامًا حتى شاع بين المسلمين أنه قد قُتِلَ. وهنا قال النبي ﷺ: ((لئن كان عثمان قد قتل، فوالله لا نبرح حتى نناجز القوم)).

ثم دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة -بيعة الرضوان- وكانت تحت الشجرة، وهنا جاء رسول الله ﷺ أن الخبر غير صادق وإنما أشيع هكذا، وأن عثمان حي.

ثم إن قريشًا بعد هذا أرسلت سهيل بن عمرو في جماعة، وقالوا: ائت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة، فأتاه سهيل، ولما رآه النبي ﷺ مقبلًا قال: ((قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل))، فلما انتهى سهيل إلى النبي ﷺ وتفاوض في الكلام وفيما جاء به، جرى الصلح بعد مفاوضات في أمور تألم لها كثير من المسلمين؛ لأن النبي ﷺ وافق على أمور كثيرة، كان فيها استفزاز لمشاعر المسلمين حتى يعلم أهل مكة أنه جاء يريد الخيرَ والصلحَ، وكان في هذا رغبة منه ﷺ أن يبقي على قريش؛ لأنه ﷺ كان يحب ذلك، ولكنها كانت لا تحب الخير لنفسها ولا لغيرها.

هنا جاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أوَلسنا بالمسلمين؟، قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟، قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: ياعمر الزم غرزه -أي: الزم أمر النبي ﷺ- فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى بعد ذلك النبي ﷺ فقال مثلما قال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟، قال: ((بلى))، قال: أولسنا بالمسلمين؟، قال: ((بلى))، قال: فعلام نعطى الدنية في ديننا؟ قال النبي ﷺ: ((أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني الله))، قال: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأعتق مِن الذي صنعتُ يومئذٍ؛ مخافةَ كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا.

بنود الصلح، وتطبيقها في رد أبي جندل

انتهى الأمر بعد المفاوضة بين النبي ﷺ وبين سفير قريش سهيل بن عمرو، وتم الصلح الذي دعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب ليكتبه.

ونرى هنا حتى في كتابةِ وثيقة الصلح هذا العنتَ، وهذه اللجاجةَ من ممثل قريش سهيل بن عمرو، فلما جاء عليٌّ، قال له النبي ﷺ: ((اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم))، قال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ لعلي: ((اكتب: باسمك اللهم))؛ رضي هنا النبيﷺ لأنه لم يقل: اكتب باسم اللات، وإنما قال: باسمك اللهم، فرضي النبي ﷺ ثم قال النبي ﷺ لعلي: ((اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيلَ بن عمرو))، هنا قال سهيل: لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك، قال: فقال رسول الله ﷺ لعلي: ((هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحَا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضُهم عن بعض)). وكان هذا أول بنود الوثيقة.

الثاني: على أنه من أتَى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، كذلك وإن بيننا عيبة مكفوفة -أي: صدور منطوية على ما فيها لا تبدي عداوة- ثم قال: وإنه لا إسلالَ ولا إغلال -أي: لا اختلاس وسرقة، ولا خيانة- وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم، دخل فيه.

وكذلك كان من شروط الوثيقة أن يرجع النبي ﷺ عامه هذا، فيرجع ولا يدخل عليهم مكة، وأنه إذا كان العام القابل خرجنا عنك فدخلتها –أي: مكة-

بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا، معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها، وهنا وافق النبي ﷺ على كل الشروط.

وأشهد النبي ﷺ على كتاب الصلح بعد أن تم الاتفاق عليه رجالًا من المسلمين، ورجالًا من المشركي.

نزول سورة الفتح وتسميتها "صلح الحديبية": "فتحًا"

رجع المسلمون بعد هذا، وفي الطريق نزلت على رسول الله ﷺ سورة الفتح، يحكي عمر بن الخطاب > وهم في طريق العودة، أنه حاول أن يقترب من النبي ﷺ أو أن يفاتحه بكلام؛ حتى يزيلَ ما بصدر النبي ﷺ مما اعترض به عليه أو مما تكلم به عمر عندما تكلم متألمًا من شروط الصلح التي وافق عليها النبي ﷺ ولكن النبي ﷺ ما كان يرد عليه مرةً من بعد مرةٍ، حتى خشي عمر وخاف على نفسه، وتأخر لِمَا رأى من النبي ﷺ هذا الإعراض، أو الذي ظنه عمر إعراضًا من النبي ﷺ، ثم إن النبي ﷺ في ليله وهو في الطريق، نزلت عليه سورة الفتح التي سجلت أحداث هذا الصلحَ العظيمَ الذي سمَّاه الله "فتحًا"، فنادَى النبي ﷺ على عمر، ولما سمع عمر الهتاف باسمه في العسكر، خشي وخاف أن يكون أمر شر نزل به، ولكنه لما جاء إلى النبي ﷺ وما كان له إلا أن يأتِ- وجد البشرى في وجه النبي ﷺ وهو يقول له: ((لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها)).

كانت سورة الفتح هي التي أنزلها الله ﷻ في هذا المسير، والتي سجلت على هذا الأمر العاجل تنزل السورة في المسير قبل أن يرجع النبي ﷺ إلى المدينة، تبشر بفتح الله ﷻ وتسجل أحداث هذه الغزوة من أول أمرها إلى آخر أمره، من رؤيا النبي ﷺ وخروجه ﷺ وفَتْح الله عليهم، وأمر من تخلف من الأعراب عن النبي ﷺ.

ولما رجع النبي ﷺ وكان من أمر صلح الحديبية ما كان، قال رجال من أصحاب رسول الله ﷺ: ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصُد هدينا، فبلغ رسول الله ﷺ قول أولئك الناس، فقال: ((بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادكم، ويسألونكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رَأَوْا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله عليهم، وردكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح، أتنسون يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت الحناجر، وتظنون يالله الظنونا)).

فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتوح، والله ما فكرنا فيما فكرتَ فيه يا رسول الله، ولَأَنْتَ أعلم بالله وأمره منا.

ورجع المسلمون إلى المدينة فائزين برضوان الله ﷻ وقد حقق الله لهم بهذا الصلح ما تفرغوا لغيره من بعده. فكان أمر صلح الحديبية خيرًا عظيمًا من الله ﷻ ساقه إلى الإسلام والمسلمين.

نتائج صلح الحديبية، وأمرُ أبي بصير واستفحال خطره

نزلت سورة الفتح، وكان هذا الصلح المبارك فاتحة خير على الإسلام والمسلمين، رغم تشدد قريش عند كتابته، وعند تنفيذ شروطه، وما بدا من النبي ﷺ من تسامح وتساهل حتى تم هذا الصلح العظيم الذي اعتبر فتحًا من الله ﷻ؛ لأنه ترتب عليه الفتح الأكبر بعد ذلك:

١. فتح الأبواب التي كانت مغلقة أمام دعوة الإسلام.

٢. اعتراف قريش -لأول مرة- بقوة المسلمين والعمل على مفاوضتهم في أمس الأمور.

٣. أتاح هذا الصلح العظيم لكل مَن كان يتخفى بإسلامه، أو يخشى من قريش أن تعرف إسلامه ووده لمحمد ﷺ مثل خزاعة- سعةً من أمره؛ ولذلك في علانية أقبلت خزاعة على التحالف مع النبي ﷺ وأن تدخل في حزبه وحلفه، وهذا من أعظم الأمور التي ترتبت على هذا الصلح العظيم.

٤. أتاح هذا الصلح فرصة لكل ذي عقل أن يتعرف على الإسلام عن قرب، فكان ذلك سببًا في إسلام كثيرين.

٥. ساعد هذا الصلح على إشاعة دعوة الإسلام والتفرغ لتبليغها، فقام النبي ﷺ بإرسال الرسل يحملون كتب الدعوة إلى الملوك والأباطرة والأمراء، فخرجت الدعوة خارج الجزيرة العربية.

وقد دل ما تم بعد ذلك على بالغ حكمة الرسول ﷺ في تساهله مع قريش عند عقد الصلح.

فقد جاء رجل من المسلمين ممن كانوا بمكة، وهو أبو بصير- عتبة بن أسيد حليف بني زهرة- الذي أقبل مسلمًا على النبي ﷺ، ولم يلبث عند النبي ﷺ حتى بعثت بنو زهرة في طلبه، فكتبوا كتابًا ذكروا فيه الصلح الذي بينهم وبين رسول الله، وبعثوا به خنيس بن جابر من بني عامر ومعه مولى لهم، وطلبوا أن يرد إليهم أبا بصير، فخرج العامري هذا ووصل إلى النبي ﷺ بعد ثلاثة أيام من مقدم أبي بصير، ولما قرئ الكتاب على النبي ﷺ فإذا فيه: "قد عرفت ما شارطناك عليه من رد مَن قدِمَ عليك من أصحابنا، فابعث إلينا بصاحبنا".

فأمر النبي ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم ودفعه إليهما، فقال: يا رسول الله، تردني إلى المشركين يفتونني في ديني؟، فقال: ((يا أبا بصير، إنَّا قد أعطينا هؤلاء

القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجًا ومخرجًا))، فقال له الرسول ﷺ أن يصبر ويتجلد، والتزم أبو بصير بأمر رسول الله ﷺ وخرج مع الرجلين حتى وصل إلى ذي الحليفة عند الظهر، فصلى الظهر وجلس مع الرجلين ليأكلا، ثم إنه رأى سيف العامري وقد علقه في الجدار وتحادثا معًا، ونظر أبو بصير إلى السيف الذي علقه العامري في الجدار، فقال: أصارم سيفك هذا؟، قال: نعم، قال: ناولنيه أنظر إليه إن شئتَ، فناوله إياه، فلما قبض عليه أبو بصير ضربه به، فقتله، وهنا فَرَّ الرجل الثاني مسرعًا ولم يكن له ملجأ يأمن فيه من أبي بصير إلا رسول الله ﷺ ولذلك أخذ يعدو حتى دخل المسجد عند العصر والرسول ﷺ جالس مع أصحابه، فلما رآه النبي ﷺ قال: ((لقد رأى هذا الرجل ذعرًا))، ولما انتهى إليهﷺ قال: ((ويحك ما لك؟))، قال: قتل والله صاحبكم صاحبي، وأفلتُّ منه ولم أكد، واستغاث برسول الله ﷺ فأمنه.

وهنا أقبل أبو بصير ودخل متوشحًا السيف، فقال: يا رسول الله، قد وفت والله ذمتك، وأدى الله عنك وقد أسلمتني بيد العدو، وقد امتنعت بديني من أن أفتن، فقال رسول الله ﷺ: ((ويل أمه مسعر حرب -وفي لفظ: ((محش حرب)) أي: مسعر حرب ومهيجها. لو كان معه رجال))، وقدم أبو بصير بسلب العامري لرسول الله ﷺ ولكنهﷺ لم يقبله منه، وقال له: ((شأنك بسلب صاحبك، واذهب حيث شئتَ)).

وهنا لما قال النبي ﷺ لأبي بصير هذا الكلام، عرف أنه سيرده، فخرج متجهًا إلى ناحية الساحل إلى ناحية سيفِ البحر، ولما بلغ سهيلًا بن عمرو قتلُ أبي بصير العامري، اشتد عليه ذلك، وقال: ما صالحنا محمدًا على هذا، فقالت قريش له: قد برئ محمد منه.

لما بلغ المسلمين الذين حُبِسُوا بمكة -وهم كثير- أمر أبي بصير، تسلل كثيرون منهم من مكة متجهين مباشرةً إليه، ولم يذهبوا إلى المدينة؛ لأنهم كانوا يعلمون أن النبي ﷺ سوف يردهم.

وكان هذا الجمع الذي تمالأ واجتمع على طريق قريش وعيرها يُروعون قريشًا؛ حيث كانوا يترصدون كل قافلة تمر عليهم ذاهبةً أو عائدةً يقتلون مَن فيها ويحوزون القوافل وهؤلاء ليس لهم مَن يتحكم في سلوكهم، إنما هم أمراء أنفسهم لا سلطان بنص البيعة عليهم لأحد؛ ولذلك لما لم تجد قريش ثمرة الهدنة بأبي بصير ومن لجأ إليه، فبعثت تناشد رسولَ الله ﷺ وترجوه ألا يرد من جاءه من مكة مسلمًا، وتنازلت هي طواعيةً وراغمةً عن الشرط الذي تشدد وتعنت فيه سهيل بن عمرو كما رأينا.

هنا، كتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير وأبي جندل بن سهيل بن عمرو، يأمرهما أن يقدِمَا عليه، ويأمر مَن معهما ممن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم، فلا يتعرضوا لأحد مر بهم من قريش وعيراتها، وقد وصل كتاب رسول الله ﷺ وأبو بصير يجود بنفسه، فقد أدركه الكتاب عند موته، فجعل يقرأه ومات وهو في يديه، فدفنه أبو جندل مكانه، وقدم على رسول الله ﷺ ومعه ناس من أصحابه، ورجع سائرهم الذين كانوا من غير مكة إلى أهليهم، وأمِنت بعد ذلك عيرُ قريش لتفضُّلِ رسول الله ﷺ وَأَمْرِه المسلمينَ الذين تعرضوا لقريش وعيرها على طريق الساحل.

وهكذا عرفت قريش أن محمدًا ﷺ هو ملاذهم -بعد الله ﷻ في حل أمثال هذه المشكلات المعضلة.

وظهرت حكمة رسول الله ﷺ التي ظهرت منه عند الصلح، حكمة التسامح الذي بَدَا منه ﷺ، فهو ﷺ الذي ما ينطق عن الهوى وما يفعل ولا يعمل إلا بأمر الله ﷻ إن هو إلا وحي يوحى.

استثناء المهاجرات من هجرة المسلمين من مكة، وحكم القرآن في الإمساك بعصم الكوافر، وكتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، والدعوة العامة إلى الإسلام، وأثر ذلك

أمر المهاجرات وحكم الله فيهن، والحكم في الإمساك بعصم الكوافر:

وهنا كان لا بد لأمر أن يستثنى من هجرة المسلمين من مكة وهو: أمر المؤمنات اللائي هاجرن فرارًا بدينهن من مكة، وجاء ذووهن يطلبوهن.

ومثال ذلك هجرة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط إلى المدينة مسلمة، فتبعها أخواها ليستردها بشروط صلح الحديبية، ولكن رسول الله ﷺ أبى من ذلك؛ لأن الله ﷻ منع هذا الأمر بنص قرآني، وبَيَّنَ أن المهاجرات المسلمات أمرهن غير الرجال؛ فنزلت سورة الممتحنة تحدد هذا الأمر الذي أخرج النساء من أمر شرط الرد لقريش، وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [الممتحنة: ١٠، ١١]:

يُمتحن في دينهن وإيمانهن بالله ﷻ حتى يثبت أنها ما خرجت إلا لتكون في عافية من أمر دينها، كذلك فإن الحكم الذي تَبَيَّنَ من هذه الآيات أن المؤمنة لا تحل لكافر: ﴿ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾، ولا لمن هو أقل منها في الدين، وكذلك المسلم فلا يحل له أن يمسك مُشركة: ﴿ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ ﴾؛ لذلك وجدنا عمر يطلق زوجتين له، وكذلك أبو بكر يطلق زوجة كانت على الشرك، وإذا

أحل الله الزواج من الكتابيات، فإنه لا يحل الزواج من الكوافر اللائي أمر الله ﷻ بطلاقهن، وألا يمسك المسلم بعصمة كافرة.

وهنا جاءت الآيات تحدد أمر تعويض أولئك الذين جاءت نساءهم من مكة، وأمر ربنا ﷻ أن ترد مهورهن إلى أزواجهن، وكان النبي ﷺ لا يرد المرأة ولا مهرها قبل صلح الحديبية لو جاءت، أما بصلح الحديبية فقد نزل القرآن يأمر النبي ﷺ ألا يرد أي مؤمنة جاءت، ولكن من أجل الصلح أمر القرآن بأن ترد مهورهن على أزواجهن.

كذلك المسلم الذي تخرج زوجته من المدينة مصرةً على الكفر وترجع لأهلها؛ لأمر الله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ كان على قريش أن تعوض المسلم الذي خرجت زوجه إلى مكة كنص الصلح أو كنص الآيات، وهنا تذكر الآيات لو أن قريشًا – وقد حصل هذا. لم ترد أجرًا ومهرًا وحق المال لكل مَن طلق زوجته الكافرة، فإن الله ﷻ أمر المسلمين بأن يعوضوا ذلك المسلم عن خسارته في صداق امرأته؛ ولذلك نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[الممتحنة: ١١]، أي: أولئك الذين لم يأخذوا حقهم من قريش: أنتم تعوضونهم مما يفيء الله عليكم من الغنائم وعوائد القتال.

كُتُبه ﷺ إلى الملوك والأمراء، والدعوة العامة إلى الإسلام، وأثر ذلك:

بعد صلح الحديبية وما ترتب عليه، تفرغ النبي ﷺ والمسلمون إلى أمرين هامين هما:

إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء داخل الجزيرة وخارجها؛ حيث خرج النبي ﷺ بالدعوة إلى خارج نطاق الجزيرة العربية وما حولها ممن أرسل إليهم ﷺ كتبه

يدعوهم إلى الإسلام، ويذكرابن حجر أن رسول الله ﷺ أرسل إلى هِرقل في آخر سنة ست بعد أن رجع من الحديبية، وأن الكتاب وصل إلى هرقل في المحرم سنة سبع.

ويدل الحديث الصحيح على أن كتاب رسول الله ﷺ وصل إلى هرقل في مدة الصلح، وقال أنس بن مالك: كتب النبي ﷺ إلى كل جبار –أي: إلى كل عظيم من الحكام- يدعوهم إلى الله، وسمى منهم: كسرى، وقيصر، والنجاشي، قال: وليس بالنجاشي الذي أسلم من قبل -كما عرفنا.

ومما لا شك فيه أن مكاتبة الملوك خارج الجزيرة العربية، إنما هو تعبير صادق على عالمية هذه الدعوة: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، وهذا الأمر لم يتمكن منه النبي ﷺ هذا التمكنَ إلا بعد أن كفت بنود صلح الحديبية يدَ قريشٍ عن المسلمين. ومن الكتب التي أرسلها النبي ﷺ إلى أولئك الملوك في ذلك الوقت:

كتابهﷺ إلى هرقل الذي بعث به إليه مع دحية الكلبي، وفي الكتاب: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين -أي: الفلاحين- ثم يذكر هذه الآية الكريمة: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤])).

ولم يكتفِ النبي ﷺ بهرقل وحده، وإنما بعث إلى عامله على مصر.

كذلك فإنهﷺ بعث كتابًا إلى كسرى يدعوه فيه إلى الإسلام، أُرِّخَ هذا الكتاب بشهر جمادى الأولى سنة سبع وهي السنة التي قتل فيها كسرى، وبعث كتابه ﷺ مع عبد الله بن حذافة السهمي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين المنذر بن ساوى

العبدي، ويقوم المنذر بعد ذلك بإرسال الكتاب وبعثه إلى كسرى، ولكن كسرى لما وصله كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام، مزق هذا الكتاب بعد أن قرأه؛ ولذلك دعا عليه رسول الله ﷺ أن يمزقهم الله كل ممزق، وقد مزق الله ملك كسرى، فقتله ابنه، واستولى على عرشه، ثم تمزقت من بعده دولته التي كانت واسعة الأرجاء، ثم زالت من الوجود على أيدي رجال المسلمين من بعد، كما سنرى إن شاء الله.

وكما أشرنا إلى أن رسول الله ﷺ بعث للمقوقس عامل هرقل على مصر، فإنه ﷺ بعث إلى "باذان" -"أو بدهان"- عامل كسرى على اليمن، دعاه فيه إلى الإسلام، وكان هذا الرجل من أعظم من أجاب على كتاب رسول الله ﷺ، فقد بادر إلى الإسلام فأعلن إسلامه، ودخلت اليمن كلها بإسلام هذا الرجل في حوزة الإسلام والمسلمين، فكان هذا الكتاب فاتحة خير على أهل اليمن جميعًا.

وهكذا نرى حكمة النبي ﷺ في إرساله إلى الولايات التابعة للأكاسرة والقياصرة، وأثر هذا الخير على اليمن وأهلها بكتاب النبي ﷺ.

أما المقوقس فإنه تلقى كتاب النبي ﷺ باحترام ورد عليه بهدايا بعث بها إلى النبي ﷺ كان منها مارية القبطية، وسيرين التي وهبها النبي ﷺ لحسان بن ثابت < ، وبعث له بعسل وبحمار يركبه، وكان في هذا نوع من الأدب في الرد على النبي ﷺ.

وغير ذلك كتب كثيرة وجهها النبي ﷺ بعد الحديبية إلى: الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق، وهوذة بن علي الحنفي حاكم اليمامة، وجيفر وعبد ابني الجلندى حاكمي عمان، وغيرهم من الملوك والأمراء الذين وصلتهم دعوة الإسلام السلمية في بداية أمرها بالحسنى والموعظة الحسنة التي تضمنتها كتب رسول الله ﷺ.

فتح خيبر

عناصر الدرس

الـــــــدرس الأول :	موقع خيبر، وخطر يهودها وحقدهم على المسلمين، وانضمام يهود بني النضير إليهم	٢٣٥
الـــدرس الثـــاني :	المسير إلى خيبر، وخصوصية الخارجين لغزوها، وكيف كانت خيبر وعد الله لأهل الحديبية	٢٣٧
العنـــصر الثالـــث :	خطة النبي ﷺ في الوصول إلى خيبر، وتعامل المسلمين مع حلفاء اليهود، خطة النبي ﷺ في نزول أرض خيبر، ومباشرة الحصار في مراحله الأولى	٢٣٧
العنـــصر الرابـــع :	فتح المسلمين حصن ناعم وحصن الصعب وحصن الزبير، وسقوط منطقة النطاة بفتح ثلاثة الحصون، التحرك إلى منطقة الشق، وحصار أول حصونها وفتحه، وفتح حصن النزال	٢٣٩
العنـــصر الخـــامس :	فرار اليهود إلى منطقة الكتيبة، وحصار أول حصونها، ومرضه ﷺ وإمارة علي	٢٤٠
العنـــصر الـــسادس :	حصار الوطيح والسُلالم وتسليم اليهود بعد الامتناع، وشهداء المسلمين وقتلى اليهود، وتقسيم الغنائم	٢٤٣
العنـــصر الـــسابع :	طلب أهل فدك أن يُصالَحوا على مثل ما صُولِح عليه أهل خيبر، ومناقشة قضية فتح خيبر	٢٤٥
العنـــصر الثـــامن :	التوجه إلى أهل فدك وتيماء، وفتح وادي القرى بعد امتناع يهودها ومغانم المسلمين فيها	٢٤٦

موقع خيبر، وخطر يهودها وحقدهم على المسلمين، وانضمام يهود بني النضير إليهم

بعد خروج بني النضير من المدينة، تمركزوا في موقع خيبر، وكان يهودها من أشد اليهود بلاءً في القتال، وكانوا أكثر استعدادًا له؛ لهذه الحصون التي أقاموها في بلاد العرب، والتي كانت حصونًا عسكرية في تخطيط بنائها وإعدادها، وتزويدها بالماء والطعام والسلاح وبكل ما يُعين أهلها على الصمود أمام أيّ غازٍ أو محاصرٍ لها.

وإذا كان المشركون في مكة يعادون الإسلام بهذا الحماس وهذه الصلابة، فإنهم كانوا جهالًا بأمر هذه الدعوة لا يعرفون حقها كمعرفة اليهود العلماء، فالمشركون جادلوا في دعوة الإسلام بغير علم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ [الحج: ٣]؛ ولذلك كان لهؤلاء عذرهم على الرغم من هذه المعاداة، وكان أمر الله ﷻ لرسوله ﷺ بالصبر عليهم وألا يدعو عليهم: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

أما اليهود فرفضوا هذه الدعوة عن علم، فهم يعلمون بنبوته ﷺ بما ورثوه من مواثيق العهود في كتبهم، ووصايا أنبيائهم، ووصايا أحبارهم، وبخاصة يهود الجزيرة، كذلك يهود خيبر، وفدك، وتيماء، ووادي القرى، ويهود الشام، كل أهل الكتاب يعرفون صدق نبوته ﷺ، ولكنهم يحاربون الله ورسوله عن علم علموه من قبل ذلك، وعهد نبذوه جاءت به كتبهم، ونزلت به آيات القرآن.

وبعد أن طهر الله المدينة من رجس هؤلاء اليهود، فكان هناك ما هو أشد خطرًا؛ لأن المدينة كانت على مقربة من موقع عسكري محصن وقوي في بنائه، وفي استعداد أهله، وفيمن أوى إليه وعاش فيه من عتاة اليهود، وهو: خيبر، التي كانت إلى الشمال من المدينة، والتي أوى إليها يهود بني النضير بعد خروجهم من المدينة.

كان يهودُ خيبر أصحابُ هذه الحصون المنيعةِ القويةِ أعظمَ خطرًا من يهود المدينة ؛ لأنهم كانوا يعيشون وحدهم ، فأعطاهم هذا الأمر قوةً وخصوصيةً ، وسرِّية لا يعرفها غيرهم ؛ لتدبير أمورهم وما كانوا يخططون له. فكان لا بد من توجه النبي ﷺ إليهم ، ؛ لمواصلة الجهاد والكفاح ضد هذا العدو الخطر في هذا المكان الخطير.

ولذلك فإن النبي ﷺ بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة -وقبل صلح الحديبية- وجّه سرية لقتل أبي رافع بن أبي الحقيق في خيبر نفسها.

وكذلك بعث ﷺ سرية عليها علي بن أبي طالب > في شعبان من نفس السنة -سنة ست من الهجرة- بعثه إلى بني سعد بن بكر بـ"فدك" ، وهي منازل ليهود من يهود الجزيرة ، وقد بعث النبي ﷺ هذه السرية لأنه بلغه ﷺ أن جمعًا من بني سعد بن بكر بـ"فدك" يريدون أن يمدُّوا يهود خيبر ، ولما توجه علي بهذه السرية انتهى إلى مكان يسمى "الغمج" ، وهو ماء بين "خيبر" و"فدك" ، فوجدوا به رجلًا عَرَفوا منه أنه رسول لبني سعد إلى اليهود في خيبر يعرض عليهم نصرَهم ؛ على أن يجعلوا لبني سعد من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ، هنا نرى بأن يهود خيبر يَجمعون الناس ويُعطونهم مما يحتاجون من التمر وثمر خيبر ما يضمنون به ولاءهم وتوجههم إلى قتال المسلمين ، ثم إن عليًّا عَرَفَ من الرجل مكانَ سرح بني سعد وأماكنهم -أماكن نزولهم- فتمكنوا من ذلك كله بعد أن دلَّهم هذا الرجل ، وعادوا بهذه الغنيمة التي كانت حلالًا لهم وعقابًا لأولئك الذين أرادوا أن يعينوا خيبر من بني سعد بـ"فدك".

على كل حال : فحينما كانت تتوجه رسل النبي ﷺ لنشر دعوة الحق إلى خارج الجزيرة ، عزم ﷺ على الخروج إلى خيبر التي كان منها العداء والخطر ، وعلى هذا فإن يهود خيبر لم يكن قد ظهر منهم عداء سافر تجاه المسلمين إلا بعد أن وصل إليهم بنو النضير.

المسير إلى خيبر، وخصوصية الخارجين لغزوها، وكيف كانت خيبر وعد الله لأهل الحديبية

مما يوثق علاقة صلح الحديبية بأمر يهود خيبر: أن الله ﷻ اختص أولئك النفر الذين خرجوا في هذه الغزوة، وبايعوا النبي ﷺ "بيعة الرضوان" تحت الشجرة، بوعد الحق، بمغانم خيبر، يقول الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨- ١٩] ومن هنا فإن رسول الله ﷺ لم يجعل لأحد إذنًا في الخروج معه إلى خيبر إلا لمن شهد صلح الحديبية؛ لما تلاه من خير وفتح للمسلمين؛ حتى إن النبي ﷺ عند قسمه غنائمَ خيبر ضرب سهمًا في الغنيمة لعبد الله بن جابر رضي الله عنه الذي تخلف عن غزوة خيبر، وكان ممن حضر وشهد صلح الحديبية.

وهنا عزم النبي ﷺ على المسير إلى خيبر، فقد خرج إليها بعد أن عاد من الحديبية ومكث بالمدينة نحوًا من عشرين ليلة، وقد خرج إلى خيبر التي وعده الله ﷻ إياها مغنمًا؛ لقاءَ ما صبروا عليه في الحديبية، وكان خروجه ﷺ في أوائل المحرم من السنة السابعة.

خطة النبي ﷺ في الوصول إلى خيبر، وتعامل المسلمين مع حلفاء اليهود، وخطته ﷺ في نزول أرض خيبر، ومباشرة الحصار في مراحله الأولى

أ. خطة الوصول إلى خيبر:

سار النبي ﷺ بالأدلاء، وأمر أن يأتي خيبر من ناحية الشام حتى يحول بينهم - أي: اليهود. وبين حلفائهم من غطفان، وكانت هذه خطة محكمة؛ لأن أمثال هؤلاء الأعراب هم أكثر أعوان اليهود، وقد كان اليهود يظنون أنه ﷺ لن يقدر على أن يغزوهم؛ لمنعتهم ومنعة حصونهم، وكثرة مَن فيها من الرجال والعتاد والعدة والمال والسلاح والطعام، ووصل ﷺ قرب خيبر ليلًا، ونزل دونها ولم يدنُ من الحصون حتى يأمن نَبلَهم، فهم مرتفعون بحصونهم ولهم مهارة وشدة

في الرمي، كما أن ذلك سوف يُبعد المسلمين عن نزِّ الأرض -أي: عن رطوبة الأرض وما فيها من ماء- فنزل ﷺ أن ينزل بمكان قريب منها، وهو "وادي الرجيع"، وهو أقرب وادٍ من خيبر، وكان ذلك كله بمشورة الحباب بن المنذر > كما تقول بعض الروايات.

ب. المبيت في خيبر، وذعر اليهود من رؤية المسلمين:

وبعد أن صلى النبي ﷺ الصبح استعد المسلمون لأمر القتال، كان من سنته ﷺ هذا المبيت؛ لأنه ما كان يغزو قومًا حتى يعلم إسلامَهم، فإذا سمع أذانًا كفَّ عنهم، وإن لم يسمع غزاهم بعد أن يدعوَهم إلى الإسلام، وكما يحكي أنس بن مالك > الذي صحب النبي ﷺ ويحكي لنا هذا يقول: أنهم استقبلوا عمال خيبر غادين؛ لأنهم خرجوا في ذلك اليوم متوجهين إلى مزارعهم بمكاتلهم ومساحيهم -أدوات الحرث والزراعة- فلما رأوا رسول الله ﷺ وجيش المسلمين، فرُّوا سِراعًا مذعورين عائدين إلى حصونهم. يقولون: محمد والخميس معه -أي والجيش معه- فأدبروا هِرَابًا، فقال ﷺ: ((الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)).

ج. خطة النزول إلى أرض خيبر، ومباشرة الحصار في مراحله الأولى:

بدأ حصار النبي ﷺ لحصون خيبر، وكانت أول مناطق هذه الحصون هي منطقة "النطاة"؛ لأن هذه الحصون كانت في مناطقَ في أرض خيبر، فصف النبي ﷺ الصفوف، وحث على الصبر، وفرَّق الرايات، راية للحباب بن المنذر، وراية لسعد بن عبادة، أما اللواء -وهو أبيض- فكان لعلي بن أبي طالب > وكان شعارهم: يا منصور، أَمِتْ. وكان أول حصن حاصره النبي ﷺ من هذه المنطقة

-منطقة النطاة- "حصن ناعم" الذي قاتل فيه المسلمون واليهود أشد قتال، حتى أمسوا، ثم تحول المسلمون بعد ذلك إلى الرجيع ليبيتوا فيه حتى يستأنفوا يومًا آخر من أيام الحصار والقتال.

فتح المسلمين حصن ناعم وحصن الصعب وحصن الزبير، وسقوط منطقة النطاة بفتح ثلاثة الحصون، التحرك إلى منطقة الشق، وحصار أول حصونها وفتحه، وفتح حصن النزال

أ. فتح حصن "ناعم":

بات المسلمون ليلتهم في مكان "الرجيع"؛ حذرًا من سهام اليهود وحذرًا من غدرهم ليلًا، وكذلك بعدًا عن نزِّ الأرض – رطوبة الأرض- ، ثم بدءوا حصارهم لحصون خيبر في اليوم الثاني، فبدءوا بحصار "حصن ناعم"، وتتابع الحصار والقتال حول هذا الحصن حتى فتحه الله عليهم آخر الأمر بعد نحو من عشرة أيام.

ب. فتح حصن "الصعب":

ثم تحول المسلمون إلى "حصن الصعب"، وكان حصنًا منيعًا، لكن المسلمون تمكنوا من فتحه بعد أيام ثلاثة عانوا فيها جهدًا كبيرًا.

ج. فتح حصن "الزبير بن العوام":

ثم تحول المسلمون إلى حصن الزبير بن العوام، وحاصره ثلاثة أيام، وكان المتوقع أن يطول أمد الحصار لولا أن ساق الله ﷻ رجلًا من اليهود جاء للنبي ﷺ ودلَّه على مصدر حياة أهل هذا الحصن، هذا المصدر المتمثل في الماء الذي يمدهم

بالشراب وحاجتهم إلى الماء؛ ولذلك فإنهم اضطروا للخروج والقتال، وقاتل اليهود المسلمين أشد قتال، وكان في هذا الحصن وهذا القتال شهداء من المسلمين، وقتلى من اليهود بلغوا نحوًا من عشرة، وكان هذا الحصن آخر حصون منطقة "النطاة" التي تقع في الشمال الغربي من خيبر.

د. التحرك إلى منطقة "الشق"، وفتح أول حصونها، وفتح حصن "النزال":

ثم انتقل المسلمون إلى منطقة "الشق"، وكان حصن "أُبَيّ" أول حصونها، وقاتل المسلمون قتالًا شديدًا، ولكن اليهود اتبعوا أسلوبَ الخروج للمبارزة، فكانوا يخرجون رجلًا من بعد رجل، ولكنهم كفوا عن طلب المبارزة، واقتحم المسلمون الحصن؛ ففرَّ أهله إلى حصن "النزال"، وأغلقوه عليهم وامتنعوا فيه أشد امتناع، واستبسلوا في القتال والرمي بالنبل والحجارة؛ لأنهم تقوَّوا بعتادهم وبمن فرَّ إليهم من الحصون الأخرى التي أخذها المسلمون، وكان رميُهم شديدًا حتى إن سهامهم أصابت ثياب النبي ﷺ وعلقت بها، وكان ﷺ يجمع النبل للمسلمين، ثم إنه ﷺ أخذ كفًّا من الحصى فدعا وحصب به هذا الحصن فرجف باليهود فحازه المسلمون حيث دخلوه.

فرار اليهود إلى منطقة الكتيبة، وحصار أول حصونها، ومرضه ﷺ وإمارة علي

أ. فرار اليهود منطقة الكتيبة:

فرت فلول اليهود أمام جموع المسلمين إلى منطقة الكتيبة وحصونها، وكانت هذه المنطقة كذلك لها منعتها، وكان أعظم حصونها وأمنعها حصن "القموص"، الذي طال حصار المسلمين له.

ب. مرض النبي ﷺ وإمارة أبي بكر ثم عمر:

وخلال هذه الفترة أصابه ﷺ وجع في رأسه؛ لذا فإنه ﷺ أعطى الراية في اليوم أبا بكر، وحاصر بالمسلمين اليهودَ في هذا الحصن، ولكن لم يكن فتحٌ لهم، ثم في اليوم الثاني أعطى الراية عمرَ، وكذلك لم يكن فتحٌ؛ وذلك لشدة بسالة هؤلاء اليهود وامتناعهم بهذا الحصن.

ج. إمارة علي > وفتح الحصن:

ثم إنه ﷺ في يوم عمر لما عاد قال: ((لأعطين الراية غدًا رجلًا يفتح الله عليه، ليس بفرّار، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يأخذها عنوة)) وفي لفظ: ((يفتح الله على يديه)).

فبات الناس ليلتهم، وقد ذهبت ظنونهم كل مذهب، فلما أصبح ﷺ وصلى المسلمون الصبح دعا ﷺ باللواء، وقام فوعظ الناس، ثم قال: ((أين علي؟)) وهنا تحدد الرجل، فجيء به معصوبة عينُه من شكوى رمد أصابه، فأدناه النبي ﷺ لما علم ما به ووضع رأسه في حجره، ثم بصق في يده ﷺ ودلك بها عينا علي؛ فبرأ كأن لم يكن به وجع قط، وما رمدت عيناه بعد، ثم أعطاه الرسول ﷺ الراية، وكان أمره ﷺ لعلي: ((انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى وحق رسوله ﷺ فوالله لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم)). فخرج عليٌّ بالراية يهرول حتى ركزها تحت الحصن، وهنا نرى الحكمة من أمره ﷺ عليًّا بدعوة اليهود إلى الإسلام أولًا؛ لأنه قد اجتمع في هذا الحصن كثير منهم، ومنهم من عانى قتال المسلمين، كذلك فإن مجيء الفارِّين إلى هؤلاء الذين لم يقاتلوا بعدُ مما كان له من غير شك أثر في نفوسهم.

وظهرت في حصار هذا الحصن -حصن القموص- بطولات فذَّة من المسلمين ومن اليهود، وبرز مقاتلوا اليهود واحدًا تلو الآخر وكانت ممارستهم للقتال تدل على براعتهم فيه، وكان خروجهم يدل على شجاعتهم، وكان أول من برز منهم: "الحارث" أخو مرحب اليهودي سيد هذا الحصن، وكلاهما من شجعان اليهود، فبرز علي بن أبي طالب للحارث فقتله، وهنا رجع أصحاب الحارث إلى الحصن.

ثم برز من بعد الحارث رجل اسمه "عامر" كان جسيمًا فارع الطول، آتاه الله بسطة في الجسم، فخرج عليٌّ كذلك له فضربه ضربات لم تصنع فيه شيئًا، حتى تمكن من قتله آخر الأمر على الرغم من هذه الخلقة التي كان عليها ذلك الرجل، والتي أثارت تعجب المسلمين من أمر الله في خلقه.

ثم خرج بعد ذلك "ياسر" يطلب المبارزة فرغب الزبير بن العوام أن يخرج له بدل علي واستعان بالله عليه ودعا له رسول الله ﷺ أن يعينه على "ياسر" فتمكن الزبير من قتله، وبعد هذا خرج "مرحب" زعيم هذا الحصن كله وكان من شجعان اليهود، فخرج له عامر بن الأكوع عم سلمة > لكنه رجع سيف عامر إليه فأصابه إصابة بليغة قتلته؛ ولذلك قال الناس: قتل نفسه فليس بشهيد. لكنه ﷺ قال: ((إنه جاهد مجاهد)) وأخبر ﷺ أنه شهيد لما جاء سلمة يبكي لرسول الله ﷺ من قول الناس في عمه.

ثم خرج بعد عامر محمد بن مسلمة؛ وأراد ذلك لأن أخاه محمود بن مسلمة كان قد قتله مرحب هذا كما يقولون بعد أن ألقى عليه رحى من فوق الحصن؛ ولذلك طلب من النبي ﷺ أن ينال ثأره من قاتل أخيه، وقد أمكن الله ﷻ من مرحب فضربه محمد بن مسلمة ضربات قطعت ساقيه وتركه ينزف، ثم جاء علي

بن أبي طالب فأجهز على مرحب؛ ولذلك كان ذلك الأمر لاشتراك الرجلين فيه، ولأن كلًا منهما ضربه ضربات قاتلة اختلفت الروايات فيمن قتل مرحب، فبعضها يقول: إنه محمد بن مسلمة. وبعضها يقول: إنه علي. ولما اختلف الرجلان في أمر قتله حكم النبي ﷺ لمحمد بن مسلمة؛ لأن ضرباته كانت قاتلة، وإنما عليًّا جاءه بعد أن أثخنته جراحُه.

حصار الوطيح والسُلالم وتسليم اليهود بعد الامتناع، وشهداء المسلمين وقتلى اليهود، وتقسيم الغنائم

أ. حصار "الوطيح" و"السلالم"، وتحقُّق وعْد الله ﷻ للمسلمين:

سقطت حصون خيبر الواحد تلو الآخر، وحاز النبي ﷺ هذه المناطق المنيعة بحصونها منطقة بعد أخرى، وما بقي بعد ذلك إلا حصني "الوطيح" و"السُلالم"، فلما انتهى المسلمون إلى هذين الحصنين امتنع اليهود فيهما، حتى هَمَّ النبي ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق لما رأى من امتناعهم وإبائهم الخروجَ للمبارزة، وطال حصار اليهود حتى بلغت مدته أربعة عشر يومًا، ثم سألوا رسول الله ﷺ الصلح، فأرسل كنانةُ بن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ رجلًا ليعرض عليه ﷺ الصلح؛ فصالحهم رسول الله ﷺ على حقن دمائهم، وترك الذرية لهم، على أن يخرجوا من خيبر وأرضها بذراريهم ونسائهم، ثم يخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وكراع وحلقة -أي خيل وسلاح- وعلى كل شيء من أموالهم.

وانتهى بذلك أمر الحصار والقتال في خيبر على النحو الذي وعد الله ﷻ به رسوله ﷺ والمسلمين، وكان شهداء المسلمين في هذه الغزوة عشرين رجلًا فيما

ذكر ابن إسحاق، وخمس عشرة فيما ذكر الواقدي، أما اليهود فقد قتل منهم ثلاثة وتسعون رجلًا.

وقد طلب أهل خيبر من النبي ﷺ أن يدعهم في أرضهم بعد أن يأخذ المسلمون ما غنموه، وأن يترك الأرض والزرع والسكنى لهم، فيعملون فيها على نصف ما يخرج منها، وللمسلمين النصف الآخر؛ فوافق ﷺ.

ج. اليهود يقدِّمون شاة مسمومة للنبي ﷺ:

جاءت امرأة من يهود خيبر هي زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم، جاءت بشاة مشوية مسمومة، ولما تناول النبي ﷺ منها مضغةً لم يسغها، وكان معه بشر بن البراء بن معرور، وكان قد أكل مع النبي ﷺ ولكنه أساغها، أما النبي ﷺ فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، وجيء بالمرأة فاعترفت فقيل لها: وما حملك على هذا؟، قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكًا استرحنا منه، وإن كان نبيًا فسيخبر، فتجاوز النبي ﷺ عنها، ومات بشر من أكلته تلك، وقيل إنها قتلت بقتلها بشرًا.

د. تقسيم الغنائم:

جاء النبيَّ ﷺ جماعةٌ من دوس فيهم أبو هريرة > فقسم لهم وأعطاهم من هذه الغنائم التي كانت وقفًا على أهل الحديبية وحدهم. وكذلك أعطى النبي ﷺ لمن لم يحضر هذه الغزوة، وهو جابر بن عبد الله > .

أما من عدا المقاتلة من رجال المسلمين فإن النبي ﷺ أرضاهم بما أعطى، وكان ذلك متمثلًا في العبيد والصبيان والنسوة اللائي حضرن هذه الغزوة ليشاركن

فيها، فجعل ﷺ للنساء اللائي خرجن معه عطاءً لا يبلغ مبلغ السهام -سهام الرجال، وكان ﷺ يعطي الراجل سهمًا والفارس ثلاثة أسهم؛ سهمًا له وسهمين للفرس، كما أنه ﷺ أعطى أبا هريرة من غنائم خيبر.

طلب أهل فدك أن يُصالَحوا على مثل ما صُولِح عليه أهل خيبر، ومناقشة قضية فتح خيبر

أ. اختيار أهل "فدك" ما صولح عليه أهل خيبر:

ولما علمت يهود فدك بما تم عليه أمر المسلمين مع يهود خيبر من معاملتهم على أساس النصف من الخارج من الأرض، فإنهم بعثوا إلى النبي ﷺ يطلبون منه أن يعاملهم معاملة يهود خيبر، وقدمت رسلهم على النبي ﷺ وهو بخيبر، وقيل: وهو بالطائف أو بعد ما قدم إلى المدينة. فقبل ﷺ منهم ذلك، فكانت "فدك" لهذا خالصة لرسول الله ﷺ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وكان أمرها كأمر أموال بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، وهنا يناقش أمرٌ:

هل فتحت خيبر عنوة؟ أم أن بعضًا منها فتح صلحًا؟

هناك من يقول بأنها فتحت عنوة إلا قليلًا، وهو حصن "الوطيح" و"السلالم" الذين بعث أهلهما يسلمان للنبي ﷺ ولكن الرأي الراجح بأن خيبر كلها فتحت عنوة؛ لأن هؤلاء ما سلموا إلا بحصار دام عليهم وجهد من المسلمين، ويذهب ابن القيم -موضحًا رُجْحَان هذا الرأي- إلى أن النبي ﷺ عزم على إجلاء بني النضير، بل هم عرضوا ﷺ أن لا يخرجهم وأن يبقوا في ديارهم وأن يتعاملوا على أساس المزارعة كما رأينا، وإلا فأمر الصلح يختلف عن أمر العنوة، ولمثل هذا الرأي يذهب ابن عبد البر في كتابه (الدرر).

ب. بقاء اليهود في خيبر مشروط برضا المسلمين:

شرط النبي ﷺ على إبقاء يهود خيبرأن يكونوا في خيبر ما رضي المسلمون ذلك حتى لا يكون أمر إبقائهم مبرمًا من النبي ﷺ فلا يكون أمام المسلمين بعد ذلك أمر معهم؛ ولذلك لما عرف عُمر > أيام خلافته بهذا الشرط، ولما بلغه > قول النبي ﷺ: ((إنه لا يبقى في أرض الجزيرة دينان، فلا يكون هناك إلا الإسلام))، أرسل إلى يهود خيبر يقول لهم: إن الله ﷻ قد أذن في جلائكم، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ فليتجهز للجلاء، وأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ.

التوجه إلى أهل فدك وتيماء، وفتح وادي القرى بعد امتناع يهودها ومغانم المسلمين فيها

أ. أهل فدك وتيماء:

مثَّلَ فتح خيبر نصرًا عظيمًا على أكبر قوى اليهود في الجزيرة؛ وقد استتبع ذلك أعمال كان لا بد منها تمامها حتى يأمن المسلمون غدر اليهود كلهم، فقد كانت هناك جماعات من اليهود في "فَدَك" "وتيماء" و"وادي القرى"، وكأن النبي ﷺ جعل هذه الخَرْجة لقتال يهود خيبر كأنها كانت خروجًا لليهود كلهم بالجزيرة، فلما دنا ﷺ من خيبر، بعث مُحَيِّصَة بن مسعود الحارثي إلى "فدك" يدعوهم إلى الإسلام دعوة سلمية؛ ذلك لإزالة أي حجة لهم، ولكنهم ما أعطوه إجابة على هذا العرض من النبي ﷺ، وجعلوا يتربصون وينتظرون ما سوف يتم الأمر عليه في خيبر، وكانوا يظنون انتصار يهود خيبر على المسلمين، فلما رأى مُحَيِّصَة

خبثهم عزم على الرجوع، ولكنهم خافوا، ثم قالوا: نرسل معك رجالًا منا يأخذون لنا الصلح كنوع من التسويف حتى تتبين لهم حقيقة الأمر.

وظلوا على هذه الحال حتى جاءهم أمر النصر الذي حققه المسلمون، ففت ذلك في أعضادهم، وبعثوا رجلًا من رؤسائهم في نفر من اليهود يطلبون الصلح من النبي ﷺ على أن يحقن دماءهم ويجليهم، ويخلوا بينه وبين الأموال، ففعل رسول الله ﷺ. وقع الصلح على أن لهم نصف الأراضين بتربتها ولرسول الله ﷺ نصفها.

ب. فتح وادي القرى بعد امتناع يهودها، ومغانم المسلمين فيها:

أما يهود وادي القرى فإنه كان لهم أمرًا آخر؛ فلقد أتاهم رسول الله ﷺ وهو منصرف من خيبر بعد أن نصره الله على أهلها، فلما دنا المسلمون من منازل وادي القرى فاجأهم يهودها بالرمي بالنَبْل فدل هذا على أن أمرهم من بدايته الرفض للتسليم كما فعل يهود فدك وأنهم أرادوا القتال، ولذلك فإنه عبأ أصحابه للقتال وصفهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ودفع راية إلى الحباب بن المنذر وراية إلى سهل بن حنيث، وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم أولًا إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، ولكنهم ما ردوا على ذلك ردًا يدل على قبولهم له، وبدءوا بأمر القتال بعد أن تعبأ المسلمون عدا ما كان من رميهم حينما وصلوا إليهم، وبرز رجل منهم للقتال للمبارزة فخرج له الزبير بن العوام فقتله، ثم برز رجل آخر فقتله ثم برز منهم آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب > فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلًا.

كلما قتل منهم رجل دعا النبي ﷺ من بقي منهم إلى الإسلام وفي هذا مبالغة من حرصه ﷺ على أن يجنبهم القتال، وكانت الصلاة تحضر في ذلك اليوم فيصلي النبي ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام ولما لم يستجيبوا لهذا كله قاتلهم النبي ﷺ عامة هذا اليوم، ثم أمسى المسلمون وباتوا ليلتهم لحيطة من أمرهم، ولما غدا عليهم في اليوم التالي وبدأ النبي ﷺ يأخذ عدته لقتالهم، فلم تكد ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم وفتحها الله عليه ﷺ عنوة وغنمه أموالهم، وقد أصاب المسلمون أثاثًا ومتاعًا كثيرًا وغنموا من وادي القرى غنائم كثيرة.

ثم إنه ﷺ أقام بوادي القرى أربعة أيام، وقسم ما أصابه على أصحابه بوادي القرى وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود وعاملهم عليها كما عامل يهود خيبر.

تابع فتح خيبر ، وغزوة مؤتة

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	بعث السرايا لتأديب بقايا أعداء الإسلام من الأعراب	٢٥١
العنصر الثاني	:	أمر المسلمين بالتجهّز لأداء عمرة القضاء التي حان موعدها بعد عام من إبرام صلح الحديبية، و دخول مكة للعمرة، وأمره ﷺ للمسلمين بإظهار القوة	٢٥٢
العنصر الثالث	:	إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، وأثر ذلك	٢٥٥
العنصر الرابع	:	سرية مؤتة: أسبابها، وأهميتها، وموقف هرقل وأعوانه منها	٢٦٠
العنصر الخامس	:	خروج المسلمين لمؤتة بعد أن ودعهم الرسول ﷺ ووعظهم، وبطولات المسلمين فيها	٢٦١
العنصر السادس	:	عبقرية خالد في إدارة غزوة مؤتة، وحزن الرسول ﷺ على أمراء المسلمين	٢٦٣
العنصر السابع	:	عودة المسلمين من مؤتة إلى المدينة، وموقف أهل المدينة منهم	٢٦٥
العنصر الثامن	:	سرية عمرو بن العاص إلى قُضاعة	٢٦٦

بعث السرايا لتأديب بقايا أعداء الإسلام من الأعراب

هكذا كان نصر الله ﷻ على طوائف اليهود في الجزيرة بعد صلح الحديبية، فكفّت قريش يدها عن قتال المسلمين، ورأينا ما تمّ ليهود المدينة، ثم يهود خيبر ومن بعدهم فدك وتيماء ووادي القرى، إذًا لم يبقَ بعد ذلك أمام المسلمين إلا الأعراب.

ولذلك كان النبيﷺ يُوَجِّه السرايا في نواحي الجزيرة لتأديب هؤلاء الأعراب الذين لم يقبلوا الدخول في الإسلام وظلوا على كفرهم، طامعين في علاقاتهم برءوس الكفر من اليهود ومن المشركين.

وكانﷺ قد أرسل سرية عليها أَبان بن سعيد بن العاص قِبَلَ نجد في جمادى الأولى، فقدم أَبان على النبي ﷺ وهو بخيبر بعد أن افتتحها.

كما أنه ﷺ بعث عمر بن الخطاب نواحي هوازن، فلما سمعت به هوازن هربوا فرجع عمر بعد أن محالّهم فلم يلق أحدًا.

كذلك فإنه ﷺ بعث أبا بكر إلى بني كلاب بنجد فأوقع بهم وقتل وسبى منهم، وعاد ظافرًا.

كما أنه ﷺ أرسل غالب بن عبد الله الليثي في مائة وثلاثين رجلًا إلى بني عوال، وبني عبد ثعلبة وهم بالميفعة نواحي نجد، ومنزلهم من المدينة على نحو من ثمانية بُرد، فأوقعوا بهم في وسط محالِّهم، وعادوا ظافرين قد استاقوا نعمًا وشاء، ولم يكن هناك أسر.

هذه الأعمال كلّها كانت بفضل الله في السنة السابعة للهجرة التي كان فيها هذا النصر العظيم من الله ﷻ. وكان من أواخر بعوثه ﷺ تلك السرية التي كان عليها

بشير بن سعد إلى يمن وجبار، وهي مواضع تعارض سلاح، وخيبر، ووادي القرى -أي: أن لها صلة باليهود. فنزل المسلمون بسَلاح ودنوا من القوم فأصابوا لهم نعمًا كثيرًا، ولكن الرعاء تفرقوا، وحذروا الجموع من هذه القبل؛ فتفرقوا ولحقوا بعلياء بلادهم. وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتى أتى محالهم فلم يجد بها أحدًا، فرجع بالنعم وأصاب منهم رجلين، فأسرهما وقدم بهما على رسول الله ﷺ فعرض عليهما الإسلام فأسلما فأرسلهما ﷺ.

أمر المسلمين بالتجهّز لأداء عمرة القضاء التي حان موعدها بعد عام من إبرام صلح الحديبية، ودخول مكة للعمرة، وأمره ﷺ للمسلمين بإظهار القوة

أ. أمر المسلمين بالتجهز لأداء عمرة القضاء:

وبعد عام من إبرام صلح الحديبية، ومع دخل هلال ذي القعدة، أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتجهزوا لأداء العمرة التي صدوا عنها في العام الماضي، وكان أمره ﷺ ألَّا يتخلف أحدٌ ممن شهد الحديبيَة، فلم يتخلّف منهم إلا رجال قد استشهدوا في خيبر ورجال ماتوا، وخرج مع رسول الله ﷺ قوم من المسلمين عُمّارًا غير هؤلاء وكان عدد المعتمرين مع رسول الله ﷺ نحوًا من ألفين. واستخلف النبي ﷺ على المدينة أبا رهم الغفاري، وساق ﷺ ستين بَدنة جعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي، فسار أمامه بالهدي يطلب الرعي من الشجر، ومعه أربعة فتيان من أسلم.

ب. دخول مكة للعمرة، وأمره ﷺ للمسلمين بإظهار القوة:

كما أنه ﷺ أمر المسلمين بأخذ سلاحهم الذي اتفقت عليه بنود الصلح وهي السيوف في قُربها، ولكن كان له أمر احتياط آخر حينما حمل معه سلاح، وعدة

القتال فساق الخيل مائة فرس، وكذلك ساق الدروع والمغافر والحراب كلها أدوات لم تدخل في الشرط، ولكنه ﷺ لم يخالف في هذا؛ فلم يدخل بذلك مكة وإنما كان مبالغة في الاحتياط حتى يأمن غدر المشركين به، وهكذا فإنا قد رأيناهم في العام الماضي فعلوا ما فعلوا وخرجوا بالخيل وبعُدة القتال.

وهنا لما وصل النبي ﷺ إلى ذي الحُلَيفة قدم الخيل أمامه عليها محمد بن مسلمة، كما قدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد، وأحرم ﷺ من ذي الحُلَيفة، ولبى والمسلمون معه ثم مضى محمد بن مسلمة بالخيل إلى مر الظهران، فلقي بها جمعًا من قريش أعلمهم بأن رسول الله ﷺ سينزل هذا المكان غدًا بمشيئة الله، فأسرعوا إلى قريش يخبرونهم من أمر الخيل، وأنها -بلا شك- عُدة للقتال كما أن بشير بن سعد تقدم بالسلاح إلى بطن يأجج، وهناك بقي على السلاح مائة رجل لحراسته عليهم أوس بن خَولي الأنصاري.

ولما رأت قريش هذا بعثت مِكْرَز بن حفص في نفر من قريش نزلوا بطن يأجج فوجدوا رسول الله ﷺ في أصحابه، والهدي، والسلاح قد تلاحقوا، فقالوا: يا محمد ما عرفت صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم أن تدخل إلا بسلاح المسافر، فقال النبي ﷺ: ((إني لا أدخل عليهم السلاح)) -أي: إنه ﷺ إنما جاء حتى يكون قد أخذ احتياطه لأي أمر قد يكون-، ولما جاء مِكْرَز بن حفص يخبر قريش بذلك لم يطقْ جماعات من كبار أهل مكة المقام فيها حتى يروا المسلمين يطوفون بالبيت في أمان، وهذه أول مرة بعد هجرته ﷺ يتاح هذا الأمر كله ثم إنه ﷺ أمر بالهدي أمامه حتى حبس بذي طُوى، وخرج ﷺ هو وأصحابه محيطون بالنبي ﷺ وهو على ناقته القَصْواء وكانوا متوشحي السيوف، وعبد الله بن رواحة يرتجز بهذا الشعر يقول:

خلّوا بني الكفار عن سبيله ❖ خلوا فكل الخير معْ رسوله

نحن ضربناكم على تأويله ❖ كما ضربناكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله ❖ ويذهل الخليل عن خليله

وهنا تكلّم عمر مع ابن رواحة وكأنه يستنكر أن يقول هذا الشعر في هذا المقام، ولكن رسول الله ﷺ قال لعمر: يا عمر، إني أسمع فسكت عمر، ثم إنه ﷺ قال: ((إن هذا الشعر لهو أشدّ عليهم من نضح النبل)).

هذا ولقد كان بَلَغَ النبي ﷺ والمسلمين بأن قريشًا قالت عنهم: بأنهم أنهكتهم حمى يثرب، وأنهم ما يتباعثون من العَجَف -أي: من الضعف والوهن- ولذلك فإنه ﷺ لما طاف بالبيت طاف مطبعًا بردائه وقال: ((لا يرى القوم فيكم غَميزة)) أي: انتقاصًا من شأنكم، ثم استلم الركن ﷺ، ثم رمل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، وهكذا ثلاثة أشواط من السبع، وقد كان من بقي من قريش قد جاءوا ينظرون إلى النبي ﷺ وإلى المسلمين، ثم لما رأوا هذه القوة منهم قالوا: إنهم ما يرضون بالمشي إنما ينفرون نفر الظباء.

وبعد طوافه ﷺ أكمل عمرته، ثم إنه ﷺ لما قضى نسكه دخل البيت فلم يزل فيه حتى أذن بلال الظهر فوق الكعبة، وكان رسول الله ﷺ أمره بذلك حتى يُعلي كلمة الحق في هذا المقام، على الرغم من أن هذا الأمر أصاب كثيرين من أهل مكة، وبخاصة أولئك الذين ينتسبون إلى الأُسر التي تعمق فيها الشرك، كصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل.

ولما مضت الثلاثة أيام التي كانت في شرط صلح الحديبية بعثت قريش إلى النبي ﷺ، حتى يخرج فأتاه سُهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى، وكان رسول الله ﷺ في مجلسه مع الأنصار يتحدث مع سعد بن عُبادة فصاح حويطب: نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا، فقد مضت الثلاث، ولقد وقعت ملاحاة بين سعد

بن عبادة وبين حويطب، ولكن النبي ﷺ حسم الأمر بعد أن استأذنهم في أن يبقى حتى يدخل بميمونة بنت الحارث أخت الفضل زوج عمّه العباس، وقال: ((قد نكحت امرأة منكم فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ونصنع طعامًا فنأكل وتأكلون معنا))، فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك، نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا. نوع من التعنّت ما يزال مع قريش، وهنا سنرى كيف ستكون معاملة النبي ﷺ حينما يدخل مكة فاتحًا بأمر الله في العام القادم، ولكن ما نذكر إلا حتى نقارن بين عمل النبي ﷺ وبين عمل هؤلاء، وهنا أمر النبي ﷺ أبا رافع أن يؤذن بالرحيل في الناس، وطلب ألّا يمسي أحد في مكة من المسلمين، وخرج النبي ﷺ عن مكة كشرط صلح الحديبية كما رأينا، كما أنه ﷺ أمر أبا رافع مولاه أن يلحقه بميمونة، وهكذا تمت عمرته ﷺ على صدق ما وعده الله ﷻ ووعد المسلمين معه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، وأثر ذلك

أ. إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة:

إذا كان نصر الله ﷻ على هذا النحو الذي رأينا خلال هذا الأمر كله، فإنه كان هناك أمر سيزداد الإسلام به قوة، ويزداد الكفر به ضعفًا وهو إسلام رجال كان لهم خطرهم في الإسلام من بعد ذلك، كما كان لهم أمرهم في خدمة الكفر والشرك، ونعني بهؤلاء الوليد بن الوليد بن المغيرة، كذلك عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة وغيرهم من الذين هداهم الله للإسلام بعد صلح الحديبية.

دخل هؤلاء الثلاثة على رسول الله ﷺ المسجد بالمدينة مسلمين في يوم واحد؛ فقد جمع الله ﷻ بينهم على غير ميعاد، فعمرو بن العاص خرج بعد أن ظهر أمر الإسلام إلى الحبشة ليقيم بها، وبعد أن سمع من النجاشي ما يؤكد صدق النبيﷺ، عزم على أن يسلم مع النبي ﷺ فخرج من الحبشة قاصدًا المدينة.

يقول عمرو: خرجت أريد المدينة حتى مررت على مر الظهران ومضيت حتى إذا كنت بالهدة، فإذا رجلان قد سبقاني بغير كثير يريدان منزلًا، فلما نظر إليهما فإذا هو خالد بن الوليد، قلت: أين تريد؟ قال: محمدًا، دخل الناس في الإسلام، والله لو أقمت لأخذ محمد برقابنا كما يُؤخذ برقبة الضبع في مغارتها، قلت: وأنا والله قد أردت محمدًا وأردت الإسلام، ثم مضى الجميع في طريقهم حتى أتوا المدينة. يقول عمرو: فلما أتينا المدينة فما أنسى قول رجل لقيناه يصيح: يا رباح فتفاءلنا بقوله وسررنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين وظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد، ثم ولّى مدبرًا إلى المسجد سريعًا فظننت أنه يبشر رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان كما ظننت، وقد أنخنا بالحرة ولبسنا من صالح ثيابنا، ثم نودي بالعصر فانطلقنا حتى دخلنا على النبي ﷺ وإن لوجهه تهلّلًا والمسلمون حوله قد سُروا بإسلامنا، ثم تقدم خالد بن الوليد فبايع، وتقدم عثمان كذلك، ثم تقدم عمرو بن العاص فبايع النبي ﷺ يقول: فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي حياءً منه، ثم بايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ولم يحضرني ما تأخر فقال ﷺ: ((إن الإسلام يجب ما قبله والهجرة تجب ما كان قبلها))، قال: فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا.

ب. أثر إسلامهم:

كان لإسلام هؤلاء الرجال وبخاصة عمرو وخالد؛ لما لهما من دور كبير في أعمال الجهاد التي سوف يباشرها المسلمون بعد ذلك، وبخاصة في الشام وغيرها من البلاد التي كانت تحت الروم بعد ذلك في عهود الخلفاء الراشدين، وكان لخالد خاصة أثرٌ في أول الأعمال التي خرج فيها المسلمون على هذه الكثرة منهم، وكان ذلك في غزوة مؤتة التي كانت فيها الصحابة ثلاثة آلاف، فكان اشتراك خالد في هذه الغزوة بعد إسلامه ومجيئه المدينة بقليل، فقد جاء المدينة مسلمًا في سفر، وخرج مجاهدًا في هذه الغزوة في جمادى الأولى.

وكان من حكمة النبي ﷺ أن استمال أمثال هذه الشخصيات النادرة من المسلمين؛ ولذلك فإنه ﷺ لما كان في المدينة معتمرًا عمرة القضية وقد أسلم الوليد بن الوليد أخو خالد، سأل النبي ﷺ عن خالد، فبعث الوليد إلى أخيه خالد بكتاب فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وَعَقْلُك عَقْلُك، ومثل الإسلام جهله أحد، وقد سألني رسول الله ﷺ عنك وقال: ((أين خالد؟))، فقلت: يأتي الله به إن شاء الله فقال: ((مثله جهل الإسلام، ولو جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيرًا له، ولقدمناه على غيره))، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة".

يقول خالد: فلم جاءه كتاب أخيه نشط للخروج إلى النبي ﷺ وزاده ذلك رغبة في الإسلام كما أنه سره سؤال رسول الله ﷺ. وكان خالد يلوم نفسه على مواقفه التي وقفها ضد الإسلام، وأن جهده الذي بذله في خدمة الوثنية والمشركين ليس في موضعه، ويقول: لما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين، فلقيت رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان فقمت بإزائه وتعرضت له،

فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم، ثم لم يعزم لنا وكانت فيه خيرة فاطّلع على ما في أنفسنا من الهمّ به، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف فوقع معنا موقعًا، فقلت: الرجل ممنوع فاعتزلنا.

كذلك موقفه في أُحد، وما كان سببًا فيه من تحول الريح ضد المسلمين، ونزول من نزل بهم من القتل والتنكيل، فلعلّ خالدًا كان يرى أن هذا الجهد الذي قدمه للمشركين ما كان يجب عليه أن يكون منه هو. إذًا فالرجل يراجع نفسه ويلومها على مواقف الشرك.

ومن حب الخير في نفس خالد أن دعى أصدقاء له أصفياء أراد أن يعرض عليهم الإسلام قبل أن يسير إلى النبي ﷺ، ولكنهم رفضوا. فخرج خالد براحلته، فلقي عثمان بن طلحة، فقال له ما دعاه به إلى الإسلام، وعزمه على المضي إلى محمد ﷺ، وتواعد الرجلان، قال خالد: فاتعدت أنا وهو يأجج إن سبقني أقام، وإن سبقته أقمت -وهو وادٍ خارج مكة-، فأدلجنا سحرًا فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج فغدونا حتى انتهينا إلى الهده، فنجد عمرو بن العاص بها، وهنا عرفنا بأن الرجال الثلاثة التقوا في هذا المكان من قصة إسلام عمرو بن العاص، وعرف الرجال الثلاثة عزم كل واحد منهم على المضي إلى المدينة، فساروا جميعًا حتى دخلوها، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيه أخوه فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسُرّ بقدومك وهو ينتظركم، قال: فأسرعنا المشي فاطلعت عليه، فما زال يبتسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة فردّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ثم قال رسول الله ﷺ لخالد: ((الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلًا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير))، قلت: يا رسول الله، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندًا للحق،

فادع الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ: ((الإسلام يَجُب ما قبله))، وعاد يرجوا الدعاء، فقال النبي ﷺ: ((اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيل الله))، ثم تقدّم الرجال فبايعوا رسول الله ﷺ، وهنا يذكر خالد أن قدومهم كان في سفر ثمانٍ، ويقول: والله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما حزبه من أمر.

وسرور النبي ﷺ بهم جميعًا هذا السرور العظيم، وكان حريًّا بأمثال هؤلاء الرجال أن يهديهم الله للإسلام، وأن يدخرهم لقوة المسلمين.

أمَّا عثمان بن طلحة وكان من بيت حملة اللواء -لواء قريش-، وقد قتل منهم الكثير في أحد، وكذلك في بدر، وخالد من بني مخزوم الذين كانوا فرسان قريش في القتال، وكان إليهم أمر القتال كله في قريش كما عرفنا، ونذكر لهذا الرجل الذي كان يُرجى له أن يكرمه الله بالإسلام، نذكر موقفه مع أم سلمة حينما خرج بها من مكةَ يصونها، ويحرسها بأمر الله، ويحفظها حتى أوصلها إلى حيث زوجها أبو سلمة الذي هاجر، وتركها هي وولدها سلمة من قبل ذلك بعام، وكان أمينًا عفيفًا ذكرت أم سلمة ما كان يفعله معها من الأمانة، أمانة الرجال وحفظ الأعراض في هذا الخلاء الذي ما كان فيه إلا عثمان، وأم سلمة وابنها، والله من فوقهم ومن ورائهم عليم.

ولذلك كانت هذه الصحبة، صحبة عثمان لأم سلمة، من الأمور التي ذكرتها بالخير أم سلمة بعد ذلك، وذكرت التي ذكرتها بالخير لعثمان، ولذلك لم يكن غريبًا أن يكرم الله ﷻ مثل هذا الرجل الأمين هذه الكرامة العظيمة، وأن يدخل مكة في صحبة هذه الجماعة المؤمنة التي أعز الله بها الإسلام والمسلمين.

سرية مؤتة: أسبابها، وأهميتها، وموقف هرقل وأعوانه منها

أ. أسباب غزوة مؤتة:

سرية مؤتة من أهم السرايا التي وجّهها النبي ﷺ إلى الشام لقتال الروم وأعوانهم، ذلك أنه ﷺ لما بعث بكتبه إلى الملوك والأمراء، فإنه بعث بكتاب إلى ملك بُصرى مع الحارث بن عمرو الأزدي، فلما وصل مؤتة عرض له شُرحبيل بن عمرو الغساني فقتله، وكانت الرسل لا تقتل؛ فغضب النبي ﷺ لذلك، وكان هذا سببًا في إرسال هذه السرية سرية مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

ب. موقف هرقل وأعوانه من السرية:

كانت لأول مرّة تخرج سرية لتقاتل جموعًا مثل هذه الجموع، وفي ميدان جديد مثل ميدان نصارى الشام من الروم وأتباعهم من متنصّرة العرب الذين ارتبطت مصالحهم بالدولة الرّومية، ولما وصل كتاب النبي ﷺ إلى هرقل دعاه فيه إلى الإسلام، ودعا ملوك الشام من الغساسنة وغيرهم كذلك، طلب هرقل بعضَ مَنْ بالشام من العرب، فصادف وجود أبي سفيان، فناقشه هرقل في أمر النبي ﷺ.

ولما ذكر أبو سفيان أمر النبي لهرقل، أقرَّ هرقل بنبوة الرسول ﷺ وعرف الحق، ولكن بعد أشهر من مجيء الكتاب إليه جمع الجموع، وكانت بواعث هرقل أن هذا الدين سوف يسود على النصرانية، ثم لا يبقى لهم كملوك بعد ذلك شيء يضمن لهم السيادة على الناس، فإن الأباطرة كانوا يعتبرون أنفسهم رعاة للنصرانية.

ومن هنا كان هذا الإصرار على الخروج والقتال، وحتى يُعرَّف المسلمين أن هذه الجبهة - جبهة الشام، أو بالأحرى جبهة النصرانية - هي أشد بأسًا وأكثر عددًا وأمضى سلاحًا؛ ولذلك كانت هذه العدة الكبيرة التي خرج فيها هرقل في مائة ألف من الروم، ثم ما اجتمع إليهم من العرب وقبائلها، والممالك التي دانت بالحكم والتبعية للروم الذين بلغوا نحوًا من مائة ألف كما تذكر الآيات.

هنا، اختار النبي أمراءً ﷺ لهذه السرية؛ ولذلك سميت سرية الأمراء؛ حيث أمرﷺ عليهم أولًا زيد بن حارثة، وقالﷺ: ((إن قُتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتض المسلمون رجلًا منهم فليؤمروه عليهم))، وهذا يدل على يقين النبي ﷺ بعِظم المهمة.

خروج المسلمين لمؤتة بعد أن ودّعهم الرسول ﷺ ووعظهم، وبطولات المسلمين فيها

أ. خروج المسلمين لمؤتة بعد أن ودّعهم الرسول ﷺ ووعظهم:

تحدد الأمر، وتحدد المسير وخرج المسلمون بعد أن ودعهم رسول الله ﷺ وشيعهم حتى بلغ ثنية الوداع، ثم وقف ووعظهم، فقالﷺ: ((اغزوا بسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، ثم قالﷺ: أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا بسم الله في سبيل الله مَن كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تعقروا نخلًا، ولا تهدموا بيتًا))، كل هذا مما يدل على أن دعوة الإسلام حتى في القتال إنما هي للإصلاح، وليست للتخريب.

ثم إنه ﷺ أمر أمراءه أن يبدءوا بدعوة أعدائهم أولًا إلى هذا الدين العظيم قبل أن يقاتلوهم، وبعد هذا مضى الرجال متوجهين إلى طريق الشام حتى نزلوا معان من أرض الشام، وهناك بلغ الناس أن هِرَقل نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام، وبهراء، وبلي، وغيرها من القبائل مائة ألف أخرى عليهم رجلٌ من دلي يُقال له مالك بن رافلة. فلما بلغ المسلمين ذلك أقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا؛ لأنهم رأوا عدوًا كثيرًا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، فشجع الناسَ عبدُ الله بن رواحة وقال: يا قومي إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون -أي: الشهادة-، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة؛ فتشجع الناس لذلك وقالوا: قد والله صدق ابن رواحة، ومضوا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هِرَقل من الروم والعرب بقرية تسمى مشارف من قرى البلقاء.

ب. بطولات المسلمين في غزوة مؤتة:

ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة وعبئوا أنفسهم فيها، وجعلوا على الميمنة قطبة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري ثم التقى الناس واقتتلوا، فاستشهد زيد فأخذ الراية من بعده جعفر، فاقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها وقاتل حتى أكرمه الله بالشهادة، وقد قيل بأن جعفر أخذ اللواء بيمينه فقطت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة؛ ولذلك بشَّر النبي ﷺ أن الله أبدل جعفر بجناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء، وبعد جعفر تقدم عبد الله بن رواحة، ولكنه عند ساعة أخذ الراية بدا منه بعض التردد ولكنه تشجع، ثم نزل وباشر القتال حتى قُتل شهيدًا يرحمه الله.

وهكذا قُتل الأمراء الثلاثة، وهنا أخذ الراية ثابت بن أرقم وطلب من المسلمين أن يصطلحوا على رجل منهم حتى لا تقع الراية، وحتى لا ينهزم المسلمون فالناس براياتهم في القتال، فلما عرض الناس على ثابت أن يقودهم لم يرضَ، فاصطلحوا على خالد بن الوليد، فأخذ الراية خالد، ولما أعطاه ثابت قال: إنك لهذا الأمر أصلح مني.

هكذا وفق الله المسلمين إلى ذلك الرجل إلى خالد بن الوليد، وكان قتل ابن رواحة مساءً وآلت الإمارة إلى خالد الذي بات يفكر في الأمر، فلما أصبح قام بأمورٍ في صفوف الجيش حتى يكون لها أثرها في نفوس الأعداء، فجعل مقدمة الجيش ساقة، والساقة مقدمة، والميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة؛ ولذلك أنكر الأعداء ما رأوا وظنوا أن مددًا قد جاء المسلمين، وقاتل خالد والمسلمون قتالًا عنيفًا مستبسلين مقدمين غير متقهقرين حتى أبلوا بلاءً حسنًا، حتى أن خالدًا ليذكر بأنه اندقت في يده في مؤتة تسعة أسياف، وما ثبت في يده إلا صفيحة يمانية؛ مما يدل على أن المسلمين رغم قلة عددهم، فإن إقبالهم على الجهاد والموت في سبيل الله كان أمرًا واضحًا في هذه السرية التي أثبتت معية الله ﷻ كانت خير دعم لهم في هذا اللقاء.

عبقرية خالد في إدارة غزوة مؤتة، وحزن الرسول ﷺ على أمراء المسلمين

أ. عبقرية خالد في إدارة غزوة مؤتة:

أراد خالد في هذا القتال أن ينحاز بالمسلمين بلا خسائر تذكر أمام هذه الجموع الكثيرة، وكان في هذا نصر الله ﷻ؛ ولذلك فإنه قاتل الروم وأعوانهم قتالًا شديدًا، استبسل فيه المسلمون غاية الاستبسال، ويكفي المقارنة بين عدد المسلمين وبين عدد الروم وأعوانهم، حتى نعرف مدى الإقدام والإقبال الذي كان عند المسلمين.

وحتى لا يظن ظانٌ أن انسحاب خالد بالمسلمين كان تقهقرًا ؛ فإن النبي ﷺ بشر المسلمين بعد أن أنبأهم بمقتل الأمراء الثلاثة، بشرهم بأنه قد أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه وهو خالد ؛ ولذلك سُمي فعل خالد فتحًا، وكان حريًّا به أن يوصف بهذا الوصف حين نَجَا بالمسلمين، وخاف الروم وأعوانهم أن يتابعوا خالدًا الذي انسحب انسحابًا منظمًا لم تكن فيه خسارة تذكر، وعاد بالمسلمين إلى المدينة.

ولذلك فإن النبي ﷺ على الرغم مما أصابه من الحزن لما علم بمقتل الأمراء الثلاثة فإنه ﷺ سُرّ لما رأى أمرهم وما نالهم من الخير بفضل الله ﷻ والثواب العظيم في الجنة، كذلك فإنه سرّ بتصرف خالد وعودته بالمسلمين من هذه المعركة دون الهزيمة. فلقد رأينا جيش الروم وكثرة عدده وعدته، فكان من المحتمل هزيمة المسلمين في هذه المعركة، ومع ذلك فإن المسلمين استشهدوا كلهم إلا من نجا منهم، أو من ارتث من بين القتلى.

ب. حزن الرسول ﷺ على أمراء المسلمين:

أعلم الله ﷻ رسولهﷺ بمصاب المسلمين في هؤلاء الأمراء، وذلك قبل أن يأتي بالخبر، فَرُئِيَ الحزن في وجهه ﷺ حتى لاحظ المسلمون ذلك، وساءهم ما فيه النبي ﷺ من الحزن الذي ظهر عليه بعد أن صلى الظهر، وظل ﷺكذلك في صلاة العصر والمغرب والعشاء.

ثم لما كانت صلاة الصبح من اليوم التالي دخل النبي ﷺ المسجد وهو يبتسم، فقال الناس بعد أن فرحوا بتبسّمه: يا نبي الله، بأنفسنا أنت لا يعلم إلا الله ما كان بنا من الوَجْد منذ رأينا منك الذي رأينا، فقال رسول الله ﷺ: ((كان الذي رأيتم مني أنه أحزنني قتل أصحابي حتى رأيتهم في الجنة إخوانًا على سرر متقابلين)).

وهنا نقول بأنه ﷺ: إنما كان حزنه لرقّة قلبه ورحمته بأمته، وإن الحزن لا ينافي الرضا والتسليم لأمر الله ﷻ؛ فلقد بكى النبي ﷺ يوم وفاة ولده إبراهيم، وقال: ((وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون)) مع أنه أعلم برضاه بأمر الله ﷻ، وتسليمه له فيما أصابه ﷺ.

عودة المسلمين من مؤتة إلى المدينة، وموقف أهل المدينة منهم

عاد خالد بالمسلمين إلى المدينة، ولكنه في طريقه ما نسي أن يؤدّب جماعة من العرب قتلوا رجلًا من المسلمين عند ذهابهم إلى الشام فغزاهم، وحاصرهم، وقتل فيهم مقتلة عظيمة؛ تأديبًا لهم على ما فعلوا بهذا الرجل وبالمسلمين، ثم عاد خالد إلى المدينة بهذا النصر العظيم الذي أيّده الله به.

وقد ذُكر أن المسلمين تلقّوا الذين عادوا من هذه الموقعة يحثون في وجوههم التراب، ويصفونهم بالفُرار، والحقيقة أن هذا الاستقبال في المدينة ليس لجند خالد، وإنما كان للجماعة التي فرت من أول الأمر، ولم يصمدوا مع خالد بن الوليد > ، وذلك حينما فتنوا بكثرة الروم وأتباعهم من متنصّرة العرب، ففرّوا ورجعوا إلى المدينة، وظنوا أن المسلمين سوف ينسحبون لأن العدد كثير عليهم، ولّما عادوا تلقّاهم الناس حتى الصبيان يحثون في وجوههم التراب ويسمّونهم بأنهم الفُرّار، ويقولون: يا فُرّار، حتى إن بعضهم كان يتحرّج من شهود الجماعة مع النبي ﷺ؛ خجلًا من فراره من هذا اللقاء.

النبي ﷺ يعالج الموقف:

وعالج النبي ﷺ هذا الأمر بكلّ حكمة، مع أنهﷺ كان يكره أن يعود بعض الناس من السرية التي يبعثها، فقالﷺ: ((بعثتكم جميعًا وتعودون فرادى))،

ومع ذلك لأن هذه كانت تجربة صعبة على المسلمين في هذا الميدان الذي باشروا القتال فيه لأول مرة، وهو ميدان النصارى، نصارى الشام؛ فإن النبي ﷺ لما قيل لهؤلاء: يا فُرّار، فإنه ﷺ كان يقول: ((بل إنهم العكارون)) أي: الفرارون، وكما قال ﷺ: ((إنما أنا فئتكم)) أي: تلميحًا لقوله ﷻ: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦].

وبهذا عالج النبي ﷺ هذا الأمر مع أولئك الذين ضعفت نفوسهم أمام هذا الجمع الكبير. وكان من أهم النتائج التي ترتّبت على نصر الله ﷻ المسلمين في هذه السرية: أن المسلمين تعلموا دروسًا من القتال في هذا الميدان، وتعاملوا مع عدوّ جديد لم يتعاملوا معه من قبل، وكان ذلك من الأمور التي ترتّب عليها اهتمام النبي ﷺ بهذا الميدان، وكان من مظاهر ذلك: غزوة تبوك التي كانت آخر غزواته ﷺ، والتي كانت في رجب من السنة التاسعة.

وكذلك فإنه ﷺ بعد أن حج حجة الوداع في السنة العاشرة كان شغله بعد أن عاد إلى المدينة من الحج، هو إعداد بعث أسامة الذي وجّهه إلى الشام، وكان اهتمامه ﷺ بهذا البعث عظيمًا، حتى إنه ﷺ كرّر الوصاة للمسلمين بأن يبعثوا هذا البعث، فما كان يفيق ممّا كان يغشاه من شدّة وجعه حتى يقول: ((أنفذوا بعث أسامة))، فكان آخر أعمال النبي ﷺ هو إعداد هذا البعث، وكان أول عمل عمله أبو بكر > لما تولّى أمر المسلمين بعد النبي ﷺ هو أنه أنفذ هذا البعث كوصية النبي ﷺ.

سرية عمرو بن العاص إلى قُضاعة

لم تمضِ أيام على عودة خالد ومن معه إلى المدينة حتى أعدّ النبي ﷺ سرية أخرى عليها عمرو بن العاص > ، وجهها ﷺ إلى ذات السلاسل، وذلك لتأديب قُضاعة التي غرَّها ما حدث في مؤتة، وكانت هي الأخرى اشتركت مع الروم أمام المسلمين؛ ولذلك بعث النبي ﷺ إليهم عمرًا لَّما علم بأنهم يتجمّعون

يريـدون الـدنوَّ مـن المدينـة ؛ فتقـدم عمـرو في ديارهـا ، وكـان معـه ثلاثمائـة مـن المهاجرين والأنصار ، وأمره الـنبي ﷺ أن يـستعين ببعض فـروع قـضاعة مـن بلـي وعذرة وبلقين ، وبلغ عمرو أن قضاعة خرجت واستعدت في جموع كثيرة.

وهنا بعث يستمدّ من النبي ﷺ فأمدّه بمائتين من المهاجرين والأنصار ، علـيهم أبـو عبيدة عامر بن الجراح ، وكان من أفراد هـذه الـسرية المدد أبـو بكـر وعمـر { . وأمر النبي ﷺ أبا عبيدة أن يتطاوع. ومع أنه كان في رجال السرية أبـو بكـر وعمـر وغيرهما من كبار المهاجرين والأنصار ، ونعلم تأخّر إسلام عمرو ، فلـم تَكَـدْ تمـرّ شهور على إسلامه ، ومـع ذلـك فـإن الـنبي ﷺ أمَّره على هـذه الـسرية ؛ بـل إنـه صلى بالناس كلهم وبالمدد الذي جاء به أبو عبيدة ، وكان أمـيرًا عليـه ، فمـا وسـع أبا عبيدة إلا أن يسلم بطاعة عمرو لأن النبي ﷺ وصّاه بذلك.

كما أن عمرًا بعد ذلك أمر المسلمين ألا يوقدوا نارًا في ليلة كانوا يحتاجون فيهـا إلى النار للتدفئة ، ولما شـكوا ذلـك للـنبي ﷺ ، وعـرف منه ﷺ بأنه خشي أن يـرى العدو نارهم فيستقلّها ، فيعلم من ذلك قلّة عدد المسلمين ؛ فاستحـسن الـنبي ﷺ هذا التصرف من عمرو > .

ثمّ إن هذه السرية قامت بهذه المهمّة التي خرجت من أجلها ، فتوغّل المسلمون في ديار قضاعة التي هربت ، وتفرقت ، وأعاد ذلك في نفوس الأعراب ومـن حـولهم من نواحي الشام الهيبة للمسلمين ، والخوف منهم ، وهكـذا تمّ النـصر مـن الله ﷻ للمسلمين في هاتين السريتين اللتين تلاحقتا في وقت قريـب في هـذا الميدان الجديـد سرية مؤتة ، وسرية ذات السلاسل كما رأينا.

فتح مكة

عناصر الدرس

العنصر الأول : فتح مكة، ومحاولة أبي سفيان تلافي خطأ قريش ٢٧١

العنصر الثاني : أمر النبي ﷺ المسلمين بالاستعداد لفتح مكة، وموقف حاطب بن أبي بلتعة، ودعوة الناس للخروج لفتح مكة، والمسير للفتح ٢٧٣

العنصر الثالث : إسلام أبي سفيان، ورجوعه إلى قريش يخبرهم بما جاء به ﷺ ٢٧٧

العنصر الرابع : أوامره ﷺ لخالد ومن معه مكان دخولهم مكة، والقتال عند الخندمة، دخوله ﷺ مكة من كداء، وتحطيمه الأصنام، وعفوه عن قريش ٢٨٠

العنصر الخامس : صلاة الفتح، وتأمينه ﷺ الناس كلهم إلا تسعة نفر ٢٨٣

العنصر السادس : ثأر خزاعة، وسياسته ﷺ في تأمين عتاة المشركين ٢٨٥

العنصر السابع : خوف الأنصار من إقامته ﷺ بمكة، وأعماله بعد الفتح ٢٨٧

العنصر الثامن : موقف الرسول ﷺ بعد فتح مكة، إسلام كعب بن زهير ٢٨٨

فتح مكة، ومحاولة أبي سفيان تلافي خطأ قريش

أ. سبب المسير إلى فتح مكة:

كان هناك عملٌ من أجلِّ الأعمال وفتحٌ هو أعظم الفتوح التي أَتَمَّهَا الله على المسلمين، ألا وهو فتح مكة، الذي كان في رمضان من السنة الثامنة، وكان لهذا الفتح العظيم أسباب دعت إليه؛ فإنه ﷺ بلغه نقض قريش للعهد؛ ذلك أنهم أعانوا بني بكر بالسلاح والرجال على حلفائه ﷺ من خُزاعة، فقد جاءت بنو بكر إلى خُزاعة وهم على ماء لهم يُقال له: الوتير، فَبَيَّتُوهم وقتلوا منهم رجالًا كثيرين.

وكان مع بني بكر رجال من قريش قاتلوا مستخفين، حتى إنهم ألجئوا خزاعة إلى الحرم، ومع ذلك تبعوهم، وكان الباعث على ذلك هو ما كان بين بني بكر وبين خزاعة من الدماء التي كانت قبل بعثة النبي ﷺ، حتى جاء الإسلام وتشاغل الناس بشأن هذا الدين، ثم إنه لما كان صلح الحديبية بين النبي ﷺ وبين قريش، ووقع الشرط بأن من أحب أن يدخل في عَقْد رسول الله وعهده فله ذلك، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فله ذلك؛ فدخلت بنو بكر في عقد قريش ودخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ وعهده.

وكان عدوان بني بكر على خزاعة هو السبب الذي دفع النبي ﷺ إلى أن يعد العدة لفتح مكة؛ لأنهم ساعدوا حلفاءهم على قتال حلفاء النبي ﷺ، وهذا يناقض ما اتفق عليه النبي ﷺ مع قريش في الصلح.

على أنه ﷺ جاءه الخبر من السماء بما فعلت قريش مع خزاعة حتى إن عائشة > أخبرت أنه في صبيحة كانت وقعة بني نفافة وخزاعة بالوتير قال لها النبي ﷺ:

((يا عائشة، لقد حدث في خزاعة أمر))، فقالت عائشة: يا رسول الله، أترى قريشًا تجترئ على نقض العهد الذي بينك وبينهم وقد أفناهم السيف؟ فقالﷺ: ((ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى)).

كما أنه ﷺ سُمع وهو يتوضأ ويقول: ((لبيك لبيك ثلاثًا، نُصِرتَ نُصِرت)) فلما سُئل عن ذلك قال: ((هذا راجز بني كعب يستصرخني ويزعم أن قريشًا أعانت عليهم بكر بن وائل))، ولم تمر ثلاثة أيام حتى جاء عمرو بن سالم الخُزاعي يناشد النبي ﷺ النصر على قريش التي أعانت عليهم بني بكر، كما قدم بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة على رسول الله ﷺ بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم رجعوا إلى مكة، ولكن النبي ﷺ أمرهم أن يتفرقوا وهم راجعون في الأودية حتى لا ترى قريش جمعهم، فتعرف أنهم قدموا على النبي ﷺ.

ب. مجيء أبي سفيان يتلافى خطأ قريش:

ولكن أبا سفيان الذي كان قد خرج بعد أن تشاور مع قريش فيما يصنع بعد أن حدث هذا الحدث الذي لم يكن موافقًا عليه كما يبدو، فخرج أبو سفيان متوجهًا إلى المدينة يطلب مد الصلح مع النبي ﷺ وتأكيده ولم يمض على الصلح إلا أقل من سنتين ومع هذا يذهب ليشد من عقد الصلح وليطلب زيادة المدة، ولعله كان يطمع كما كانت تطمع قريش أن ذلك سوف يحجز النبي ﷺ عن أن ينالهم بما يستحقون من الجزاء على ما فعلوا مع خزاعة.

فجاء أبو سفيان المدينة، وكان النبي ﷺ قد أخبر أصحابه من قبل قائلًا: ((كأنكم بأبي سفيان وقد جاء ليشد العقد ويزيد المدة)) فلم تمضِ إلا أيام قلائل حتى جاء أبو سفيان يطلب الذي أخبر به النبي ﷺ ودخل أبو سفيان على النبي ﷺ فكلمه

فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبي بكر لكي يكلم له النبي ﷺ، ولكنه لم يجد الشفاعة عنده، ثم أتى عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعنده، فلم يجد الشفاعة عندهما، فخرج عائدًا إلى مكة آخذًا بنصح عليٍّ له بأن يجير بين الناس، وأن يلحق بأرضه، وكانت هذه المشورة غاية ما يمكن أن يقدمه عليٌّ إلى أبي سفيان، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره عائدًا إلى مكة.

أمر النبي ﷺ المسلمين بالاستعداد لفتح مكة، وموقف حاطب بن أبي بلتعة، ودعوة الناس للخروج لفتح مكة، والمسير للفتح

أ. أمره ﷺ بالاستعداد لفتح مكة، والنداء في القبائل للمسير للفتح:

وبعد ذلك أمر النبي ﷺ الناس بالجهاز والاستعداد للمسير إلى مكة، وأمر أهله أن يجهزوه ودخل أبو بكر على ابنته عائشة > وهي تقوم في بعض جهاز النبي ﷺ فقال: أي بنية، أمركن رسول الله ﷺ بتجهيزه؟ قالت: نعم، فتجهز أبو بكر ثم قال لعائشة: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدري، ثم إنه ﷺ قد أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتجهيز لذلك وقال ﷺ: ((اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها))، فتجهز الناس لهذا الأمر، وكان من حلمه ورحمته ﷺ أن يبغت قريشًا في مكة وفي دارها حتى تكون على غير عدة فلا يكون قتال ويكون التسليم.

ب. موقفه ﷺ من حاطب لما بعث يحذر قريش:

وعلى الرغم مما عرف المسلمون من أنه ﷺ كان يحب كتمان الأمر في أي وجهة كان يتوجه إليها أو يوجه إليها فإن رجلًا من كبار الصحابة شهد بدرًا هو حاطب

بن أبي بلتعة قام بأمر يناقض هذا، فلقد بعث إلى قريش كتابًا يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطى هذا الكتاب امرأة، وجعل لها جعلًا على أن تبلغه إلى قريش، فخرجت المرأة بعد أن أخذت الكتاب وخبأته في ضفائرها، وعلم النبي ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث عليًّا والزبير ليأتي بكتاب حاطب من هذه المرأة، وقال: انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش، فخرج علي والزبير حتى وجدا المرأة بذلك المكان الذي حدده النبي ﷺ فاستنزلاها وقالا لها: معك كتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئًا فقال لها عليٌّ: ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فلم رأت الجد منهما قالت: أعرضا، فأعرضا عنها فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها، ثم دفعته إليهما فأتيا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: "من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش؛ يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ"، فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا وقال له: ما هذا يا حاطب؟ فقال حاطب: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ولا بدلت ولكني كنت امرًا ملصقًا في قريش -أي ليس منهم- لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة وولد وليس فيهم قرابة وكان من معك لهم قرابات يحمونهم فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإنه خان الله ورسوله وقد نافق، فقال النبي ﷺ: ((إنه شهد بدرًا، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)).

ج. دعوة الناس للخروج لفتح مكة، والمسير للفتح:

فها قد أذن الله ﷻ لرسوله بفتح البلد الحرام والمسير إليه، بعد أن نقضت قريش بنود الصلح "صلح الحديبية"، فلما عزم رسول الله ﷺ على المسير، دعا ﷺ مَن

حول المدينة من الأعراب وبعث المنادين يحثهم على الخروج مع رسول الله ﷺ وكان النداء لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسلًا في كل ناحية حتى قدم إلى المدينة خلائق كثيرة من المسلمين.

وقد خرج رسول الله ﷺ يوم الأربعاء بعد العصر لعشر خلون من رمضان، ونادى مناديه: من أحب أن يصوم فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر، وصام رسول الله ﷺ.

وخرج ﷺ في المهاجرين، والأنصار، وطوائف العرب، وقادوا الخيل، وامتطوا الإبل، وقدّم رسول الله ﷺ أمامه الزبير بن العوام في مائتين من المسلمين، ولما بلغ ﷺ البيداء قال: ((إني لأرى السحاب يستهل بنصر بني كعب)).

ثم إنه ﷺ لما بلغ الكديد بين عسفان وأمج عزم على أن يقدم الأسوة للمسلمين في أن يفطروا؛ لأن الصيام شق عليهم، فاستوى على راحلته ﷺ ثم دعا بإناء من لبن أو ماء فشربه، حتى يراه الناس وهو يفطر، وناول الإناء رجلًا كان إلى جانبه فشرب كما شرب النبي ﷺ وذلك حتى يكون في الفطر عونٌ للناس على المسير.

ثم مضى ﷺ حتى نزل مر الظهران، ومعه عشرة آلاف من المسلمين.

وعمى الله الأخبار عن قريش الذين كانوا على وجل وترقب، وكان أبو سفيان الذي تحمل مشاق التبعات في قيادة أمر قريش ومكة، كان يخرج يتحسس الأخبار، فخرج هو وحكيم بن حزام، وبُديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار، وكان العباس > قد خرج من قبل ذلك بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا، فلقي رسول الله ﷺ بالجحفة، وقيل: بعد ذلك.

وكان ممن لقيه كذلك في الطريق: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عمه، وكذلك: عبد الله بن أبي أمية، لقياه ﷺ بالأبواء، فأعرض ﷺ عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو، حتى قالت له أم سلمة { : "لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك"، وقال عليٌ لأبي سفيان ينصحه حتى ينال عفو النبي ﷺ فقال له: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له كما قال أخوة يوسف ليوسف: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٩١]، فإنه ﷺ لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولًا، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ لما تلا عليه هذه الآية يستعطفه بها: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، فأنشده أبو سفيان أبياتًا منها:

لعمرك إني حين أحمل راية ❖ لتغلب خيل اللاتي خيل محمد

لك المدلج الحيران أظلم ليله ❖ فهذا أواني حين أهدى فأهتدي

هداني هادٍ غير نفسي ودلني ❖ على الله من طردت كل مطرد

فضرب النبي ﷺ في صدره وقال: ((أنت طردتني كل مطرد))، فأسلم أبو سفيان بعد أن كان من أشد الناس على النبي ﷺ في مكة، أسلم وحسن إسلامه بعد ذلك، كان يقول: "بأنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه" وكان رسول الله ﷺ يحبه وقد شهد له بالجنة، وقال: ((أرجو أن يكون خلفًا من حمزة)).

ثم إنه ﷺ كان قد نزل مر الظهران عشاءً فأمر الجيش فأوقد النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار.

إسلام أبي سفيان، ورجوعه إلى قريش يخبرهم بما جاء به ﷺ

وكان العباس مشفقًا على قريش، وعلى ما سوف ينالها على يد رسول الله ﷺ والمسلمين معه، فحرص على أن يبلغ قريش بهذا الأمر الخطير والخطر المحدق بهم والذي أصبح وشيكًا، فخرج يبحث لعله أن يجد بعض الحطابة، أو أحدًا يخبر قريش ليخرجوا فيستأمنوا رسول الله ﷺ قبل أن يدخل مكة عليهم عنوة، ثم إنه ركب بغلة رسول الله ﷺ وخرج لعله يجد من يرسله.

فإذا به يسمع كلام رجل عرف أنه أبو سفيان، وكان قد خرج مع بُديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيران قط ولا عسكرًا، فقال له بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، فعرف العباس صوت أبي سفيان فناداه، فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل فأجابه العباس، وأخبره الخبر بمجيء رسول الله ﷺ وأن هذا عسكر المسلمين، وهذه نيرانهم التي أوقدوها، وقال له: وا صباح قريش والله، فاستشاره أبو سفيان ماذا يفعل؟ فقال له: والله لئن ظفر بك رسول الله ﷺ ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب أبو سفيان خلف العباس، ورجع بُديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام، وجاء أبو سفيان وحده للقاء النبي ﷺ.

ومضى به العباس داخل المعسكر، وكلما مر على نار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وعمه العباس عليها، قالوا: عم رسول الله ﷺ حتى مر العباس بنار كانت لعمر بن الخطاب > فلما عرف عمر من رديف العباس، وعرف أنه أبو سفيان، قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد الذي

أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ يخبره بأمر أبي سفيان، فأسرع العباس فسبقه، ودخل على رسول الله ﷺ وكل هذا حرص من العباس على حياة أبي سفيان، وحياة قريش وأهل مكة كلهم، ودخل عمر بعد العباس، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، فقال العباس: يا رسول الله إني قد أجرته.

ثم جلس العباس إلى رسول الله ﷺ يناجيه، فأخذ برأسه وقال: والله لا يناجيه أحدٌ الليلة دوني، وأكثر عمر القول في شأن أبي سفيان، فقال له العباس: مهلًا يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي ما قلت مثل هذا! يريد أن يستثير عمر، ولكن عمر قال: مهلًا يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أن عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ وقد حسم الأمر: ((اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به)).

فذهب به العباس فلما أصبح غدا به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: ((ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله))، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك!! لقد ظننت أنه لو كان مع الله إلها غيره لقد أغنى عني شيئًا، قال: ((ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟)) قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!! أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئًا، فقال له العباس: ويحك! أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قبل أن تضرب عنقك، فأسلم، وشهد شهادة الحق، فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ يحب الفخر فاجعل له شيئًا، قال: ((نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن)).

ثـم إن رسـول الله ﷺ أراد أن يـرى أبـو سـفيان عظمـة أمـر الجـيش، وعدتـه، وعدده، فأمر العباس عمه أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل، وهو مضيق، حتى يتمكن أبو سفيان من رؤية الجيش وهو يمر في هذا المضيق، وما دام سيمر عند خطم الجبل فإنه سيستغرق وقتًا طويلًا حتى يكون في ذلك إرهابٌ لأبي سفيان؛ لأنه يمكن أن يذهب إلى أهل مكة فيعلمهم بالخبر كله، فإن عينه التي تنظر إلى هذا الجيش، إنما ينظر بها لقريش ولصالحهم ولطلب الأمان لهم.

وكان كلما تمر به جماعة من جنود الله فيراها، فيسأل العباس > عن القبائل قبيلة من بعد قبيلة، فيقول: يا عباس من هذه؟ فيقول العباس: سليم، فيقول أبو سفيان: ما لي ولسليم، ثم تمر به القبيلة فيسأل العباس: من هؤلاء؟ فيقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى مرت القبائل كلها، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها، فإذا أجابه عنها، قال: ما لي ولبني فلان، حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، أي: التي تلبس الحديد، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس! من هؤلاء؟ فقال له: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبل ولا طاقة، ثم قال مخاطبًا العباس: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا، قال العباس مجيبًا له: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن، ثم قال له: النجاء النجاء إلى قومك.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبي سفيان قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة -أي: الكعبة- اليوم أذل الله قريشًا، فلما حاز رسول الله ﷺ أبا سفيان شكا له مقالة سعد، وقال: يا رسول الله أمرت بقتل قومك! ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة، فقال ﷺ: ((وما قال؟)) فأخبر الرسول ﷺ بمقالة

سعد، فقال رسول الله ﷺ: ((كذب سعد يا أبا سفيان؛ اليوم يوم المرحمة، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة، واليوم تكسى فيه الكعبة، واليوم يوم أعز الله فيه قريشًا)).

وكان ممن سمع كلام سعد بن عبادة عثمانُ بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، فقالا لرسول الله ﷺ: ما نأمن أن تكون له في قريش صولة، فطمأنهما رسول الله ﷺ ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، وبذلك لم يخرج عن سعد؛ إذ صار إلى ابنه، حتى لا يكون لذلك أثر في صدر سعد.

وجاء أبو سفيان قريشًا فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمدٌ قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبا سفيان فهو آمن، فانبرت له زوجه هند بنت عتبة فقالت: اقتلوا هذا الحميت الدسم، تريد أن تثير أبا سفيان استعظامًا لهذا القول الذي سمعته منه، ثم قالت له: قُبح من طليعة قوم، فقال لهم: ويلكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه والله قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: وما تغني عنا دارك، فقال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ثم قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

وهكذا كان تيسير الأمان منه ﷺ لأهل مكة، الذين فعلوا به ما فعلوا، وكان أمرهم معه ما علمنا، يريد أن يُبقي عليهم ﷺ.

أوامره ﷺ لخالد ومن معه مكان دخولهم مكة، والقتال عند الخندمة، دخوله ﷺ مكة من كداء، وتحطيمه الأصنام، وعفوه عن قريش

وكان النبي ﷺ قد أمر خالد بن الوليد أن يدخل مكة من أسفلها، وكان على المجنبة اليمنى وفيها: أسلم، وسليم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وقبائل من العرب، وكان أبو عبيدة فقد كان على الرجالة والحسر، أي: الذين ليس لهم خيل ولا دروع.

وقال النبي ﷺ لخالد ومن معه: ((إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم، حتى توافوني عند الصفا))، وكان أمره ﷺ لهم كذلك: ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، واضطرهم لقتالٍ.

وكان بعض رجال مكة ممن أبوا أن يسلموا لأمر طلب الأمان، وعزموا على قتال النبي ﷺ والمسلمين، وهذا كان دربًا من السفه؛ لأن هذا الجمع العظيم لا يمكن أن يقاوم أبدًا.

ومع هذا فقد أجمع عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وجماعة من أهل مكة الذين غرروا بأناس كثيرين، فاجتمعوا عند الخندمة وهو جبل بأسفل مكة ليتصدوا للمسلمين، فلما لقيتهم جموع المسلمين ناوشوهم شيئًا هينًا من القتال، ولكن خالدًا بعزمه وشدة بأسه فرَّقهم، وقتل منهم من قتل.

وفر هذا الرجل مع من فر من جموع من تصدى لخالد، ثم عاد سريعًا إلى بيته يطلب من امرأته أن تغلق الباب.

كان هذا من ناحية الجنوب من أسفل مكة.

دخوله ﷺ مكة من كداء، وتحطيمه الأصنام، وعفوه عن قريش:

أما رسول الله ﷺ فإنه دخل من كداء، مستبشرًا بشعر حسَّان بن ثابت > الذي قاله في عمرة الحديبية، وكان مما جاء فيه:

عدمنا خيلنا إن لم تروْها ❖ تثير النقع موعدها كداء
ينازعنا الأعنة مصعداتٍ ❖ على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطراتٍ ❖ تلطمهن بالخمر النساء

ولذلك فإن النبي ﷺ لما ذكر هذا الشعر، وسأل أبا بكر عنه فرواه له فقال: ((ادخلوا من حيث قال حسان، وهو يبتسم)).

ودخل رسول الله ﷺ مكة، مؤيدًا بنصر الله ﷻ، دخل ﷺ في كتيبته وقد جمعت قريش أوباشها، وهم الأخلاط الذين غررت بهم، وقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا من الطاعة؛ ولذلك فإن رسول الله ﷺ لما رأى هؤلاء الذين جمعتهم قريش نادى أبا هريرة، وأمره أن يدعو الأنصار للنبي ﷺ وقال: ((لا يأتيني إلا أنصاري)) فجاءوا إلى رسول الله ﷺ وأطافوا به، فقال لهم: ((أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى: احصدوهم حصدًا حتى توافوني بالصفا)) فانطلق الأنصار مستجيبين لأمر رسول الله ﷺ فما يشاء واحد منهم أن ينال من هؤلاء أحدًا إلا قتله، وما تمكن واحدٌ من هؤلاء أن يقوم بأمرٍ أمام المسلمين.

ثم ركزت راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح.

وفي هذا الموقف المهيب وذلك اليوم العظيم دخل رسول الله ﷺ ظافرًا منتصرًا بأمر الله ﷻ ولكنه كان يبدي الخشوع لله ﷻ حتى قارءً سورة الفتح، وسورة النصر، ويرجع الآيات فيهما ترجيعًا ﷺ.

ثم إنه ﷺ نهض والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر فاستلمه، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس ويقول: ((جاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا، جاء الحق، وما يبدئ الباطل وما يعيد)).

ولما أكمل ﷺ طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بفتحها، فدخلها فرأى فيها الصور، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- يستقسمان بالأزلام فقال: ((قاتلهم الله، والله إنِ استقسما بها قط))،

أي: ما استقسما بها قط، ورأى في الكعبة أشياء من علامات الوثنية فكسرها بيده ﷺ ثم أمر بالصور فمحيت.

أغلق النبيﷺ عليه باب الكعبة، وكان معه أسامة وبلال، فاستقبل الجدار المقابل للباب، حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلى، ثم دار في البيت وكبَّر في نواحيه، ووحَّد الله ﷻ ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنع بهمﷺ.

فأخذ بعضادتي الباب، وقريش تحته، فقال: ((لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ثم قال: يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظيمها، وتعظمها بالآباء، الناس لآدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم قال موجهًا كلامه إلى قريش: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟ قالوا: خيرًا أخٌ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء)).

صلاة الفتح، وتأمينه ﷺ الناس كلهم إلا تسعة نفر

دخلﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب فاغتسل، وصلى ثماني ركعات في بيتها، وكان الوقت ضحى، فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما كانت هذه صلاة الفتح.

ولما استقر أمر الفتح، أمن رسول الله ﷺ الناس كلهم إلا تسعة نفر، فإنه ﷺ أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، هم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح،

وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن خطل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب.

وقد كان من أمر هؤلاء ما يحتم قتلهم، فإن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وهاجر، ثم ارتد ولحق بمكة، فلما كان يوم الفتح استجار بعثمان بن عفان، فجاء به رسول الله ﷺ ليبايعه، ولكنه ﷺ أمسك طويلًا عنه ثم بايعه، وقال: ((إنما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه))، فقال له رجل: هلا أومأت إليّ يا رسول الله، فقال ﷺ: ((ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين))، وهكذا أراد الله ﷻ بنجاة هذا الرجل الذي سوف يكون له في الإسلام وفي الفتوحات أمر عظيم بعد ذلك، فإنه كان قائد المسلمين في وقعة ذات الصواري التي أنزلت الهزيمة الكبرى بأسطول الروم سنة أربع وثلاثين للهجرة.

أمَّا مقيس بن صبابة - أخو هشام بن صبابة الذي قتله أحد الأنصار خطًا في غزوة بني المصطلق-، فجاء هذا الرجل وأعلن إسلامه وطلب دية أخيه، فأعطاه النبي ﷺ هذه الدية، ولكنه تربص بقاتل أخيه فقتله، ثم ارتد وعاد إلى مكة، فاصبح بذلك مرتد وقاتل، يجمع بين السوأتين؛ لذلك أمر النبي ﷺ بقتله.

أما ابن خطل فإنه كذلك كان قد أسلم، وهاجر إلى المدينة، فسماه ﷺ عبد الله بعد أن كان اسمه عبد العزى، واستعمله ساعيًا، وأخدمه رجلًا من خزاعة، ولكن هذا الرجل أبطأ عليه يومًا فنام عن إعداد الطعام له فضربه ضربًا أفضى إلى قتله، ثم ارتد عن الإسلام وعاد إلى مكة، وكان يقول الشعر يهجو به النبي ﷺ وكانت له قينتان تغنيان بهجوه ﷺ، كما أنه لما عزم رسول الله ﷺ على دخول مكة كان فيمن تصدى لهذا الدخول معاندًا، ولكنه بعد أن لبس عدة الحرب فرَّ

أمام المسلمين، واستتر بأستار الكعبة، فلما أمسكوا به جيء به فقتل بين زمزم ومقام إبراهيم ﷺ.

أما هبار بن الأسود: فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ بعد خروجها من مكة بعد بدر، ونخس راحلتها حتى سقطت > على صخرة فأسقطت جنينها، وظل وجعها بها حتى مرضت وماتت، ففر لما دخل النبي ﷺ مكة، ثم استؤمن له وأسلم وحسن إسلامه.

كذلك استؤمن رسول الله ﷺ لسارة، ولإحدى القينتين، فأمنهما ﷺ فأسلمتا. كما قبل ﷺ جوار بنت عمه أم هانئ لما أجارت رجلين من أحمائها هما: الحارث بن هشام بن المغيرة، شقيق أبي جهل الذي أسلم وحسن إسلامه واستشهد في خلافة عمر > . أما الثاني: فهو زهير بن أبي أمية بن المغيرة، وقيل: إنه عبد الله بن أبي ربيعة.

ثأر خزاعة، وسياسته ﷺ في تأمين عتاة المشركين

أذن النبي ﷺ خزاعة أن تأخذ بثأرها من بني بكر، فأحل لهم ذلك حتى عصر ذلك اليوم، ثم أمر بالكف عن القتل والقتال، ولما بلغه ﷺ أن خزاعة قتلت رجلًا من بني بكر بمزدلفة في اليوم الثاني غضب لذلك وودى ذلك الرجل، وقال: ((إنه من قتل بعد ذلك قتيلًا فيترك الأمر لأولياء دمه، إن شاءوا قبلوا الدية، وإن شاءوا كان لهم القصاص))، فكفت خذاعة لذلك.

وكان للنبي سياسة في تأمين عتاة المشركين، فها هو فضالة بن عمير بن الملوح وقد هَمَّ بما يمنع الله نبيه ﷺ منه؛ حيث إنه حاول أن يقتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: ((أفضالة؟)) قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: ((ماذا كنت تحدث به نفسك؟)) قال: لا شيء، كنت أذكر

الله، فضحك النبي ﷺ ثم قال: ((استغفر الله))، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلي منه ﷺ.

أمَّا صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، فقد فرا من مكة خوفًا منه ﷺ لكفرهما، ولوقوفهما مع الذين تصدوا للمسلمين عند الخندمة، فلما فر صفوان استأمن له عمير بن وهب النبي ﷺ فأمنه ﷺ فخرج عمير بن وهب حيث لحقه بجدة وهو يريد أن يركب البحر فارًّا منه ﷺ فرجع به بعد أن قال: اجعلني بالخيار في هذا الأمر شهرين، فقال النبي ﷺ: ((له أربعة أشهر ﷺ))، كل ذلك استمالة لأمثال هؤلاء.

كذلك فإن عكرمة بن أبي جهل، لما فر كذلك وأراد أن يلحق باليمن استأمنت له النبي ﷺ زوجه أم حكيم بنت الحارث، وكانت قد أسلمت فتبعته، وبلغته بأمان رسول الله ﷺ إياه، فعاد إلى مكة مسلمًا وحسن إسلامه، وكان من قادة المسلمين بعد ذلك. كذلك أسلم عتبة ومعتب ولدا أبي لهب عم رسول الله ﷺ سأل عنهما النبي ﷺ عمه العباس فجاء بهما إليه ﷺ فأسلما، وبايعا وحسن إسلامهما.

هكذا نرى رحمته ﷺ بذوي قرباه، وأولئك الذين آذوه أشد الأذى، وكان هذا من فضل الله على هؤلاء الذين دخلوا هذا الدين العظيم في هذا اليوم المبارك يوم الفتح العظيم.

هذا، وقد جاء أبو بكر رضي الله عنه بأبيه أبي قحافة، بعد أن دخل النبي ﷺ المسجد، جاء يقود أباه كأن رأسه ثغامة من البياض، فقال ﷺ: ((هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه)) فقال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك

من أن تمشي إليه، فأجلسه ﷺ ثم مسح صدره، فأسلم أبو قحافة، وهنا هنَّأ النبي ﷺ أبا بكر بإسلام أبيه.

خوف الأنصار من إقامته ﷺ بمكة، وأعماله بعد الفتح

ولما فتح الله مكة على رسول الله ﷺ وهي بلده الحبيب، قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها؟ وكان النبي ﷺ يدعو ربه على الصفا، فلما فرغ من دعائه قال: ((ماذا قلتم؟))، قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ((معاذ الله، المحيى محياكم، والممات مماتكم))، وهنا وفَّى لهم ﷺ بما وعدهم به ليلة العقبة، لما قالوا: أرأيت إن أظهرك الله على الناس أن ترجع إلى قومك؟ قال ﷺ يومها: ((بل المحيى محياكم والممات مماتكم)) وهو أبر من وفَّى ﷺ.

وكان من أعماله ﷺ بعد الفتح:

هو أنه جدد أنصاب الحرم، وهي الأحجار التي تحدد حدود الحِل والحَرم، وكان أول من حددها وأقامها إبراهيم ﷺ علمه جبريل أماكنها ودله عليها فوضعها في أماكنها، ثم جددها قُصي جد النبي ﷺ حتى كان يوم الفتح فجدد ﷺ أنصاب الحرم، وبعث لهذا تميم بن أسد الخزاعي فقام بهذا العمل.

ثم إنه ﷺ بث السرايا لتحطيم الأوثان من حول مكة، وكانت قد كسرت من حول الكعبة من قبل، وأمر ﷺ مناديًا ينادي بمكة: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره))، هكذا كان شأن الأوثان آخر الأمر بعد أن أقامها عمرو بن لحي الخزاعي في مكة وعند الكعبة، وبثها في رجاء الجزيرة من مكة.

ولقد كان من أثر هذا الفتح العظيم وإسلام قريش أن بادرت القبائل إلى الإسلام ؛ لأن فتح مكة ، وإسلام قريش زعيمة الوثنية والقائمة على أمرها كان باعثًا للعرب أن يدخلوا في الإسلام ؛ لأنهم ما عرفوا الوثنية إلا من مكة التي خرجت منها.

موقف الرسول ﷺ بعد فتح مكة ، إسلام كعب بن زهير

١. موقف الرسول ﷺ بعد فتح مكة :

بعد فتح مكة ، أكثر رسول الله ﷺ من العطايا للمؤلفة قلوبهم ، والذين كانوا وشيكي عهد بإسلام ، وبيَّن ﷺ أن عطاءه الكثير إنما كان لمناسبة هذا الأمر ، وأنه ﷺ ترك أُناسًا لم يعطهم لثقته في إيمانهم بالله ﷻ.

وكان للأنصار موقفًا من هذا العطاء الذين لم ينلهم شيء منه ، يقول أبو سعيد الخدري > مبينًا هذا الموقف : "لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من العطايا في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء - وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالة -أي : الكلام- حتى قال قائلهم : لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه ، ثم إن سعد بن عبادة دخل عليه وقال : يا رسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك وعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء ، فقال النبي ﷺ لسعد : ((فأين أنت من ذلك يا سعد؟)) قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا رجلًا من قومي. فقال ﷺ : ((فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة)).

فجمع سعد الأنصار، وجاء رجال من المهاجرين، فدخلوا معهم، ثم جاء آخرون فردهم -وذلك لحكمة أرادها النبي ﷺ في إذنه لمن دخل من المهاجرين، ورده غيرهم- فلما اجتمعوا جاء النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: ((يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، واجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم)) قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل، ثم قال: ((ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟)) قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ -اعترافًا منه ﷺ بدورهم-: ((أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصدقتم، آتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا)) واللعاعة هي الأمر اليسير ((تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ والذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، ثم دعا لهم ولأبنائهم، فقال: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار)).

فأثَّرت هذه الكلمات الصادقة في نفوسهم، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا، ثم انصرفوا وتفرقوا.

وهكذا تم الأمر فيما تعلق بغزوة حنين والطائف، وما تم من قسم الفيء على النحو الذي رأينا ورضي كل أناس، حتى مَنْ لم ينل شيئًا من هذا العطاء، ثم إنه ﷺ -بعد هذا كله- خرج في عمرة من الجعرانة، وأمر ببقايا الفيء فحبس بمجنة.

ثم إنه لما فرغ ﷺ من هذه العمرة انصرف راجعًا إلى المدينة، بعد أن استخلف عتاب بن أسيد على مكة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين،

ويعلمهم القرآن، وكان اختياره ﷺ لمعاذ اختيارًا صائبًا، حتى يفقه أهل مكة وهو الفقيه ويعلمهم.

وهكذا رد الله على أهل مكة ذلك الفضل الذي قام به رجل منهم يعلم الأنصار ويفقههم في الدين -أول الأمر- وهو مصعب بن عمير > في إسلام أهل المدينة وتعليمهم الدين والقرآن، ثم هذا رجل من أهل المدينة يأتي ليعلم أهل مكة الدين والقرآن، وكان قدوم النبي ﷺ إلى المدينة بعد هذا الجهاد كله في بقية ذي القعدة أو أوائل ذي الحجة، وإن كان ابن هشام يحدد هذا الرجوع بأنه كان لستٍّ ليالٍ بقين من ذي القعدة.

ولما دخل موسم الحج كان من حكمته ﷺ أن يدع العرب يحجون على ما كان عليه أمرهم؛ ولذلك حج بالناس عتاب بن أسيد، وحج العرب على ما كان عليه أمرهم من قبل.

٢. إسلام كعب بن زهير:

على أنه من الأحداث التي كانت خلال هذه الفترة إسلام كعب بن زهير، وهو من الشعراء المجيدين، وابن زهير بن أبي سلمى الشاعر المعروف، وكان أخوه بجير قد أسلم، فلما علم كعب بإسلام أخيه قال شعرًا، أهدر النبي ﷺ دمه من أجله.

فلما علم أخوه بذلك بعث إليه ينصحه بأن: يأتي تائبًا إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل من جاءه تائبًا مسلمًا، فجاء كعب بن زهير إلى النبي ﷺ ودخل المدينة، ونزل على رجل من جهينة صديق له، ثم دخل على رسول الله ﷺ وهو بالمسجد بعد أن صلى الصبح، وقال له: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: ((نعم))

فقال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير، ثم إنه أنشد رسول الله ﷺ قصيدته التي مدح فيها رسول الله ﷺ وذكر فيها المهاجرين بكل خير، ولم يشر إلى الأنصار فيها، ذلك أن رجلًا من الأنصار لما عرف به -وهو يصافح النبي ﷺ قال: مرني يا رسول الله أضرب عنق هذا الكافر فكان لهذا القول أثره في نفس كعب فلم يذكر الأنصار في قصيدته.

ولذلك فإنه بعد أن أنشد رسول الله ﷺ قصيدته التي تسمى بانت سعاد، وذكر فيها رسول الله ﷺ بمدح عظيم يليق بانتساب هذا الرجل إلى بيت الشعر العريق -بيت زهير بن أبي سلمى- وكانت القصيدة تسجل ما كان فيه كعب من الخوف ومن إرجاف الناس به، حتى جاء رسول الله ﷺ وقال:

نبئت أن رسول الله أوعدني ❖ والعفو عند رسول الله مأمول

وكان مما قاله فيه ﷺ:

إن الرسول لنور يستضاء به ❖ مهند من سيوف الله مسلول

ولما انتهى قال له النبي ﷺ: ((لولا ذكرت الأنصار بخير، فإنهم لذلك أهل))، فأنشد كعب هذه القصيدة في مدح الأنصار، والتي منها:

من سره كرم الحياة فلا يزل ❖ في مقنبٍ من صالح الأنصار

ورثوا المكارم كابرًا عن كابر ❖ إن الخيار هم بنو الأخيار

وإلى غير ذلك مما استرضى به الأنصار في قصيدته بإيعاز منه ﷺ.

ومما لا شك فيه أن دخول أمثال هؤلاء الشعراء المجيدين في الإسلام إنما هو كسب عظيم لهذا الدين.

غزوة حنين

عناصر الدرس

العنصر الأول :	المسير إلى حنين، وهزيمة هوازن	٢٩٥
العنصر الثاني :	ثباته، وإدارته ﷺ للمعركة، وأثر ذلك في تحقيق النصر	٢٩٩
العنصر الثالث :	شهداء المسلمين، وقتلى المشركين، حصار المسلمين أمام هوازن، وثباتهم	٣٠١
العنصر الرابع :	هزيمة هوازن وتفرقها ، ملاحقة المسلمين هوازن حيث تفرقت، شهداء المسلمين وقتلى المشركين	٣٠٤
العنصر الخامس :	موقفه ﷺ من بني سعد بن بكر أخواله من الرضاع، سياسة مالك بن عوف في الإعداد لقتال المسلمين	٣٠٥
العنصر السادس :	تقسيمه ﷺ الفيء على المسلمين	٣٠٨

المسير إلى حنين، وهزيمة هوازن

عزم النبي ﷺ على المسير إلى حنين؛ حيث إن قبيلة هوازن كانت قد أعدت عدتها، وجمّعت جموعًا كثيرة تحت قيادة مالك بن عوف النصري، وقد بلغ الجمع نحوًا من عشرين ألفًا من القبائل، فقد اجتمعت ثقيفٌ كلها وكذلك مضر، وجشم، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال.

وكان مالك بن عوف لما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ ساق الناس كلهم، وأموالهم ونساءهم، وأبناءهم معهم، ونزل بأوطاس، ثم قال مالك للناس: إذا رأيتموهم –أي: المسلمين- فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد.

كما أنه بعث عيونًا من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، قالوا: ويلكم، ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالًا بيضًا على خيل بلق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، وكانت جنود الله ﷻ التي أيّد بها نبيه ﷺ، ولكن ما ردَّ ذلك مالكًا عن عزمه.

وكان ﷺ لما سمع بأمرهم، بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم أمرهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم وسمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أخبر رسول الله ﷺ الخبر.

فلما أجمع ﷺ السير إليهم علم أن صفوان بن أمية عنده أدراع وسلاح، فأرسل إليه وهو يومئذ على شركه، فطلب منه أن يعيرهم سلاحه حتى يلقى المسلمون

عدوهم، فلما قال صفوان: أغصبًا يا محمد؟ قال: ((بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك))، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، كما أنه حملها إليهم وتكفل بذلك.

وخرج ﷺ بمن كان معه من المسلمين الذين فتح الله بهم مكة، وهم عشرة آلاف، وألفان من أهل مكة، فصاروا اثني عشر ألفًا.

لم يكن لرسول الله ﷺ خروج في غزوة من قبل بهذا العدد العظيم، وهنا قال الناس لن نغلب اليوم من قلة، فغضب النبي ﷺ لذلك، وكان هذا الأمر الذي ذكرته آية سورة براءة، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

وهنا كان إعداد مالك إعدادًا محكمًا للقاء المسلمين، فإنهم سبقوا المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثوا كتائبهم في شعابه، ومنعطفاته، وبين أشجاره، وكانت خطتهم محكمة، تتمثل في مباغتة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر، الذي أتعب المسلمين في الوصول إليه والنزول إليه، كما كانت معنويات هوازن عالية؛ لأن قائدهم أوضح لهم أن المسلمين لم يلقوا مثلهم من قبل من حيث معرفتهم بالحرب، وشجاعتهم، وكثرتهم، وسلاحهم.

وقد تقدم المسلمون في الوادي قبل طلوع الفجر تتقدمهم الخيالة بقيادة خالد بن الوليد وفي طليعتها بنو سليم، ثم بقية الجيش في صفوف منتظمة.

ولما بدأ القتال تراجعت طلائع هوازن أمام تقدم المسلمين تاركين بعض الغنائم، لعلها كانت استدراجًا للمسلمين الذين أقبلوا على جمع الغنائم، وكأنهم حسبوا

أن هوازن قد هزمت، ولكن هوازن فاجأتهم بالسهام التي انهالت عليهم، والتي أصابتهم وما أخطأتهم.

ولعل فتح مكة حينما جاء على ذلك النحو السهل وكثرة العدد جعل بعض المسلمين يدخلون هذه المعركة بغير اكتراث؛ حيث إن بعض المسلمين تعجلوا بالخروج دون استكمال عدة القتال.

وهنا كان هول المفاجأة التي كانت من هوازن، فرشقوا المسلمين رشقًا بسهامهم، كما وصف البراء بن عازب أحد شهود المعركة من الصحابة حينما قال: فانكشفت خيول المسلمين، ثم المشاة من بعدهم، وفر الطلقاء أي: أهل مكة، ثم الأعراب، وكذلك بقية الجيش، حتى لم يصمد إلا رسول الله ﷺ مع فئة قليلة حوله صمدت بصموده، منهم: العباس عمه > وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر وعمر، وعبد الله بن مسعود، وجماعات.

ثم إنه ﷺ أمر عمه العباس وكان جهوري الصوت شديد الصوت أن ينادي في المسلمين ليرجعوا ويستحثهم يا أهل السمرة -أي: أهل الشجرة التي بايعوا النبي ﷺ عندها. وكان ذلك سببًا في عودة وإياب المسلمين إلى النبي ﷺ الذي ثبت في هذا الموقف وكان يقول: ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ﷺ)).

وكان لثبات النبي ﷺ ونداء العباس الأثر في أن يرجع المسلمون إلى رسول الله ﷺ يتلاحقون بعضهم على أثر بعض يلبون هذا النداء، حتى إن بعضهم ممن لم يتمكن أن يثني بعيره كان ينزل عنه آخذًا سلاحه ويترك البعير، فاشتد القتال من جديد، وهنا قال النبي ﷺ: ((الآن حمي الوطيس، ثم إنه # أخذ حفنة من التراب فرمى بها في وجوه الكافرين، وهو يقول: شاهت الوجوه، انهزموا ورب محمد)) وهنا كان أمر الله ﷻ ونصره له، فإن هذه الكف من الحصباء أصابت

عيون القوم وأفواههم، حتى إن أبناء بعض من شهدوا الوقعة مع هوازن قالوا: فما منا رجل إلا وقد امتلأت عينه وفمه بالتراب من هذه الحفنة التي رمى بها النبي ﷺ.

وهكذا تحققت الآية حينما أعجبتهم كثرتهم، فلما فروا على رسوله وعلى المؤمنين وأمده بجنود من عنده وهنا تكمن الآية: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة٢٥ :٢٦] وهكذا كانت الجولة الثانية بعد أن فر المسلمون ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ كانت هذه الجولة فيها نصر الله ﷻ.

فلم تلبث هوازن ومن معها حتى فروا راجعين يتعقبهم المسلمون بعيدًا عن حنين، قد تركوا وراءهم قتلى كثيرين، وأموالًا عظيمة، ونساءهم، وأبناءهم، ولم يتمكنوا من أن ينسحبوا على نظام حتى إنهم تركوا خلفهم شراذم الجيش تمكن المسلمين من القضاء عليهم بسهولة، فكانت خسارتهم في الأرواح خلال الهزيمة أعظم من خسارتهم في المعركة؛ لأنه ﷺ أمر المسلمين بتعقب الفارين وقتلهم لإضعاف شوكتهم حتى لا يعودوا إلى الاجتماع أبدًا بعد ذلك.

وقد نهى ﷺ عن قتل النساء عندما رأى امرأة مقتولة فقال: ((ما كانت هذه تقاتل))، وكذلك نهى عن قتل الذراري لما بلغه أن بعض المسلمين يقتلونهم، بحجة أنهم أولاد المشركين، فقال ﷺ: ((أو هل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها)).

ثم إنه ﷺ لم يعنف أحدًا مِمَّنْ فَرَّ عنه، بل لما قالت له أم سليم الأنصارية أن يقتل الطلقاء لفرارهم، قال: ((إن الله قد كفى وأحسن)).

وهكذا كانت خسارة هوازن وثقيف جسيمة على الرغم من هذا العدد الذي خرجوا به، والعدة، والتخطيط الذي أعدوا به للمعركة، فكانت السبي الذي وقع في نسائهم وذراريهم قد بلغ ستة آلاف، أما الأموال: فكانت أربعة آلاف أوقية من الفضة، وأما الإبل: فكانت أربعة وعشرين ألفًا، وأما الشاة: فكانت أكثر من أربعين ألف شاة، وكان معهم خيل، وبقر، وحمير. وقد أمر ﷺ بحبس الغنائم في الجعرانة، حتى يعود من حصار الطائف.

وهكذا انتهت هذه الغزوة، وهذه الموقعة التي كان فيها نصر الله ﷻ عظيمًا على المسلمين، وقد انهزمت هوازن، وتفرقت في الجبال والأودية، وتحصن مالك بن عوف النصري الذي قاد هذه الجموع بالطائف بعد أن فر إليها، في حين عسكر آخرون منهم بأوطاس وهو وادٍ بين الطائف وحنين، كما عسكر بنو غيرة من ثقيف في نخلة، ومع هذا فإنه ﷺ اتبعهم بخيل المسلمين التي تبعتهم حتى لا يجتمع أمرهم من بعد ذلك.

ثباته، وإدارته ﷺ للمعركة، وأثر ذلك في تحقيق النصر

فقد رأينا كيف أتم الله نعمة النصر على المسلمين، وأيد رسوله ﷺ والمؤمنين معه بجنود من عنده، حتى تم هذا النصر، على الرغم من أن بداية الأمر كانت -كما رأينا. إعدادًا قويًّا من هوازن، ومفاجأة تامة للمسلمين أذهلتهم في بداية الأمر.

وهنا نرى الحكمة في القيادة، وثبات النبي ﷺ الذي كان له أكبر الأثر في أن يفيء المسلمون ويرجعوا إلى رسول الله ﷺ، وهنا براعة القيادة التي عهدناها فيه ﷺ إنما تكون القيادة الحقة عند نزول البأس والضر بالجنود والرجال، ولكن ثبات القائد هو الذي يكون سببًا -بأمر الله- في أن يجتمع الناس لاستئناف القتال على ثبات وعزيمة وقوة.

وما أشبه هذا الموقف بموقف الفرار يوم أحد، حين دعاهم النبي ﷺ وكانوا لا يلوون على أحد، ثم كان في ثباته ﷺ وهو بجراحاته التي أصابته، كان بهذا الثبات خير أسوة لهم في أن يرجعوا ويثبتوا على الرغم مما أصابهم.

ولم يستشهد من المسلمين في هذه الموقعة إلا أربعة من المسلمين، وكانت هناك إصابات في المسلمين بجراح لم تفض بهم إلى الموت.

ولعل الخسارة الطفيفة التي أصابت المسلمين إنما كانت بسبب أنه لم يكن هناك التحام في الجولة الأولى، وإنما كان التراشق بالسهام، ثم إنهم في الجولة الثانية كان القتل مستحرًّا في هوازن ومن جمعتهم لقتال المسلمين.

على أن هوازن بعد أن كانت الريح مع المسلمين بنصر الله وتأييده لما انهزمت تفرقت في الجبال والأودية، وذهب رئيسهم مالك بن عوف إلى الطائف يتحصن بحصونها، في حين عسكر بعضهم بأوطاس وهو الوادي الذي يقع بين الطائف وحنين، كما عسكرت بنو غيرة من ثقيف في نخلة بين مكة والطائف.

وهنا كان الأمر من النبي ﷺ بأن يتبع المسلمون هؤلاء حيث سلكوا.

فتبعت خيل المسلمين من سلك من هوازن في نخلة، وأرسل النبي ﷺ أبا عامر الأشعري إلى أوطاس فقاتلهم، وفي هذه المعركة -معركة أوطاس- قتل دريد بن الصمة، كما أن في حين أصيب أبو عامر الأشعري بسهم فاستشهد بعد أن استخلف أبا موسى الأشعري، وأوصاه بتبليغ السلام لرسول الله ﷺ وأن يطلب منه أن يستغفر له.

وهكذا آلت الإمارة على هذا الجند الذي خرج يتعقب الفارين في أوطاس إلى أبي موسى الأشعري ابن عم أبي عامر، ففتح الله على يديه وهزمهم.

وقد استحر القتل في بني رئاب من بني نصر حتى إن عبد الله بن قيس وكان مسلمًا وهو من بني رئاب ذهب إلى رسول الله ﷺ يقول: هلكت بنو رئاب، فقال النبي ﷺ: ((اللهم اجبر مصيبتهم)).

ولقد كان من رحمة رسول الله ﷺ أنه نهى عن قتل الضعفاء من النساء والذراري، ومن لا حيلة له في القتال، ولما امرأة قتلت وعلم أن خالدًا قتلها فقال رسول الله ﷺ: ((أدرك خالدًا فقل له: إن رسول الله ﷺ ينهاك عن أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا -أي الأجير-)).

ولقد جاءت الشيماء أخت النبي ﷺ من الرضاعة فأكرمها ﷺ وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، وخيرها بين أن تبقى عنده مكرمة، أو أن ترجع إلى قومها بعد أن يمتعها أي: يزيد في عطائها مبالغة في تكريمها، ولكنها اختارت أن ترجع بعطاء رسول الله ﷺ فأعطاها، وتوسع لها في العطاء، وردها إلى قومها.

شهداء المسلمين، وقتلى المشركين، حصار المسلمين أمام هوازن، وثباتهم

أما شهداء المسلمين في حنين فكانوا أربعة شهداء هم:

أيمن بن عبيد، ويزيد بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب، وسراقة بن الحارث بن عدي، وأبو عامر الأشعري الذي كان قائدًا للمسلمين الذين توجهوا إلى أوطاس.

ثم إنه ﷺ أمر بجمع السبايا -سبايا حنين- والأموال التي أصابها المسلمون، وجعل على هذه المغانم مسعود بن عمر الغفاري، ثم أمر ﷺ بالسبايا والأموال إلى الجعرانة فحبست بها، وكان ﷺ يقصد من حبسها بالجعرانة حتى تسلم

هوازن، وتجيء قبل أن يحدث قسم لهذه الغنائم، ولعله كان يود أن يعاملهم معاملة قريش؛ لأن إسلام هؤلاء وقوتهم إنما يدعم قوة الإسلام في هذه النواحي.

مسير المسلمين لحصار الطائف، وتطوير أساليب الحصار:

بعد هذا توجه رسول الله ﷺ إلى الطائف التي تحصن بها الفلول من هذا اللقاء في حنين، وقد تحصنت ثقيف وكان معهم مالك بن عوف قائد هوازن.

وكانت الطائف تمتاز بموقعها الجبلي، وبأسوارها القوية، وحصونها التي كانت تعينهم على الصمود والدفاع، ولم يكن إليها سبيل سوى الأبواب التي أغلقتها ثقيف بعد أن أدخلت من الأقوات ما يكفي لطول الحصار من النبي ﷺ، وهيأت من وسائل الحرب والدفاع ما يكفل لها طول الصمود.

ولم يكن أمام المسلمين إلا أن يحاصروا الطائف وأن يشتدوا في حصارها، وكانت مدة الحصار نحوًا من خمسة عشر يومًا،

فسلك المسلمون في تقدمهم نحو الطائف الطريق القديم الذي يدخل الطائف من ناحية الجنوب، فكان يستحيل اقتحامها من ناحية الشمال، لأن التضاريس الجبلية المعقدة التي تعطيها مناعة وتحصينًا زائدًا.

ثم إنه ﷺ أراد أن يحول بين ثقيف وبين إمدادها من هوازن من الشرق، ومن جنوب الطائف.

هذا وقد نزل المسلمون قريبًا من حصون الطائف؛ ولذا فإنهم كانوا في متناول سهام ثقيف، فأصيب بعضهم فتحولوا بعسكرهم إلى الموضع الذي بنى فيه النبي ﷺ مسجده وهو المعروف اليوم بمسجد عبد الله بن عباس، وكان الطائف قديمًا إلى الجنوب الغربي من هذا المسجد.

ولعلنا نلاحظ أن هذه المعركة من أولها في حنين وفي حصار الطائف إنما كانت السهام تلعب دورًا كبيرًا في اللقاء.

ومن ثم فقد استخدم المسلمون في حصار الطائف آلة من الخشب التي كانت تعرف باسم الدبابة كان يدخل فيها الرجال يحتمون من وابل السهام، لأنها كانت مصنوعة من الخشب السميك المغلف بالجلود، وهي مركبة على عجلات مستديرة، فكانوا يحتمون بها، ويمضون تحتها حتى يصلوا إلى الأسوار، يتقون بها إصابات السهام، وهذه أول مرة يستخدم المسلمون فيها آلات مثل هذه الآلات لضرب الحصون ونقبها.

وكان حصول المسلمين على هذه الآلة حينما جاء خالد بن سعيد بن العاص بمنجنيق، ودبابتين من جُرَش اليمانية التي اشتهرت بصنع أمثال هذه الآلات وهي في أعلى وادي بيشة.

وكان لا بد أن يتخذ المسلمون في حصار الطائف أمورًا تطور دفاعهم وأساليبهم في القتال، ومن ثم استعملوا هذه الآلة، وكذلك استخدم النبي ﷺ المنجنيق، وكان ذلك الاستعمال أول أمره في حصار الطائف كذلك.

ولما لم يكن متوفرًا عند المسلمين من أمثال هذه الآلات التي تستخدم لنقب الأسوار، أو فتح الأبواب، فإن حصار المسلمين لم يكن له أثر واضحٌ لاقتحام الطائف وأسوارها، وهنا أمر النبي ﷺ بتحريق بساتين العنب، والنخيل في ضواحي الطائف، حتى يكون في هذا أسلوب ضغط على ثقيف التي لما رأت عزم النبي ﷺ على هذا الأمر ناشدته ألا يفعل فتركها بعد أن أحدثت هذه المحاولة أثرها في إضعاف معنوياتهم، ولعل هذا يذكرنا بأمره ﷺ مع بني النضير حينما أمر بقطع نخيلهم وتحريقها، نكاية في العدو حتى يكون ذلك أدعى إلى استسلامه، فليس هذا تخريبًا وليس هذا فسادًا، وإنما هي أساليب تباح في أمثال هذه المواقف، وبخاصة مع أعداء هذا الدين العظيم.

هزيمة هوازن وتفرقها، ملاحقة المسلمين لهوازن حيث تفرقت، شهداء المسلمين وقتلى المشركين

وجه ﷺ نداءً إلى عبيد الطائف أن مَنْ يخرج ينزل منهم من حصون الطائف، إلى المسلمين فهو حر؛ ولذلك خرج وتسلل من عبيد الطائف ثلاثة وعشرون من عبيدهم، منهم أبو بكرة الثقفي الذي سمي بهذا الاسم لبكرة تتدلى بها من أسوار الطائف وحصونها فأسلم؛ هذا ولقد حاول المسلمون جاهدين في أن يرشقوا ثقيفاً بالسهام، ولكن لم يجد هذا الأمر.

وقد كثرت الجراحات في المسلمين، واستشهد منهم اثنا عشر رجلًا، في حين لم يقتل من هؤلاء المشركين سوى ثلاثة نفر، بسبب امتناعهم بالحصون والأسوار.

القصد من حصار الطائف، والأمر بفك الحصار، ورحيل المسلمين:

على أن هناك بعض الروايات التي تذكر أن رسول الله ﷺ لم يكن يقصد بحصار الطائف فتحها، بل إنما أراد كسر شوكة ثقيف، وتعريفها بأن بلدها في قبضة المسلمين، وأنهم متى شاءوا دخلوها، وما كان الرسول ﷺ ليشق على المسلمين ويكثر من تقديم الشهداء لفتح بلد حصين يحيط به الإسلام من كل مكان ومن كل جانب، وليس له آخر الأمر إلا الإسلام، أو الاستسلام طال الوقت أم قصر.

كما أنه ﷺ كان يحرص على بقاء ثقيف حرصه على قريشٍ من قبل، فهم إن تحولوا إلى الإسلام كانوا رجالًا له، لأنهم أهل فطنة وذكاء، وكان ﷺ يطمح في إسلامهم، حتى إن بعض المسلمين طلبوا منه ﷺ لما اشتد حصار الطائف وأذاهم للمسلمين أن يدعوا عليهم، فما دعا عليهم، وإنما دعا لهم، وقال: ((اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم)).

ثم إنه ﷺ كان قد أمر بفك الحصار من قبل ولكن المسلمين عز عليهم هذا، فدخلوا تحت الدبابات متوجهين إلى حصون الطائف، يتقون بالدبابة السهام، ولكن ثقيفًا كانت تعد كذلك عدة لأمثال هذه الآلات، فألقت عليهم الحديد المحمي بالنار؛ ولذلك اضطر المسلمون الذين كانوا داخل الدبابة إلى الخروج منها فأصابتهم السهام. ثم إنهم بعد ذلك لما أمرهم النبي ﷺ بفك الحصار، والعودة، فقد أصابهم هذا بارتياح وقبول، وهنا تبسم النبي ﷺ لرضاهم آخر الأمر بعد أن أصابهم ما أصابهم.

على أن النبي ﷺ أذن لأبي سفيان والمغيرة بن شعبة > أن يحاول المفاوضة مع ثقيف، فنادوا ثقيفًا أن يؤمنوهم حتى يكلموهم، فأمنوهم وكان ذلك أمرًا فعله النبي ﷺ بين يدي فك حصاره عن الطائف.

ولقد أعقب هذا أن أمر النبي ﷺ بارتحال المسلمين وعودتهم، وقال: ((إنه لم يؤذن له في ثقيف))، أي: أن الله ﷻ لم يكن من أمره فتح ثقيف في هذه الجولة، وإنما كان لها أمرٌ آخر قدره الله ﷻ وهو أن تأتي ثقيف مؤمنة طائعة لله ﷻ.

وهكذا عاد النبي ﷺ من هذا الحصار ظافرًا بأمر الله ﷻ بعد أن لقن ثقيفًا درسًا بأنها ليست بعيدة المنال عن أيدي المسلمين.

موقفه ﷺ من بني سعد بن بكر أخواله من الرضاع سياسة مالك بن عوف في الإعداد لقتال المسلمين

ثم إنه ﷺ توجه بعد حصار الطائف حتى نزل الجعرانة فيمن معه من المسلمين، وكان معه من هوازن السبي الكثير، وكان معه سبي هوازن.

وهنا جاءه وفدُ هوازن وقد أسلموا، وقالوا: يا رسول الله إنا أصلٌ وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامْنن علينا مَنَّ الله عليك استمالة للرسول ﷺ،

ثم قام رجل منهم من بني سعد بن بكر الذين استرضع فيهم رسول الله ﷺ رهط حليمة السعدية ~~<~~ فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك، ولو أنا ملحنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين. ومعنى ملحنا: أي أرضعنا.

وهنا خيرهم النبي ﷺ بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم، وكان ﷺ من قبل قد استأنى بهم، وانتظر لم يقسم السبي والأموال حتى يأتوه، ولكنهم ما جاءوا إلا بعد أن قسم ﷺ ما أفاء الله عليه منهم، فلما خيرهم ﷺ قالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا، فقال ﷺ: ((أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا، فقولوا: إن نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم، ففعلوا ذلك، فقال رسول الله ﷺ: وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وكذلك قالت الأنصار)).

ولكن الأقرع بن حابس قال: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن الفزاري: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: وأما أنا وبنو سليم فلا، وهنا ردت عليه بنو سليم قومه فقالوا: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ؛ ولذلك قال لهم عباس: وهنتموني.

ثم إنه ﷺ جعل لمن تمسك منهم بحقه من هذا السبي، لكل إنسان معه ست فرائض من أول سبي يصيبه، أي: ست من الإبل؛ ولذلك شجع ذلك من تمسك بحقه، فردوا ما معهم من النساء والأبناء إلى هوازن.

أثر استمالة مالك بن عوف إلى الإسلام:

على أنه كان من أمر الله إسلام مالك بن عوف النصري الذي جمع الجموع لقتال المسلمين، وكان من أمره ما أصاب قومه هوازن، حينما خرج بهم يعادي الإسلام والمسلمين. وكان إسلامه من كريم أمره ﷺ واستمالته لأمثال هؤلاء، فإنه ﷺ لما جاءه وفد هوازن سألهم عن مالك وأمره، فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ لهم: ((أخبروه أنه إن آتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل)) فكان في هذا استمالة لمالك الذي خرج من الطائف متسللًا حتى لا تشعر ثقيف بأمره فيحبسوه، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بالجعرانة، وقيل: جاءه بمكة، فرد عليه النبي ﷺ أهله وماله وأعطاه ما وعد، وأسلم فحسن إسلامه، ولقد استعمله ﷺ على من أسلم من قومه، وجعل له أيضًا قيادتهم، وحفظ له مكانته في قومه، وكان هذا من حسن سياسته ﷺ.

وهكذا أسلمت هوازن، وأسلم قائدها، وأصبحت قوة في غضون أيام، فقد أصبحوا جندًا لله قريبين من مكة، تدعم قوتهم قوة أهل مكة، حيث صاروا بعد ذلك قوة للإسلام. ولقد كان من أول ما قام به مالك وقومه هو: الإغارة على أموال ثقيف، وعلى صرحها حتى ضيق عليهم مما ألجأهم آخر الأمر إلى أن يتوجهوا معلنين إسلامهم للنبي ﷺ.

ثم إنه ﷺ بعد هذا قام بتقسيم الغنائم والأموال، وتجمع الناس حوله وبخاصة من الأعراب الذين ما جاءوا إلا لطلب الدنيا حتى إنهم ألجئوه إلى شجرة علق بها رداءه ﷺ من كثرة ما تزاحموا عليه، وهنا قال لهم ﷺ لما رأى حرصهم على المال والغنائم: ((فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلًا، ولا جبانًا، ولا كذابًا. ثم نادى في الناس ألا يرتكب منهم أحدٌ جريمة الغلول حتى لا يكون ذلك عارًا عليه ونارًا يوم القيامة))، فجاء كل رجل أصاب شيئًا مما قل إلى رسول الله ﷺ يرده إلى غنائم المسلمين.

وفي هذا تربية للمسلم على هذه الأخلاق الطيبة وتجنب الغلول في الغنائم.

تقسيمه ﷺ الفيء على المسلمين

لما قسم النبي ﷺ هذا الفيء على المسلمين توسع في عطاء المؤلفة قلوبهم وكانوا أشرافًا من الناس من قريش، يستميل قلوبهم بذلك.

وكان ﷺ يعلم أن في استمالة أمثال هؤلاء استمالة لمن يتبعهم من أقوامهم، كما أنه ﷺ أعطى من بايعوه من قريش وغيرهم يوم الجعرانة من غنائم حنين استمالة لهم كذلك، وهم كثيرون، كذلك أعطى من أفناء القبائل من بكر، وبني قيس، وبني عامر، وبني نصر، وبني سليم، وبني غطفان، وبني تميم.

كل هؤلاء لأن العدد كان كثيرًا، وأكثرهم كانوا قد خرجوا على إسلام ضعيف، فأراد ﷺ أن يعمق الله الإسلام في قلوبهم بهذا العطاء.

وقد أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية، وكان لا يزال على شركه في المدة التي شرطها عند إسلامه، وكان ذلك دافعًا إلى أن يبادر صفوان بإسلامه.

ونلاحظ أن النبي ﷺ قد ترك رجالًا ممن كان يثق في دينهم وإسلامهم، فلما قال قائل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري، وهو من قبيلة بني ضمرة، فقال رسول الله ﷺ: ((أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من تلاع الأرض كلهم، مثل عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس - أي من ملء الأرض - ولكني تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه))، وهكذا كان أمره ﷺ مع الأنصار الذين وكلهم إلى إسلامهم، وكان لهم معه ﷺ موقفٌ.

غزوة تبوك، وعام الوفود

عناصر الدرس

العنصر الأول :	غزوة تبوك، تاريخها، وترتيبها	٣١١
العنصر الثاني :	أسباب الخروج في هذه الغزوة، عدد الخارجين فيها، وعوامل الصعوبة، وموقف المنافقين	٣١٣
العنصر الثالث :	مصالحة الرسول ﷺ ما حدث أثناء الرجوع من غزوة تبوك، وما كان من أمر المنافقين أثناء العودة	٣١٧
العنصر الرابع :	مظاهر تودده # مع المسلمين، وائتمامه بابن عوف، وسؤاله عمن تخلف من غفار وأسلم، أمر مسجد الضرار، وحكم الله فيه	٣١٩
العنصر الخامس :	المتخلفون عن هذه الغزوة، وموقفه # منهم	٣٢١
العنصر السادس :	سورة التوبة سجل حافل بأمر هذه الغزوة ومواقف المنافقين فيها، والوفود دليل على قوة الإسلام، والسنة التاسعة وأهميتها في هذا الشأن، اهتمام المؤرخين بأمر الوفود	٣٢٣
العنصر السابع :	نماذج من أهم الوفود	٣٢٥
العنصر الثامن :	نماذج من الوفود السيئة	٣٣١

غزوة تبوك، تاريخها، وترتيبها

بعد أن استقر النبي ﷺ في المدينة بعث المصدقين -الذين يجمعون الصدقات والزكاة- فبعث بريدة بن الحصيب إلى أسلم وغفار، كما بعث عباد بن بشر إلى سليم ومزينة، ورافع بن مكيث إلى جهينة، وعمرو بن العاص إلى فزارة، وغيرهم إلى بقية القبائل؛ حتى يكون ذلك مثبتًا للإيمان والإسلام في قلوبهم، فليست الصلاة وحدها هي التي يكون بها الإسلام، وإنما لا بد كذلك من الزكاة، وأن يعود العرب على ذلك العطاء وبخاصة الأعراب.

على أن ما تبع رجوعه ﷺ إلى المدينة كان مواصلة للجهاد في بث السرايا إلى القبائل التي كان منها بعض المخالفات أو بعض التجمع ضد الإسلام، وحتى يكون ذلك حافزًا لهم، ودفعًا بهم إلى حظيرة الإسلام بعد أن أعطت قريش وغيرها المقادة ودخلت في الإسلام.

وهكذا بدأ العام الهجري التاسع، وقد حقق الله النصر على أعداء هذا الدين في مجال الدعوة الخاصة، سواء في ذلك قريش والأعراب والقبائل الكبيرة، وكذلك بعد أن حقق الله النصر على اليهود.

ومن ثم كان الأمر يحفز إلى الخروج بهذه الدعوة إلى خارج الجزيرة وملاقاة الروم الذين كانوا بالشام وأعوانهم على تخوم الشام مما يلي الجزيرة من الغساسنة وغيرهم، ممن كانوا يكونون جبهة قوية من النصارى -الذين انحرفوا بالمعتقد السليم في هذه العقيدة، وهذه الملة ملة عيسى # ، فلقد تعددت فيها المذاهب وبعُد النصاري بهذه العقيدة عن المنهج السليم، وتعددت المذاهب، وعبث الأباطرة بأمر الدين، ولم يكن لهم منه إلا أنه يحقق لهم المكاسب وإخضاع الناس لسلطانهم.

ولقد رأينا من قبل كيف أن النبي ﷺ بعث بكتابه إلى هرقل وإلى غيره من ملوك الغساسنة، ومن دخل في طاعة الروم، نواحي الشام. ورأينا كيف كان الرد منهم، بل إن بعضهم قتل رسول رسول الله ﷺ ومن ثم كانت سرية مؤتة التي عرفنا أمرها.

ولما رجع ﷺ إلى المدينة بعد الفتح وبعد أمر الطائف، وهوازن، فإنه ﷺ عمل على أن يخرج في هذه الغزوة التي كانت آخر غزواته ﷺ وهي غزوة تبوك التي كانت في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة.

وكان ﷺ في كل غزواته يوري بغيرها حتى لا يعرف الناس من أعداء المسلمين في المدينة بأمره إلا هذه الغزوة، فإنها لبعد الشقة والمسافة فيها -لأن تبوك إنما تقع على بعد أكثر من سبعمائة وسبعين كيلو مترًا هذا بالطريق المعبد المعروف الآن.

كذلك فإن العدو فيها ليس عدوًا سهلًا أو قليلًا، وإنما هو عدو كثير؛ حيث اجتمع من الروم، ومن أعوانهم نحو من مائتي ألف، وهم يمثلون قوى منظمة في: سياساتها، وسلطانها، وحربها، وسلمها، ولذلك فإنه ﷺ أعلن الناس حتى يأخذوا أهبتهم، ويجمعوا لذلك نية صادقة في المسير.

ولقد سميت هذه الغزوة باسم آخر وهو "غزوة العسرة" فاسمها تبوك لمكانها، و"العسرة" لما كان قد أصاب الناس في ذلك الوقت من ضيق الحال؛ حيث إن الوقت كان حارًّا وقد أينعت الثمار، وانتشرت الظلال، والناس يحبون المقام في ذلك الوقت في بلادهم في المدينة، وفي بساتينهم ولكن جاء أمر رسول الله ﷺ بالخروج في هذا الوقت الشديد العصيب، حتى يميز الله الخبيث من الطيب، وحتى يظهر قوي الإيمان من ضعيفه، وحتى يظهر المؤمن من المنافق، ولذلك سميت بهذا الاسم.

كذلك فإنه كان قد أصاب الناس فاقة، وقلة في الزاد، حتى إنهم كانوا يشقون التمر ويقتسمونه، كما أنهم كانوا يمصون النوى ويشربون عليه الماء -كما جاء ذلك في صحيح مسلم- بل إنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأذن لهم في نحر رواحلهم.

أسباب الخروج في هذه الغزوة، عدد الخارجين فيها، وعوامل الصعوبة، وموقف المنافقين

ولقد كان من أسباب الخروج في هذه الغزوة ما ذكر من أنه ﷺ أراد أن يثأر لأهل مؤتة الذين قتلوا بيد الروم وأعوانهم وهم شهداء المسلمين فيها.

كذلك فإنه ﷺ إنما خرج؛ لأن الأمر كان لا بد من مواصلة الجهاد، ومتابعة أمر نشر هذا الدين العظيم إلى خارج الجزيرة، وكان لا بد من الخروج إلى الروم بعد أن مهد النبي ﷺ إلى دعوتهم بإرسال الكتب كما رأينا.

وكان خروجه ﷺ لهذا الغرض، وهو قتال أمثال هؤلاء، وهذا ما يذكره ابن كثير، ويجعل الآية التي تقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وكان الذين يلونهم من الكفار بعد ذلك إنما هم الذين بدلوا دين الله من النصارى في الشام ونواحيها.

ولقد أمر النبي ﷺ المسلمين وحضهم على الإنفاق من أجل إعداد هذه الغزوة التي كثر المسلمون فيها، حتى إن بعض الروايات لتذكر أنهم كانوا ثلاثين ألفًا من المسلمين معهم عشرة آلاف فرس.

وكان هذا الحض من رسول الله ﷺ على الإنفاق باعثًا للمؤمنين الصادقين؛ سواء في ذلك الموسرون من الأغنياء، وبسطاء الناس، بل حتى الفقراء، كل ساهم بما أعانه الله عليه، وكان أكثر الناس عطاء في هذا وإسهامًا فيه عثمان بن عفان > الذي جاء بألف دينار، وضعها في حجر النبي ﷺ الذي أخذ يقلبها ويتعجب من إيمان عثمان، حتى إنه ﷺ بشره بأنه ما ضره ما فعل بعد ذلك، كذلك جاء عبد الرحمن بن عوف > بمال كثير للنبي ﷺ وكما أشرنا بأن الفقراء الذين لم يكن عندهم ما يكفي جاءوا بما ساهموا به، حتى إن الرجل ليأتي بصاع من التمر أو بنصف الصاع.

ومع هذا؛ فإن كل هؤلاء لم يسلموا من ألسنة المنافقين، الذين كان لهم شأن خبيث يليق بهم، حتى في آخر غزواته ﷺ، فحينما يرون غنيًّا يعطي العطاء الكثير ويساهم، يقولون: ما جاء بذلك إلا رياء؟ ومن يأتي بالقليل؟ يقولون: إن الله لغني عن صاع هذا؛ ولذلك نزل فيهم قول الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

كما أنه كان للمنافقين سعي في تثبيط المؤمنين، فقد كان أناس منهم يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ حتى لا يخرجوا معه؛ ولذلك فإنه ﷺ بعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم البيت ففعل ذلك طلحة.

وكان من قولهم للمسلمين يثبطونهم: أتحسبون جلاد بني الأصفر -يقصدون الروم كقتال العرب بعضهم بعضًا. والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال، ولكن هذا لم يفت في أعضاد المسلمين، فاجتمعوا للخروج مع النبي ﷺ.

هذا في حين خرج عبد الله بن أبي بن سلول فيمن تبعه من رجاله المنافقين، وكان عسكره نحو ناحية ذباب -وهو جبل بالمدينة- وكانوا كثيرين، من هؤلاء المنافقين، ولكن رسول الله ﷺ لما صار تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب.

ولقد جاء الجد بن قيس يعتذر لرسول الله ﷺ عن الخروج؛ لأنه يخشى الفتنة من بنات بني الأصفر، الروم.

ولذلك فإنه ﷺ كان لا يرغب في صحبة أمثال هؤلاء له في هذه الغزوة، ونزلت آيات سورة براءة الفاضحة التي فضحت المنافقين في مثل هذا الموقف تقول آياتها: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٤ - ٤٧]... إلى آخر الآيات التي ذكرت مواقفهم في سورة التوبة.

حتى إنه ﷺ لما أمر علي أن يخلفه في أهله وأن يبقى بالمدينة أشاعوا: أنه ما تركه إلا استثقالًا له وتخففًا منه، حتى إن عليًّا > لبس عدة وتبع النبي ﷺ ولحقه، وهو نازل بالجرف على نحو ثلاثة أميال من المدينة، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني، فقال: "كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي" فطمأن النبي ﷺ خاطر علي، ثم مضى الرسول ﷺ على سفره.

هذا، وإذا كان أمر المنافقين كما رأينا وعلمنا من القعود والتثبيط للناس، وكره الله لهم أن يخرجوا، فإنه كان هناك أناس ممن كان إسلامهم وإيمانهم قويًّا، تخلفوا عن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، كانوا أربعة:

منهم أبو خيثمة > الذي دخل حائطه بعد أن مضى رسول الله ﷺ وكان في يوم حار، أعدت امرأتاه كل ما يطيّب المقام من عريش مظلل وماء بارد، فلما دخل أبو خيثمة على امرأتيه، وهما على تلك الحال، قال: رسول الله ﷺ في الضح - أي: الشمس والحر والريح- وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ، وامرأة حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنصف.

ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فتهيأ له الزاد والراحلة، وخرج > يتبع رسول الله ﷺ حينما دنا من تبوك فلما رأى الناس راكبًا قادمًا قال النبي ﷺ: "كن أبا خيثمة" فكان أبا خيثمة الذي جاء لرسول الله ﷺ يعتذر إليه عن هذا التأخير، وهذا التخلف فقبل النبي ﷺ ودعا له بخير.

ولقد كان النبي ﷺ في مسيره إلى تبوك أمر الناس إذا نزلوا بالحجر، وهي في طريقهم ألا يشربوا من مائها، وألا يتوضئوا منه للصلاة، ولكن بعضهم خالف في ذلك، فأمر النبي ﷺ بما عجنوا من عجين أن يعلفوه للإبل، وألا يأكلوا منه شيئًا، كما أنه ﷺ استحث راحلته لما مر بالحجر، وسجى ثوبه على وجهه، وقال: "لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم".

وهذا من التعليم والأدب النبوي الذي علم به ﷺ أمته.

ولما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا الله ﷻ فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء.

وهنا نرى بعض المنافقين ممن لم تؤثر فيهم أمثال هذه المعجزات، فيحكى محمود بن لبيد أن رجلًا من المنافقين لما قيل له: ويحك هل بعد هذا شيء: قال: إنما هي سحابة مارة.

كذلك فإن بعض المنافقين حينما ضلت ناقة النبي ﷺ وخرج أصحابه يطلبونها، قال رجل منهم: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فلما أخبر النبي ﷺ بذلك قال: "وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا، وكذا، قد حبستها شجرة بذمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاءوا بها".

وإن مواقف المنافقين -في هذه الغزوة من أولها، وفي خلالها، وبعد أن تمت، وفي الرجوع كذلك- لمواقف مخزية لأمثال هؤلاء، ولكن هكذا -دائمًا. نرى أمثال هؤلاء الذين كانوا على صلة وثيقة بالنبي ﷺ يغشون المسجد، ويخالطون المسلمين، ويرون أمر النبي ﷺ ومع ذلك لا يؤثر هذا في قلوبهم، ولا يأتي بهم طائعين إلى الإيمان.

مصالحة الرسول ﷺ ما حدث أثناء الرجوع من غزوة تبوك، وما كان من أمر المنافقين أثناء العودة

ولما وصل ﷺ إلى تبوك آتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة فصالح النبي ﷺ وأعطى الجزية، كذلك أتاه أهل جرباء وأذرح وأعطوا الجزية، وكتب النبي ﷺ الأمان لهؤلاء، وأولئك، فكان كتابه ليوحنا بن رؤبة: "بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله، ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون

نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنع ماءً يردونه، أو طريقًا يردونه من بر أو بحر".

كذلك فإن أمانه لأهل جرباء وأذرح جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل جرباء وأذرح أنهم آمنون بأمان الله، وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب -وهو الشهر الذي أمنهم فيه- ومائة أوقية طيبة وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين". وقد أعطى ﷺ أهل أيلة بردته مع كتابه أمانًا لهم. كما أنه ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل، فجاء به إلى النبي ﷺ فحقن دمه، وصالحه على الجزية ﷺ. وبعد هذا رجع النبي ﷺ متوجهًا إلى المدينة.

ما حدث أثناء الرجوع من غزوة تبوك، وما كان من أمر المنافقين أثناء العودة:

بعد أن قضى النبي ﷺ في تبوك نحوًا من عشرين ليلة، عزم على الرجوع بعد أن منّ الله عليه بنعمة النصر في هذه الغزوة.

ولقد كان من أثر هذا الخروج في هذه النواحي: أن توطد سلطان المسلمين في شمالي الجزيرة العربية، كما أن ذلك مهد لفتح الشام التي كان لرسول الله ﷺ الأعمال الأولى، والريادة في هذا المجال، بعثه بالكتب، وإرساله سرية مؤتة، وقيامه بنفسه ﷺ غازيًا في آخر غزواته ﷺ كما رأينا.

وفي طريق العودة كان بعض المنافقين ما يزال أمرهم على الشقاق، والنفاق، والمخالفة لأمره ﷺ، فقد أمر ألا يستقى من ماءٍ في الطريق كان يعلمه ﷺ كان هذا الماء يخرج من وشلٍ في بعض الأودية، فأمر ألا يستقي أحد من هذا الماء حتى يأتي النبي ﷺ ولكنه ﷺ لما وصل لم يجد شيئًا من الماء، وعلم أن رجلين من

المنافقين سبقا وخالفا نهيه ﷺ من أن يستقي أحد من الماء، فغضب ﷺ ودعا عليهما، ثم قام ﷺ ومسح الوشل فأخذ الماء يتفجر منه له صوت كالصواعق فشرب الناس وأخذوا حاجتهم من الماء.

كذلك فإن بعض المنافقين حاولوا الفتك بالرسول ﷺ وأن يطرحوه من رأس عقبة كانت في الطريق، لكنه ﷺ أُخْبِر بخبرهم، وكان قد نهى أن يصعد أو أن يسير الناس في العقبة، ولكن هؤلاء خالفوا.

ففي حين أن الأمر كان بمسير الناس في الوادي فإن هذه الجماعة من المنافقين، وكانوا اثني عشر رجلًا، صعدوا العقبة يريدون ما بيتوا أمرهم عليه، وكان عمارٌ آخذًا بزمام ناقته ﷺ وحذيفة يسوقها فلما رأى النبي ﷺ هؤلاء المنافقين قد تلثموا وجاءوا ليعترضوه، فنبه حذيفة رسول الله ﷺ فصرخ بهم، فولوا مدبرين.

وكان حذيفة قد استقبل وجوه رواحلهم بمحجن كان معه فولوا، ثم إنه ﷺ سأل حذيفة: هل عرف أحدًا منهم؟ قال: ما عرفت إلا رواحلهم، فأخبره ﷺ بهم، وبأسمائهم، واستكتمه ذلك الأمر، وكان ﷺ يتخذ من حذيفة صاحبًا لسره بأمر المنافقين ومعرفة أسمائهم.

مظاهر تودده ﷺ مع المسلمين، وائتمامه بابن عوف، وسؤاله عمن تخلف من غفار وأسلم، أمر مسجد الضرار، وحكم الله فيه

وفي الطريق كذلك شكا المسلمون له ﷺ ما أصاب إبلهم من الإجهاد والتعب، فدعا ﷺ ربه أن تنشط هذه الرواحل، وقال في دعائه: "اللهم احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس في البر والبحر" فنشطت الإبل، وما شكوا منها بعد ذلك حتى بلغوا المدينة، حيث كانت تنازعهم أزمتها.

كما أنه ﷺ في رحلة الإياب قام بأمر دل على كريم تواضعه ﷺ فإن عبد الرحمن بن عوف تقدم فأم الناس في صلاة فجرٍ في يوم من أيام العودة؛ لأنه ﷺ خرج ومعه المغيرة بن شعبة يحمل له الماء، فلما تأخر النبي ﷺ قدموا عبد الرحمن بن عوف، فجاء النبي ﷺ وهم يصلون، وأدركهم في الركعة الثانية، فلما سلم الناس أعظموا ذلك الأمر، ولكنه هدأ من روعهم وقال: "أحسنتم، وأصبتم" وهذا مما يدل على كريم تواضعه ﷺ.

وفي الطريق سأل ﷺ أبا رُهْم كلثوم بن الحصين الغفاري، عن تخلف من تخلف من غفار، وأسلم فأخبره > بأمرهم، وقال ﷺ: ما منع أحدًا من أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرأ نشيطًا في سبيل الله، ثم قال لأبي رهم: إن أعز أهلي علي أن يتخلف عني المهاجرون من قريش، والأنصار، وغفار، وأسلم ﷺ. وهكذا كان ﷺ يتودد إلى أصحابه، ويشعرهم بمكانتهم عنده.

أمر مسجد الضرار، وحكم الله فيه:

ثم إنه ﷺ كان له أمر آخر مع المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار، حيث اتخذوا ذلك المسجد مكانًا يدبرون فيه المؤامرات ضد المسلمين والإسلام، ويريدون به تفريق الجماعة عن مسجد قباء ومسجده ﷺ.

كما أنهم جعلوه مكانًا يتلقون فيه رسائل أبي عامر الفاسق الذي آل أمره إلى المقام بالشام عند هرقل، وكان يمنيهم أنه يحرض هرقل على النبي ﷺ بغضًا وعداء للإسلام والمسلمين.

ولذلك فإنه ﷺ لما طلب منه المنافقون قبل أن يخرج إلى تبوك أن يصلي في هذا المسجد، يظهرون أن هذا تبركًا وترويجًا لأمر هذا المسجد بصلاة النبي ﷺ فيه،

فإنه ﷺ اعتذر لهم لأنه كان في شغلٍ بأمر السفر وقال: "إنا على جناح سفر"، ووعدهم أن يصلي، وكان ﷺ يعزم على أن يصلي حينما يعود من هذه الغزوة، وهنا أراد الله ﷻ ألا يصلي النبي ﷺ في هذا المسجد؛ لأن الوحي نزل عليه في مكان قريب من المدينة، هو الوادي المعروف بـ: "ذي أوان" جاءه جبريل # بأمر الله ﷻ ألا يصلي في هذا المسجد، ويخبره بخبر هؤلاء وما أجمعوا عليه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨]، يقصد مسجد قباء.

وهنا أمر النبي ﷺ مالك بن الدُّخشم، ومَعْنَ بن عدي، أن ينطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، وأن يهدماه ويحرقاه، فقاما بهذا الأمر، فحرق المسجد وهدم وتفرق عنه أولئك المنافقون.

المتخلفون عن هذه الغزوة، وموقفه ﷺ منهم

ولما وصول ﷺ إلى المدينة رأى أُحدًا قال: "هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه"، وقد خرج الناس للقائه ﷺ فيهم النساء والصبيان والولائد يتلقونه ﷺ عند ثنية.

وكان في المدينة جماعات المنافقين تخلفوا عنه ﷺ، وهناك مَنْ تخلف مِنْ غير المنافقين، فقد تخلف أناسٌ لم يكن هناك شك في إيمانهم وهم البكائون، الذين لم

يجدوا ما يحملهم عليه رسول الله ﷺ حتى إنهم لشدة عزمهم، وحبهم للخروج معهﷺ بكوا، فسموا البكائين.

كما جاء الأشعريون ليطلبوا من رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه، فانتظر بهم حتى جاءت رواحل أعطاها لهم فساروا بها.

كما كان هناك أناس من المؤمنين الصادقين الذين أبطئوا وسوفوا في الاستعداد للخروج حتى فاتهم الوقت، فتخلفوا عن رسول الله ﷺ وكانوا على حسب ما ذكرت الروايات عشرة رجال هم: الثلاثة الذين خلفوا أصحاب كعب بن مالك وهم: كعب بن مالك وصاحباه، وسبعة آخرون هم: أبو لبابة ومن كانوا معه.

كذلك فإن أبا خيثمة تأخر، ثم لحق بالنبي ﷺ وكذلك تأخر أبو ذر ولكنه لحق بالنبي ﷺ.

وعلى الرغم من أنه ﷺ ما كان يعبأ بتخلف أهل النفاق ويتساهل في قبول أعذارهم، فإن أمره مع المؤمنين كان غير ذلك، ومن هؤلاء كما عرفنا أولئك الذين تخلفوا فكان أمره معهم دالًّا على أن المؤمن له حساب آخر، لأنه بإيمانه لا بد أن يكون عمله موافقًا للإيمان.

ولقد كان من أمرهﷺ مع هؤلاء العشرة الذين تخلفوا من المؤمنين الصادقين، فأما أبو لبابة ومن معه وهؤلاء سبعة أوثقوا أنفسهم بسواري المسجد حتى يطلقهم رسول الله ﷺ فأقسمﷺ ألا يطلقهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، ونزل فيهم قوله ﷻ: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢].

فكان هذا إطلاقٌ لهم بأمر الله ﷻ ولذلك جاءوا بأموالهم إليه ﷺ قد تصدقوا بها، ويطلبون منه ﷺ أن يستغفر لهم، فقال ﷺ: "ما أمرت أن آخذ أموالكم"،

فـأنزل الله ﷻ: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣]

ولما جاء أبو لبابة بماله أخذ النبيﷺ منه ثلث ماله وترك له الثلثين، وأبو لبابة نعرف أنه قد ربط نفسه من قبل حينما أحس أنه أفشى سر رسول الله ﷺ لليهود بنو قريظة، وهنا كذلك تخلف، ولكنه من بعد هذا لم ير منه إلا الخير في الإسلام.

هذا ولقد كان المتخلفون عن تبوك على هذا أقسامًا:

مأمورون مأجورون: كعلي بن أبي طالب، ومحمد بن مسلمة الذي خلفه النبي ﷺ على المدينة من بعده. ومعذورون: وهم الضعفاء والمرضى. والمقلون: وهم البكاءون الذين لم يكن معهم ما يستعينون به على الخروج، ولا وجدوا من يحملهم على ذلك الخروج.

كذلك كان في المتخلفين عصاة مذنبون، وهم هؤلاء العشرة الذين تاب الله عليهم. وآخر الأمر: ملومون، مذمومون، مغضوب عليهم، وهم: المنافقون الذين تخلف كثير منهم، وكان ممن خرجوا مع النبي ﷺ الأذى الكثير للمسلمين في هذه الغزوة، فما أصابوا خيرًا قط.

سورة التوبة سجل حافل بأمر هذه الغزوة ومواقف المنافقين فيها، والوفود دليل على قوة الأسلام، والسنة التاسعة وأهميتها في هذا الشأن، اهتمام المؤرخين بأمر الوفود

وكما عهدنا في غزواته ﷺ التي ينزل القرآن العظيم مسجلًا أحداثها، وكل أمر يتعلق بها، فإن سورة "التوبة" التي سميت كذلك سورة "الفاضحة" التي فضحت المنافقين وأعمالهم، تناولت بإفاضة أمر هذه الغزوة من حين أمر النبي ﷺ بالاستعداد لها، وبينت أحوال الناس من المؤمنين الذين أسرعوا، وسارعوا في الإعداد، والاستعداد للخروج في هذه الغزوة باذلين المال، والنفس في سبيل الله.

كما أنها تناولت أمر الذين تباطئوا عن إجابة هذه الدعوة، كما أنها أفاضت في أمر المنافقين الذين اعتذروا بأعذار واهية، وتخلفوا عن رسول الله ﷺ وكان ذلك من أمر الله وحبه أن يتخلفوا ﴿ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾[التوبة: ٤٦].

كما أن الآيات تتناول أمرهم من بعد ذلك، لا تترك الآيات صغيرًا ولا كبيرًا من أمرهم حتى توضحه وتبينه لرسول الله ﷺ وللمؤمنين.

الوفود دليل على قوة الإسلام، وأهمية السنة التاسعة بهذا الشأن:

وقد شهدت السنة التاسعة للهجرة وفودَ كثيرٍ من قبائل العرب على النبي ﷺ، وكان هذا الأمر كنتيجة لظهور أمر الإسلام في الجزيرة العربية بعد فتح مكة، وحصار الطائف، وبعد غزوة تبوك التي عرف الناس فيها قوة المسلمين الذين خرجوا لقوة الروم وأعوانهم، ولم يلقوا كيدًا ولا حربًا، ولكن مع هذا أثبت خروج النبي ﷺ في غزوة تبوك قوة الإسلام.

ومما لاشك فيه أن هذه الأعمال التي تمت في العام الثامن والتاسع للهجرة أقنعت العرب بهذا الأمر وهو قوة المسلمين، والعرب يحترمون القوة والأقوياء، وكان إسلام قريش في العام الثامن بعد فتح مكة، وهدم الأوثان فيها، وإرسال السرايا لهدم الأوثان والأصنام في أرجاء الجزيرة العربية، كان كل ذلك من العوامل التي أقبل العرب طائعين يعلنون إسلامهم بسببها.

اهتمام المؤرخين بأمر الوفود:

ولقد لقى أمر الوفود اهتمامًا كثيرًا من المؤرخين، وكتاب السير، والمحدثين مثل: البخاري، والبيهقى، وابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، وكذلك ابن كثير الذي كان من أهمهم تناولًا لذكر الوفود واستدراكًا على من سبقه من العلماء.

نمـــاذج مـــن أهـــم الوفـــود

كان النبي ﷺ يهتم بلقاء هذه الوفود التي كانت تأتي لتعلن إسلامها، فكان ﷺ يلبس أحسن ثيابه، وكانت له حلة يمانية، كذلك كان يحضر هذا اللقاء الصحابة، وعليهم مثل ما عليه النبي ﷺ من جميل الثياب، وهذا نوع من رقي الذوق في الإسلام.

كما أنه ﷺ كان يُعَلِّم هذه الوفود أركان الإسلام، ويجيب على من يريد التفقه منهم في أمور الدين العامة، أو فيما يخصه من المسائل، ثم إنه ﷺ كان يودعهم، ويحسن العطاء لهم.

ولقد ترددت في كثير من الوفود عبارات أنهم نزلوا في بيت رملة بنت الحارث، وهي امرأة من الأنصار لها صحبة، وكانت زوجًا لمعاذ بن عفراء، وكانت دارها معدة لنزول الوفود.

وإذا ألقينا نظرة على الكتب التي تناولت أمر الوفود سنجد أن بعضها نهج نهجًا في الترتيب غير الآخر.

فمثلًا ابن سعد قسم الوفود ورتبها على أساس نسبها، فبدأ بوفود قبائل مضر، وذكر منهم ثلاثة وعشرين وفدًا، ثم ذكر وفود ربيعة التي كانت خمسة وفود، ثم وفود اليمن التي بلغت اثنين وأربعين وفدًا.

أما ابن كثير، فذكرهم على حسب أفضليتهم في السبق؛ حيث ذكر أول ما ذكر: وفد مزينة الذين قدموا على النبي ﷺ في السنة الخامسة للهجرة، وكانوا أربعمائة رجل، وكان ذلك في رجب من السنة الخامسة، وقد جعل لهم النبي ﷺ وفادتهم هجرة لهم، ولكنه جعل هجرتهم في دارهم وقال: "أنتم مهاجرون

حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم"، وكان أول من قدم منهم خزاعي ابن عبد نهم، مع عشرة من قومه، فبايع الرسول ﷺ على إسلام قومه، لكنهم تأخروا بإسلامهم.

ومن أهم الوفود التي وفدت على النبي ﷺ في عام الوفود كان وفد ثقيف أهل الطائف، الذين قدموا عليه ﷺ في رمضان من السنة التاسعة مرجعه من غزوة تبوك.

وكان الذي دفعهم إلى هذا أن الإسلام وقع في قلوب رجال كان لهم شأنهم في ثقيف، أمثال: عروة بن مسعود الذي لحق بالنبي ﷺ بعد أن مضى إلى المدينة من حصار الطائف، ولقد كان ﷺ يحرص على ثقيف، كما كان يحرص على قريش، لأن بقاءها في هذه النواحي ما يعد قوة للإسلام.

ولعلنا نذكر أنه ﷺ كان أول بلد خرج إليه يدعوه إلى الإسلام -بعد مكة- كانت الطائف، ولما حاصر الطائف لم يشتد في حصارها، ولم يستمر حتى يفتحها؛ لأنه أراد أن تأتي ثقيف مسلمة بأمر الله؛ ولذلك لما طلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف قال: "اللهم اهد ثقيف، وائت بهم"، فلما قدموا إلى المدينة رآهم المغيرة بن شعبة وكان في ركاب المسلمين يرعاها، فلما رآهم أسرع يخبر النبي ﷺ ويبشره ﷺ بمجيء قومه، فتلقاه أبو بكر وعلم منه وأقسم عليه ألا يسبقه بهذا الخبر إلى رسول الله ﷺ وأن يكون أبو بكر هو الذي يبلغ النبي ﷺ؛ ولذلك سر النبي ﷺ بمجيئهم، وضرب لهم قبة في المسجد، وكانوا ضيوفًا عليه نحوًا من عشرة أيام.

وكان ﷺ من حرصه على ثقيف فإنه كان يأتيهم كل ليلة بعد العشاء فيقف عليهم ويحدثهم ويراوح بين قدميه من التعب في الوقوف، كما أنه ﷺ حرص على تعليمهم القرآن، وتفقيههم في أمر الدين.

ومن ناحية أخرى؛ فإن وفد ثقيف سألوا رسول الله ﷺ أمورًا لم يجبهم إليها، فقد سألوه ﷺ أن يدع لهم الطاغية وهي: اللات ثلاث سنوات فأبى عليهم ﷺ ذلك، فما برحوا يسألونه سنة، سنة ويأبى عليهم ﷺ ذلك، حتى سألوه أن يستبقيها شهرًا بعد مقدمهم إلى الطائف فأبى كل ذلك عليهم ﷺ ثم إنهم وما كان قصدهم من وراء هذا إلا أن أهل الطائف كانت قد أشربت قلوبهم حب اللات، وكانوا يخشون من سفهائهم، ومن النساء؛ ولذلك فإنهم لما رأوا شدة الرسول ﷺ في هذا الإباء استعفوه من أن يهدموها بأيديهم، فأجابهم إلى ذلك.

كما أنهم طلبوا منه ﷺ أن يعفيهم من الصلاة فقال ﷺ: ((وأما الصلاة: فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه))، وهكذا أسلم هذا الوفد، وكتب لهم النبي ﷺ كتابهم.

ثم أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنًّا، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلم القرآن، وكان من وصاته ﷺ لعثمان: أن يسير فيهم بأمر الدين، وفيما يتعلق بأمر الصلاة فإنه أمره أن يتجوز فيها وأن يقدر الناس بأضعفهم، حتى يكون في ذلك استمالة لقلوب ثقيف إلى الصلاة، ما داموا قد طلبوا إعفاءهم منها.

أما أمر اللات؛ فإن النبي ﷺ بعث معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة أخاهم لهدم اللات.

كذلك وفد على النبي ﷺ وفد تميم وهي من القبائل التي لها شهرتها بين العرب.

وكان قدومهم عليه ﷺ لما نالهم على يد السرية التي بعثها النبي ﷺ وجعل عليها عيينة بن حصن، ذلك أنهم تعرضوا للمصدق الذي جاء يأخذ زكاة خزاعة، ذلك أن خزاعة جمعت زكاتها فاستنكرت بنو تميم ذلك، واستكثرت

هذه الزكاة، وشهروا سيوفهم مما دفع عامل رسول الله ﷺ على هذه الصدقات إلى أن يرجع إلى النبي ﷺ فقال: "من لهؤلاء؟" فانتدب عيينة بن حصن فبعثه النبي ﷺ فلم يصمدوا له، بعد أن أغار عليهم، ويقال: بأنه أسر أحد عشر رجلًا منهم، وسبى إحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبيًّا، وقدم بهم إلى المدينة، ومن ثم جاء رؤساء بني تميم إلى النبي ﷺ فيهم عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس، ورجالٌ كثيرون من رؤسائهم، وتذكر بعض الروايات أنهم كانوا نحوًا من ثمانين أو تسعين رجلًا، فدخلوا المسجد وقد أذن بلال لصلاة الظهر والناس ينتظرون خروج النبي ﷺ ولما كان بنو تميم لم يعرفوا آداب المسجد، وقد جاءوا فإنهم صاحوا ينادون النبي ﷺ من وراء الحجرات: اخرج لنا يا محمد.

ولذلك ذكرت هذه الحادثة آيات سورة الحجرات التي سميت بالحجرات، حجرات نساء النبي ﷺ التي نادوه من ورائها، ثم إنهم قالوا للنبي ﷺ: إنما جئنا نفاخرك، وكان هذا بعد أن صلى ﷺ الظهر بالناس، فأذن ﷺ لخطيبهم أن يتكلم، فقام عطارد بن حاجب فتكلم يفخر بقومه وأعمالهم، فأمر النبي ﷺ ثابت بن قيس أن يقوم فيجيب عن المسلمين فقام فخطب وأجاد > ثم قالوا: يا محمد، ائذن لشاعرنا فأذن له ﷺ فقام الزبرقان بن بدر فأنشد قصيدة يعدد فيها - كذلك - مآثر قومه ويفاخر بهم، فلما فرغ الزبرقان من شعره، طلب النبي ﷺ من حسان أن يجيبه، فقام حسان فقال: شعرًا يرد به على شاعر بني تميم، ويذكر فيه مآثر المهاجرين والأنصار، فلما فرغ حسان من شعره، قال الأقرع بن حابس: وأبي يقسم إن هذا الرجل -يقصد النبي ﷺ- لمؤتًا له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا، ثم بعد ذلك أعلن القوم إسلامهم، وجوزهم النبي ﷺ فأحسن جوائزهم.

كذلك وفد على النبي ﷺ ضمام بن ثعلبة وافدًا عن قومه بني سعد بن بكر، وقد جاء إلى مسجد النبي ﷺ فأناخ بعيره على باب المسجد، ثم دخل وسأل عن النبي ﷺ وكان جالسًا في أصحابه، وسأل النبيﷺ أسئلة عن حق رسالته، وأن ما أمره الله به من أوامر الإسلام، وعدد فرائض الإسلام، وكانﷺ يجيبه عن كل ما يسأل، ثم إنه لما فرغ من سؤاله النبي ﷺ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف إلى قومه راجعًا، ولما أتى قومه دعاهم فاجتمعوا إليه، فكان أول ما قال فيهم: بئست اللات والعزى، فقالوا: مه، يا ضمام اتق البرص والجذام والجنون، يخوفونه أن تصيبه اللات والعزى، فقال: إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولًا، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به، وما نهاكم عنه، فأجابه قومه إلى الإسلام.

وكان من خير الوفود التي وفدت على النبي ﷺ وفد عبد القيس، هذه القبيلة التي كانت تسكن البحرين، وكانت لهم وفادتان على النبي ﷺ:

الأولى: قبل الفتح في سنة خمس أو قبلها، وهم أول من أقاموا الجمعة بعد المدينة بقريتهم المعروفة باسم جواثا التي سبقت القرى كلها في تجميع الجمعة.

وكان وفدهم الأول ثلاثة عشر رجلًا، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وقد قالوا للنبي ﷺ: إن بيننا وبينك كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام، فمرنا بأشياء نأخذ بها وندعو مَن وراءنا، فأوجز لهمﷺ الأمر والنهي في

الدين، وكان ﷺ بشر بمقدمهم بين أصحابه، وقال عنهم بأنهم خير أهل المشرق؛ ولذلك قام عمر يستقبلهم ويخبرهم بما قال عنهم النبي ﷺ فنزلوا سراعًا عن رواحلهم، فأتوا النبي ﷺ لم يرتدوا لباس اللقاء بهﷺ وإنما تلقوه بلباس سفرهم فرحًا بهذه البشرى، وتناولوا يده الشريفة يقبلونها.

الثانية: فكانت سنة الوفود، وكان عددهم حينئذ أربعين رجلًا فيهم الجارود بن عمرو الذي كان على النصرانية، فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، ورغبه فيه، فقال: يا محمد، إني كنت على دين، وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟ فقال النبي ﷺ: "نعم، أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه" فأسلم وأسلم أصحابه.

كما قدم المدينة وفد طيئ فيهم سيدهم زيد الخيل، وقد عرض رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال النبي ﷺ عن زيد: ((ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته، دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل؛ فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه، ثم سماهﷺ زيد الخير، وقطع له مكانًا بشرقي سَلْمى)) وهو أحد جبلي طيئ، كما أقطعه أرضين معه، وكتب له بذلك كتابًا فخرج من عنده ﷺ راجعًا إلى قومه، ولكن أدركته الوفاة وهو في طريقه.

وما دمنا في الحديث عن طيئ فنذكر أمر عدي بن حاتم الطائي الذي أسلم هو الآخر، ولكن بعد أن هرب إلى الشام كرهًا في الإسلام، وكان قد فر إلى الشام لما غزا المسلمون طيئ، فر بأهله وترك أخته التي أخذت مع من أخذ من أهل طيئ، فلما جيء بهم إلى المدينة سألت النبي ﷺ أن يمنّ عليها بالفداء، وكررت ذلك عليه أيامًا، حتى منّ عليها النبي ﷺ ولكن قال لها: "لا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لكي ثقة حتى يبلغك بلادك، ثم آذنيني". ولكنها

كانت تقصد أن تذهب إلى أخيها بالشام، فانتظرت حتى قدم ركبٌ من بلي، أو قضاعة، فاستأذنت النبي ﷺ في أن تخرج فأذن لها ﷺ وكساها، وأعطاها نفقة، وحملها على ما يبلغها غايتها.

ولما وصلت إلى الشام عاتبت أخاها على تركه إياها، ونصحته أن يلحق بالنبي ﷺ وأخبرته عن أمر النبي ﷺ معها؛ ولذلك قدم أخوها عدي إلى النبي ﷺ ثم أسلم وحسن إسلامه > .

نماذج من الوفود السيئة

وإذا كانت هذه الوفود تمثل وفودًا جاءت طائعة لله أسلمت من عند أنفسها وحسن إسلامها بعد أن عرض النبي ﷺ عليها هذا الدين العظيم، فإنه كان من الوفود وفودٌ كانت سيئة المقصد، ومن هؤلاء:

وفد بني حنيفة:

الذين قدموا عليه ﷺ وكان فيهم مسيلمة الكذاب، وكانوا بضعة عشر رجلًا، وقد أقاموا أيامًا يختلفون إلى رسول الله ﷺ يعلمهم أمر الدين، ويدعوهم إلى الإسلام، وكان فيهم الرّجّال بن عنفوة يتعلم، ثم إنهم لما أرادوا الرجوع، أمر لهم ﷺ بجوائز لكل منهم.

فلما عادوا إلى بلادهم ارتد مسيلمة، وتنبأ لهم، وقال: إني أشركت في الأمر معه -يقصد النبي ﷺ- وسجع لهم سجعًا يضاهي به القرآن، واستمال عقول قومه الذين استجابوا لأمره، والتفوا حوله مرتدين عن الدين.

ولقد بعث النبي ﷺ الرَّجَّال بن عنفوة الذي تعلم القرآن حتى يقف في وجه مسيلمة، ويمنع الناس من أن تؤثر فيهم هذه الفرية الكاذبة، لكنه كان شرًّا على

قومه هو الآخر، فلم يفده ما تعلم من القرآن، وما عرف من أمر الدين، فدخل في هذه الفتنة يزيد من سُعارها، ويعلن للناس أن رسول الله ﷺ إنما بعثه ليؤيد دعوة مسيلمة، كان لهذا أثره في زيادة فتنة مسيلمة نواحي نجد، والتي كانت أخطر حركات الردة التي واجهها المسلمون بعد وفاة النبي ﷺ

وفد بني عامر:

كذلك فإن وفد بني عامر الذين جاءوا وفيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس، جاء عامر إلى النبي ﷺ يقول بأنه يخيره ﷺ بين ثلاث خصال: أن يكون للنبي ﷺ أهل السهل وله أهل المدر، أو أن يكون خليفته من بعده وإلا فإنه سيغزوه بغطَفان، وكان مما قاله للنبي ﷺ أتجعل لي الأمر من بعدك إن أسلمت؟ فقال النبي ﷺ: ليس ذلك لك ولا لقومك هذا الأمر الذي طلب منه ﷺ أيامًا إن كان يعرض نفسه على القبائل، وهو في مسيس الحاجة إلى من يقف بجانبه من العرب حتى يؤدي رسالة ربه، ولكنه أبى من كل هذا، وقال: إن الأمر لله، إن الأمر لله، إن الأمر لله يجعله حيث شاء، وكان عامر قد دبر مؤامرة مع إربد بن قيس للغدر بالنبي ﷺ ولكن الله منع رسوله ﷺ من ذلك فكان عامر يقول لأربد: "سوف أشغله عنك وأنت تعلوه بالسيف، ولكن الله ﷻ منع رسوله ﷺ وعاد عامر بعد أن لم يسلم؛ فقتله الله في الطريق وقتل أربد بصاعقة من السماء.

كذلك وفد على النبي ﷺ وفد الأزد ثم وفد أهل الجرش حيث قدم أولًا سرد بن عبد الله الأزدي في وفد من قومه على النبي ﷺ فأسلم وحسن إسلامه وأمره النبي ﷺ على من أسلم من قومه وأمره ﷺ أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبل اليمن.

ولذلك فإنه جاهد أهل جُرش، وكانت مدينة حصينة وبها قبائل من اليمن، وقد انضم إليهم قبيلة خثعم فتحصنوا بجرش لما سمعوا بمسير المسلمين إليهم فحاصرهم سُرد شهرًا أو قريبًا منه، ثم أوقع بهم في قتال نال منهم فيه، وكان أهل جرش لما ضيق عليهم قد بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ ينظران في أمره، فلما كان عنده ﷺ نعى لهم قومهما يوم أن أوقع بهم سُرد بن عبد الله، ودعا لأهل جرش بأن يرفع الله عنهم ما نزل بهم، ولما رجع الرجلان إلى قومهما فأخبراهم بأمر ما أخبرهم به النبي من أمر ما وقع به سارعوا إلى الإسلام.

وفد ملوك حمير، وجُزام، وهمدان:

كما قدم على النبي ﷺ كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك، وجاء رسولهم إليه ﷺ بإسلامهم فكتب إليهم ﷺ كتابًا ذكر لهم علمهم بكتابهم وبما فيه من إسلامه، وقتلهم المشركين، وأن الله قد هداهم بهداه إن أصلحوا وأطاعوا الله ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة.

ثم بَيَّن لهم ﷺ أمر الزكاة وما عليهم فيه في كل ما يجب فيه الزكاة، كما أنه ﷺ بعث إليهم معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة، وأمرهم أن يجمعوا ما عندهم من الصدقة والجزية من مخالفهم في الدين مما بقوا على نصرانية أو يهودية، كما أنه ﷺ أمرهم أن يحسنوا إلى رُسُله الذين بعثهم إليهم ليعلمهم وليفقهوهم في الدين، وقد أمر النبي ﷺ على من بعثهم إلى ملوك حمير معاذ بن جبل بعد أن أوصاه بهم، وقال له: "يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر"، وبعد أن سأله بماذا يحكم فيهم؟ فقال: "بكتاب الله"، فقال: فإن لم تجد؛ فقال: فبسنة رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: "فإن لم تجد"، فقال: أَجْتَهِدُ

رَأْيِي وَلَا آلُو، فتبسم النبي ﷺ وقال: "الحمد لله الذي هدى رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله ﷺ.

وفد جُزام:

قدم على النبي ﷺ وفد جزام وفيهم رفاعة بن زيد الجزامي الذي كتب له النبي ﷺ كتابًا له ولقومه، ولمن دخل معهم أن يدعوهم إلى الله ﷻ فمن أقبل ففي حزب الله ومن أبى فله أمان الله شهرين فأجابه قومه وأسلموا.

وفد همدان:

كما كان من الوفود التي جاءت وفد همدان الذين رحب بهم النبي ﷺ قائلًا: نعم الحي همدان ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد، ومنهم أبدان وأوتاد الإسلام فأسلموا وكتب لهم النبي ﷺ بما أقطعهم بهم من نواحي بلادهم كتب ذلك لمن أسلم منهم ﷺ.

هذه هي أمثلة لبعض الوفود التي وفدت على النبي ﷺ تعلن إسلامها، وإن أمر الوفود التي جاءت إليهﷺ إنما يدل على أن دعوة الحق قد انتشرت في أرجاء الجزيرة العربية على اختلاف قبائلها، والتي يعد قدومها إلى المدينة دليلًا واضحًا على ذلك.

ثم إنه ﷺ بعث الرسل من عنده معلمين للقبائل، كما بعث المصدقين الذين يجمعون الزكاة من القبائل، والعمال على هذه النواحي حتى تشتد آصرة الانتماء إلى الإسلام، وإلى مدينة النبي ﷺ التي توجهت القلوب كلها عن طواعية للمدينة.

فأرسلﷺ المهاجر ابن أبي أمية إلى صنعاء، كما بعث زياد بن لبيد إلى حضر موت، وعدي بن هشام اليرجوعي على صدقات بني حنظله، وبعث عدي بن حاتم الطائي على طيء وصدقاتها، وبعث علي بن أبي طالب > إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم ويقدم عليه بجزيتهم؛ لأنه كان فيهم من أسلم ومن بقي على نصرانيته.

على أن أمر الإسلام لقي في نجد وفي اليمن ما يعكر صفوه بانبعاث مسيلمة الكذاب في بني حنيفة في نجد، وتعرضنا للكتاب الذي بعثه مسيلمة إلى النبي ﷺ وبقي أمر مسيلمة بهذه الفتنة التي استشرى أهلها في نجد حتى بعد وفاة النبي ﷺ وكانت فتنته من أشد حركات الردة التي قضي عليها في خلافة أبي بكر > بعد وفاة النبي ﷺ.

ومن ناحية أخرى فإن كاذب آخر أدعى النبوة في اليمن هو الأسود العنسي الذي استشرى خطره في اليمن بعد أن مات باذان عامل النبي ﷺ الذي استجاب لأمر الله ودخل باليمن في الإسلام لما مات بزان هذا انبعث الأسود العنسي بهذه الفتنة وأدعى النبوة واجتمع عليه أناس كثيرون حتى خافه عمال النبي ﷺ لأن فتنته عظم خطرها واستشرى أمرها، وما كان انبعاثه إلا بعد موت باذان كما عرفنا فاستولى على صنعاء وتزوج امرأة باذان كرهًا عنها، وقد تعاون جماعة من الأبناء من الفرس على قتل هذا الرجل بمساعدة المزوبانة زوجة باذان وقضى الله على هذه الفتنة التي استشرى خطرها فقد كان هذا الكذاب يستعين بشيطانين أحدهما: يسمى سحيق والآخر يسمى: شقيق كان يخبرانه بكل شيء يحدث من أمور الناس وكان هذا مما فتن الناس به.

ولما تمكن الأبناء في اليمن من قتل الأسود بعثوا إلى النبي ﷺ يخبرنه ولكن النبيﷺ جاءه الوحي بذلك من قبل وفاته ﷺ بيوم وليلة فأخبر أصحابه بذلك ثم جاء الخبر بعد ذلك بعد خلافة أبي بكر > وقيل: وصل الخبر بذلك صبيح دفن النبي ﷺ وهكذا قضى الله على هذه الفتنة في نواحي اليمن، وعاد اليمن مسلمًا، كما كان وعزة كلمة الإسلام فيه، ورجع عمال النبي ﷺ إلى أعمالهم ومباشرة ما كلفهم به النبي ﷺ.

هذه من الأحداث التي كانت قبل حجه ﷺ وهي أحداث عظيمة كانت لها دلالتها على رسوخ الإسلام في نواحي الجزيرة من قبل وفاة النبي ﷺ اللهم ما كان من أمر مسيلمة الكذاب في نواحي نجد.

حجة الوداع

عناصر الدرس

العنصر الأول :	إعلان حجه ﷺ والخارجين فيه، حج أبي بكر وما تَّم فيه	٣٣٩
العنصر الثاني :	إعلان الناس بحجه ﷺ، المسير إلى مكة والوصول إليها، وسوقه الهدي معه ﷺ	٣٤١
العنصر الثالث :	بدأ أعمال حجة ﷺ: يوم عرفه وعمله ﷺ فيه، وعمل ليلة النحر بمزدلفة، وعمل يوم النحر بمزدلفة ومنى وحكمه	٣٤٢
العنصر الرابع :	تصحيح مخالفات العرب في أداء المناسك، ذهابه ﷺ إلى منى، وحجه، وخطبته	٣٤٤
العنصر الخامس :	ـواف الوداع والعودة إلى المدينة، وبعثه ﷺ بأسامة لغزو الروم وأعوانهم، ومرضه ﷺ	٣٤٩
العنصر السادس :	مؤكدات الإحساس بدنو أجله ﷺ وصلاة أبي بكر بالناس	٣٥٣
العنصر السابع :	ساعة وفاته ﷺ وذهول الناس هول النبأ، وثبات أبي بكر، تلاقي أبي بكر خطر الفتنة، أبو بكر خير من يخلفه ﷺ	٣٥٦

إعلان حجه ﷺ والخارجين فيه، حج أبي بكر وما تمَّ فيه

أ. إعلان حجهﷺ والخارجين فيه:

عزم النبي ﷺ على أن يختم حياته بحجٍ إلى بيت الله الحرام وكان ذلك في السنة العاشرة من الهجرة، فأعلن في الناس، فاجتمع بشر كثيرون بالمدينة؛ لينالوا شرف الصحبة مع النبي ﷺ في حجه هذا.

كان هذا هو ثالث حج للنبي ﷺ بعد فتح مكة، فإن الموسم الأول الذي جاء ومكة قد دخلت في الإسلام كان في العام الثامن، ولما جاء موسم الحج ترك النبي ﷺ العرب يحجون كما كانوا يحجون، ولم يأخذهم قهرًا، وحج بالناس في ذلك العام عَتّاب بن أسيد عامل النبي ﷺ على مكة، وهذا رفق من النبي ﷺ بالعرب وبالمشركين حتى يدخلوا الإسلام على طواعية، فما منعهم الحج هذا العام على الرغم مما كانوا عليه من الشرك والمخالفات الشديدة التي بعدت بمناسك الحج، وأدائها عن ملة إبراهيم عليه السلام.

ب. حج أبي بكر، وما تم فيه:

ثم إنهﷺ في العام التاسع أمر أبا بكر بالخروج بالمسلمين أو بوفد المسلمين من حجاج المدينة ومن حولها، فخرج > وكان معه ثلاثمائة من الصحابة ساقوا عشرين بَدنه.

ولما فصل أبو بكر > بالناس، نزلت سورة براءة فأتبع النبي ﷺ أبا بكر بعلي بن أبي بكر يحمل صدر سورة براءة أربعين آية وأمره أن يقرأها على الناس في الموسم وأن يبلغهم بلاغ النبي ﷺ وأمر الله عز وجل.

وقد اختار النبي ﷺ عليًّا؛ لأنه قال ﷺ: ((لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي))، ولما رأى أبو بكر عليًّا ظن أنه بُعث أميرًا فسأله أمير أم مأمور؟ قال: بل مأمور، وعرفه أنه إنما جاء ليبلغ عن رسول الله ﷺ إلى الناس في مواقف الحج ما أنهى الله به كل أمور الشرك بما أنزلت به آيات سورة التوبة -أو سورة براءة.

وكان مما أمر به النبي ﷺ عليًّا أن ينادي في الناس: ((لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج بعد العام مشرك، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته))، ثم كانت آيات سورة براءة التي فَصَلَت الأمر بين الإيمان والشرك، قال تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: ٣] ثم تجعل الأمد للمشركين أربعة أشهر حتى يكون الإمهال رحمة بأمثال هؤلاء.

كما تبين الآيات في صدر هذه السورة رحمة الإسلام ورفقه بأمثال هؤلاء: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦].

وكان حج أبي بكر بالناس في العام التاسع؛ لأن النبي ﷺ إنما شغل بلقاء الوفود التي أتت إلى المدينة تعلن إسلامها، من ناحية أخرى فإن أمر حج العرب كان فيه من المخالفات التي تسامح النبي ﷺ في أن يباشرها العرب في العام الثامن وفي العام التاسع، وحتى يبلغ الناس بانقطاع القضاء على هذه العادات التي أدخلها العرب في الحج ومناسكه، وحتى يكون ذلك ممهدًا لحج النبي ﷺ في العام العاشر الذي تطهر البيت فيه من أرجاس المشركين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨]

وكان هذا أمر من الله ﷻ وهكذا بلغت الدعوة كل الناس؛ لأن قبائل العرب الذين حجوا في هذا الموسم رجعوا بهذه البلاغات التي بلغها النبي ﷺ إليهم،

وبلغها عنه علي وأبو بكر، وصحابة النبي ﷺ فلم يعد هناك عذر لمعتذر من بعد ذلك، وطهرت مكة من أرجاس الجاهلية، ومن المشركين، كما طهرت من قبل من الأوثان والأصنام.

إعلان الناس بحجه ﷺ المسير إلى مكة والوصول إليها، وسوقه الهدي معه ﷺ

أ. سبب تأخير حجه # بعد فرض الحج:

لما عزم ﷺ على الحج، أعلن في الناس أنه حاج هذا العام، فقدم إلى المدينة خلق كثير يريدون أن يكون لهم شرف صحبة النبي ﷺ في حجه، فلم يتمكن من الحج في التاسعة للوفود التي قدمت؛ ولأنه ﷺ لم يرد أن يشارك العرب في حجهم، وهم على هذه المخالفات.

ب. المسير إلى مكة والوصول إليها، وسوقه الهدي معه # :

ولقد خرج النبي ﷺ يوم السبت لخمس باقين من ذي القعدة بعد أن صلى الظهر بالمدينة فنزل بذي الحُلَيفة وبات بها ﷺ ثم أحرم بالحج والعمرة معًا قارنًا على أصح الأقوال التي تناولت حجه ﷺ، وكان إحرامه بعد أن اغتسل وغسل رأسه بخطمي وأُشنان ولبد رأسه بما يعرف باسم الغِسل؛ لأنهم كان يعتدون هذا حيث لا ينشر الشعر أو ينتشر فيه الهوام، ثم طيبته عائشة > بطيب فيه مسك حتى إنه # كان يرى وبيص المسك في مفارقه وفي لحيته -أي بريق المسك.

ثم إنه ﷺ قلد بدنه قبل الإحرام، وأشعرها من جانبها الأيمن، ثم ركب ناقته بعد أن صلى الظهر بذي الحليفة قصرًا، ولبَّى ورفع صوته بالتلبية حتى يسمع الناس.

وكان مسيره من ذي الحليفة في يوم الأحد ؛ لأنه بات ليلة الأحد في ذي الحليفة، ووصل ﷺ إلى ذي طوى قريبًا من مكة، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة، ثم إنه ﷺ بعد أن صلى الصبح انتظر حتى اغتسل في هذا اليوم، ونهض إلى مكة التي دخلها من أعلاها من الثنية العليا التي تشرف على الحاجين.

بدء أعمال حجه # : يوم عرفه وعمله # فيه، وعمل ليلة النحر بمزدلفة، وعمل يوم النحر بمزدلفة ومنى وحكمه

أ. بدء أعمال حجه # :

سارالنبي حتى دخل المسجد ضحى، ثم عمد إلى البيت، وطاف بعد أن استلم الحجر الأسود، ثم بعد الطواف أتى خلف المقام -مقام إبراهيم- فقرأ: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] ثم صلى ﷺ ركعتين، ثم بعد ذلك طاف ثم سعى بين الصفا والمروة، وأدى هذا العمل، ثم إنه ﷺ بعد ذلك نزل بظاهر مكة، فأقام بها ما بقي من أيامٍ حتى جاء يوم الخميس الثامن من ذي الحجة، الذي خرج منه ضحىً متوجهًا بمن معه إلى منًى، فأحرم بالحج من كان أحل منهم ؛ لأنه ﷺ أمر من لم يكن قد ساق الهدي معه بأن يتحلل بعمل عمرة، فأحرم بالحج كل من تحلل بعمرة يوم أن دخلوا مع النبي ﷺ وأهلوا من رحالهم كما أمرهم النبي ﷺ وصلى بذلك وصلى النبي ﷺ الظهر والعصر والمغرب والعشاء في منى حتى أصبح فصلى الصبح، وكانت تلك ليلة الجمعة يوم عرفة.

ب. يوم عرفه وعمله ﷺ فيه، وعمل ليلة النحر بمزدلفة، وعمل يوم النحر بمزدلفة ومنى وحكمه:

فلما طلعت الشمس سارﷺ من منى إلى عرفة، وكان من بين أصحابه الملبي والمكبر والمهلل وهو يسمع ذلكﷺ ولا ينكر على أحد منهم، ثم نزل ﷺ بعرفات في قبة ضربت له بنمرة وكانت قرية شرقي عرفات، حتى إذا زالت الشمس رحلت ناقته القَصواء.

ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض عُرنة، فخطب الناس وهو على راحلته خطبة عظيمة، قرر فيها قواعد الإسلام، وهدم قواعد الشرك والجاهلية، وقرر تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها، وجاء الإسلام ليؤكد ذلك: وهي تحريم الدماء والأموال والأعراض، ووضعﷺ في هذه الخطبة أمور الجاهلية تحت قدميه، ووضع فيها كذلك رِبا الجاهلية، وأوصى بالنساء خيرًا، كما أوصى بالاعتصام بكتاب الله ﷻ، وبيَّن للناس أنهم لن يضلوا أبدًا ما تمسكوا به وبسنته، ثم إنه ﷺ أخبرهم أنهم مسئولون عنهما أمام الله، واستنطقهم بماذا يقولون؟ وبماذا يشهدون؟ فقالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت فرفع أُصبعه إلى السماء واستشهد الله عليهم ثلاثًا قائلًا: ((ألا هل بلغت اللهم فاشهد)) ثم أمرهم أن يبلغ الشاهد منه الغائب.

وهنا أرسلت أم الفضل زوج العباس -رضي الله عنها وعنه- بقدح لبن إلى النبي ﷺ فشربه أمام الناس، وهو على ناقته، يخطب حتى يتأكد للناس أنه كان مفطرًا في هذا اليوم، ثم إنهﷺ لما أتم هذه الخطبة أمر بلالًا فأذن أذانًا واحدًا وأقام الظهر فصلاه ركعتينﷺ ثم أقام للعصر إلى أذان فصلاه ركعتين، ثم إنهﷺ بعد الصلاة ركب ناقته حتى أتى الموقف في ذيل الجبل عند الصخرات واستقبل القبلة وكان على بعيره، فأخذ في الدعاء والابتهال والتضرع إلى الله ﷻ حتى كان الغروب.

فلما غربت الشمس واستحكم غروبها أفاض ﷺ إلى مزدلفة مردِفًا خلفه أسامة بن زيد، وأمر الناس ﷺ بالسكينة، وضرب المثل من نفسه حين ما ضم إليه ذمام ناقته حتى إن رأسها ليصيب طرف رَحله، وكان يأمر الناس بالسكينة فيقول: عليكم بالسكينة، يقرر ذلك حتى لا يتدافع الناس.

تصحيح مخالفات العرب في أداء المناسك، ذهابه ﷺ إلى منى، وحجه، وخطبته

أ. تصحيح مخالفات العرب في أداء المناسك:

وهنا نرى أنه ﷺ بحجه بين أمرًا كانت تخالف فيه قريش والعرب كذلك فإن قريشًا ما كانت تقف بعرفة لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم غير العرب، وأنهم من أهل الحرم، كذلك فإنه ﷺ لم ينفر من عرفة إلى المزدلفة إلا بعد أن كمل غروب الشمس، وكان في هذا مخالفًا للعرب؛ لأن قبائل العرب كانت تفيض من عرفات إلى المزدلفة قبل غروب الشمس، حينما تكون على رءوس الجبال كالعمائم على رءوس الرجال؛ ولذلك كان هديه ﷺ بأمر الله مبينًا كل ما خالفت فيه العرب، وحتى يأخذ الناس عنه ﷺ صحيح المناسك؛ فكان يقول لهم: ((خذوا عني مناسكم)).

ثم إنه ﷺ سار حتى أتى المزدلفة فتوضأ للصلاة، ثم أمر بلالًا فأذن أذانًا واحدًا، وأقام للمغرب وللعشاء التي صلاها ﷺ قصرًا وجمعًا مع المغرب جمع تأخير.

ثم إنه ﷺ نام حتى أصبح، ولم يحي تلك الليلة لجهد اليوم السابق، وللجهد الذي سوف يكون في يوم النحر.

ثـم إنـه ﷺ كـان قـد أذن لـضعاف النـاس أن يتقـدموا إلى منـىً قبـل طلـوع الفجـر وأمرهم ألا يرمـوا الجمـرة حتـى تطلـع الـشمس، ثـم لما طلـع الفجـر وهـو ﷺ في المزدلفة صلاه، ثم بعد ذلك ركب إلى موقفه عند المشعر الحرام، فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع لله ﷻ حتى قرب شروق الشمس، فخرج منها إلى منىً مخالفًا بذلك أمر العرب الـذين كـانوا يخرجـون إلى منـىً بعـد طلـوع الـشمس، كـل هذا بيان صادق من النبي ﷺ لمناسك الحج للناس.

ب. ذهابه ﷺ إلى مِنى:

هـذا يـوم الحـج الأكـبر حينمـا خـرج الـنبي ﷺ إلى منـىً بعـد أن أدى شـعائر الحـج في المزدلفـة وسـار إليهـا ﷺ يلبـي حتـى شـرع في الرمـي، وكـان قـد أمـر أن تلـتقط حصيات الرمي، وأمر أن تكون كحصى الخزف، وهو الحصى الصغير الذي يشبه حب البقلاء، ثم أخذ الحصيات ونفضهن في كفه وأراهنَّ للناس وقال: بمثل هـذا فارموا، ولا تغلوا فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين.

وفي هذا اليوم العظيم كان للنبي ﷺ في منى أعمـال ترتبـت علـى هـذا النحـو فقـد بدأ ﷺ بجمرة العقبـة ثـم نحـر هديـه وكـان قـد قـدم مائـة بـدأ نحـر بيـده ثلاثـة ثلاثًـا وستين بدنه على حسب سن عمره ﷺ، ثم أمر علـي أن ينحـر مـا زاد علـى ذلـك حتى المائة، ثم أمر عليًّا أن يتـصدق بالبُـدن علـى المـساكين، فلمـا يـرد عـن هديـه إنسانًا، ولا محتاجًا ﷺ، ثم طبخ من كل بُدنـة قطعـة، فأكـل الـنبي ﷺ مـن ذلـك وشرب من مرقه، وفي غضون ذلك حلق ﷺ وأمر الحلاق أن يحلق الجانب الأيمن من رأسه الشريف، وأمر أن يقسم شعره على من يليه من هـذا الجانـب، وكـذلك فعل بالجانب الأيسر، ثم إنه ﷺ خطب الناس في هذا اليـوم حـين ارتفـع الـضحى خطبة بَيَّنَ فيها كثيرًا من أمور الدين، وأمر الناس بما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وكان مما جاء فيها أنه ﷺ بين حرمة الدماء والأموال والأعراض، وأنها كحرمة هذا اليوم في هذا البلد في هذا الشهر، ثم قال: ((ألا هل بلغت اللهم فاشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغٍ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)) ثم ذكر ﷺ أن الزمان قد استداركهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وأن الأمر قد استقام بعد عبث المشركين بنسيئة الأشهر الحرم ثم أمرهم ﷺ بالسمع والطاعة لمن أُمِّرَ ولو كان عبدًا مجدع الأنف ما قاد الناس بكتاب الله.

و بين ﷺ أنه لا تجني نفس على أخرى كما أنه ﷺ قال للناس: إن الشيطان قد يأس أن يعبد في بلدكم هذا، ولكن سيكون له طاعة في ما تحقرون من أعمالكم فيرضى، ثم بين # أن الله أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، وأمرهم قائلًا: ((اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصموا شهركم، وأطيعوا إذا أمرتم، تدخلوا جنة ربكم)) كما أنه ﷺ أوصى الناس بما ملكت الأيمان فقال: ((أراقاءكم أراقاءكم أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون وإذا جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم)) ثم استشهد الناس على بلاغه أمر الله وقال: ((اللهم فاشهد)).

وهكذا أدى رسول الله ﷺ هذا العمل الذي وصل به عمل الأمس من أعمال الحج، ثم توجه إلى مكة ليطوف طواف الإفاضة، بعد أن تطيب ولبس ثيابه، فطاف طواف الإفاضة وشرب من ماء زمزم ومن نبيذ التمر بماء زمزم الذي لم يرض إلا أن يشرب مما يشرب منه الناس، مع أن الناس كانت تخوض أيديهم في هذا الشراب ﷺ.

ج. عمل أول أيام التشريق، عمل ثاني أيام التشريق، إتمام الحج:

ثم إنه ﷺ عاد إلى منى، وأكمل اليوم بها وبات حتى أصبح في أول أيام التشريق وانتظر ﷺ حتى زالت الشمس فرمى الجمرات الثلاث، ولم يقدم شيئا بعد الزوال على الرمي؛ لأن وقت الرمي في منى عند الزوال كوقت الرمي في يوم النحر عند طلوع الشمس.

وفي اليوم الثاني وهو أوسط أيام التشريق نزلت عليه ﷺ سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣- ١].

د. خطبته ﷺ في حجة الوداع:

ثم ذهب ليخطب الناس خطبة الوداع لأنه عرف أن هذا أجلَه وكان مما جاء في خطبة أوسط أيام التشريق على ما رواه أبو داود من رواية سراء بنت نبهان أنه ﷺ سأل عن اليوم والشهر والبلد، نرى ذلك يتقرر في خطبه ﷺ حتى يستنطق الناس بحرمة الموقف واليوم والشهر، ثم قال: أليس هذا أوسط أيام التشريق؟ ثم بين ﷺ أن حرمة الدماء والأموال والأعراض كحرمة هذا كله، وهذا نجد التأكيد منه ﷺ على هذه الحرمة حتى لقاء الله ﷻ.

ثم قال ﷺ: اسمعوا مني تعيشوا؛ ألا لا تظالموا، ثلاثًا، وإنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ثم إنه ﷺ قرر هنا كذلك وضع كل دمٍ ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمه إلى يوم القيامة، وجعل ربا العباس عمه ودم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب أول ربًا، وأول دمٍ يوضع من ذلك تحت قدمه، وهكذا نجد مثل هذه الأمور تتقرر في خطبه ﷺ ليؤكد للناس ذلك، وليسمع من لم

يكن سمع منه ﷺ ولعل هذا هو السبب في تكرير أمثال هذه الأمور في خطبه ﷺ في حَجة الوداع.

ومن هذا ما قاله ﷺ لهم باستدارة الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وأن أشهر السنة عادت بترتيبها الذي خلقها الله عليه، ثم حذر ﷺ المسلمين من أن يرجعوا كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض، كما أمر بتقوى الله في النساء وفي حبهن على الرجال، وبين ﷺ أن الشيطان قد يأس أن يعبده المصلون ولكنه لم ييأس في التحريش بينهم، وأنه رضي من المسلمين بمحقرات الأعمال.

ثم قال ﷺ في ختام خطبته: ألا ليبلغ شاهدكم غائبكم، لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ثم رفع يديه فقال: اللهم فاشهد وفتح الله له أسماع الناس فسمعوه حتى في منازلهم كما يقول عبد الرحمن بن معاذ التيمي.

هـ. تصحيح مخالفات العرب في أداء المناسك، والتيسير على أصحاب الأعذار:

وكان النبي ﷺ قد أعلن في الناس وأمر من ينادي فيهم بأن أيام منى أيام أكل وشرب وذكر لله ﷻ فلا صيام فيها بيانًا وتعليمًا منه ﷺكذلك فإنه ﷺ أذن لعمه العباس أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته، كما رخص بذلك لرعاء بجمع الرمي ليومين وأن يتناوب في هذا تيسيرًا في كل هذا على ذوي الضرورات.

وقد أقام ﷺ بمنى حتى أكمل حجه فلم يتعجل في يومين فلما كان يوم لنفر الآخر وهو ثالث أيام التشريق، وكان يوم الثلاثاء فإنه ﷺ ركب والمسلمون معه بعد أن أتم آخر الرمي، فنفر من منى ونزل بالمحصب وهو خيف بن كنانة وبقي به ﷺ حتى صلى العشاء، ثم رقد رقدة وركب بعدها إلى البيت، وكان نزوله ﷺ

بالمحصب هذه الفترة لأنه المكان الذي كان أنسب لنزول الناس لهذا الجمع يجتمعون فيه حتى ينطلقوا منه إلى مكة لطواف الوداع، ثم العودة إلى المدينة.

طواف الوداع والعودة إلى المدينة، وبعثه # بأسامة لغزو الروم وأعوانهم، ومرضه

أ. طواف الوداع والعودة إلى المدينة:

حرص ﷺ أن يكون الطواف آخر عهد الناس بالبيت؛ لأنهم كانوا قبل ذلك ينصرفون من كل وجه كما قال ابن عباس، وهذا من الأمور التي بينها النبي ﷺ في حجه للناس.

وبعد هذا توجه النبي ﷺ عائدًا إلى المدينة بعد أن أتم هذا النُسك وبين للناس حجهم، وكان آخر لقائه للناس وآخر عهده بمكة ﷺ.

وفي هذه الحجة من التشريع والبيان الذي تضمنته وكانت بيانًا واضحًا وتطبيقًا رحيمًا منه ﷺ في أداء هذا الحج، وما يجب على المسلمين أن يتخلقوا به وأن يلتزموه في أداء مناسك الحج حتى يوم القيامة.

وبعد؛ فهذه هي حجة الوداع التي حجها النبي ﷺ وسميت بذلك لوداعه ﷺ الناس فيها لقوله: ((خذوا عني مناسكم، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا)) كما أنها سميت: حجة البلاغ؛ لأنه ﷺ كان يقول لخطبه للناس فيها: ((ألا هل بلغت)) ثم يقول: ((اللهم فاشهد)) كما سميت: حجة الإسلام؛ لأنها التي حجها ﷺ بعد فرض الحج لم يحج ﷺ غيرها؛ لأن الحج فرض في السنة التاسعة أو العاشرة على خلاف وإن كان أصحها هو الأول والنبي ﷺ كان يباشر الحج من قبل الإسلام ومن قبل الهجرة وأنه حج حججًا كثيرة كما يقول ابن الجوزي: بل

إنه ﷺ كان يحج قبل البعثة، وهذا ما ذكره جبير بن مُطعِم لما رآه ﷺ واقفًا بعرفة أيام الجاهلية وكان هذا من توفيق الله ﷻ؛ لأن قريشًا لم تكن تقف بعرفات؛ لأنها لا تريد أن تقف في المشاعر من الحِل وعرفات منها.

وهكذا تمت هذه الحجة المباركة ووصل النبي ﷺ إلى ذي الحُليفَة عائدًا بعد أن أدى نسكه فبات بها ثم دخل المدينة ﷺ وقد أدى هذا الحج، وبقي في المدينة بعد ذلك نحوًا من واحد وثمانين يومًا كانت فيها ختام الأعمال التي أتم الله بها هذا العمر الكريم المبارك الذي هدى الله به أمة الإسلام والناس جميعًا.

ب. بعثه ﷺ بأسامة لغزو الروم وأعوانهم:

وكان من أهم الأعمال التي قام بها ﷺ في هذه الفترة هو بعث أسامة الذي وجهه لغزو الروم وأعوانهم أخذًا بثأر شهداء مؤته، فإنه ﷺ أقام بعد حَجه في المدينة بقيّة ذي الحجة والمحرم، ولما جاء يوم الاثنين لأربع ليالٍ بقين من صفر، أمر النبي ﷺ للتهيؤ لغزو الروم وأمر الناس بالجد في ذلك ثم دعا من الغد أسامة بن زيد فقال: يا أسامة، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك على هذا الجيش فأغر صباحًا على أَهْلِ أُبْنَى وَحَرّقْ عَلَيْهِمْ وَأَسْرِعْ السّيْرَ تَسْبِقْ الْخَبَرَ فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك.

ج. مرضه ﷺ:

فلما كان يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر بدأ برسول الله ﷺ وجعه، فحمّ وصدع ﷺ فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواءً بيده ونصحه وأمره بالغزو في سبيل الله، فخرج أسامة > بلوائه معقودًا فدفعه إلى بُريدَة بن الحصيب

الأسلمي وعسكر بالجرف وهو على ثلاث أميال من المدينة ولم يبق أحدًا من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في هذه الغزوة ؛ منهم أبو بكر والصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من وجوه الأنصار والمهاجرين.

د. كلام الناس في إمارة أسامة وموقفه ﷺ من ذلك :

ثم إنه ﷺ اشتكى وزاد وجعه ثم وجد من نفسه راحة، فخرج عاصبًا رأسه، وأمر الناس أن ينفذوا بعث أسامة، وهنا كره بعض الناس إمارة أسامة لصغر سنه، وكان ممن تحدث في هذا عياش بن أبي ربيعة المخزومي الذي قال: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين، وكثرت المقالة، وسمع عمر بن الخطاب > بعض ذلك فرده على من تكلم به تسليمًا بأمر النبي ﷺ وانقيادًا له.

وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك فغضب غضبًا شديدًا وخرج يوم السبت العاشر من ربيع الأول، وقد عصب رأسه بعصابة، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ((أما بعد فما مقالة قد بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة بن زيد ولئن طعنتم في إمارتي أسامة، لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وايم الله إن كان للإمارة لخليق، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي وإنهما لمخيلان لكل خير فاستوصوا به خيرًا فإنه من خياركم)) ثم نزل فدخل بيته ﷺ وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ وفيهم عمر بن الخطاب، ويمضون إلى المعسكر بالجرف، وهنا دخلت أم أيمن على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لو تركت أسامة يقيم في معكسره حتى تتماثل فإن أسامة إن خرج على حاله هذا لم ينتفع بنفسه، فقال: انفذوا بعث أسامة، فمضى الناس إلى المعكسر فباتوا ليلة الأحد.

وجاء أسامة إلى النبي ﷺ في هذا اليوم، وقد اشتد به الألم وزاد عليه المرض فدخل عليه وعنده الناس والنساء حوله، فطأطأ عليه أسامة فقبله والنبي ﷺ لا يتكلم، وجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة كأنه يدعو له، ثم رجع أسامة إلى معسكره استعدادًا للخروج لأمر النبي ﷺ.

ولما دخل يوم الاثنين وهو اليوم الذي توفي النبي ﷺ، وكان قد أصبح فيهم مفيقًا ﷺ وجاءه أسامة فقال له: اغد على بركة الله فودع أسامة رسول الله ﷺ وخرج إلى معسكره لما رأى رسول الله ﷺ مفيقًا، وهنا دخل أبو بكر > فقال: يا رسول الله أصبحت مفيقًا بحمد الله، واليوم يوم بنت خارجة، فأذن لي، فأذن له ﷺ فذهب إلى بيته بالسُنح وهي منازل ابن الحارث بن الخزرج بالمدينة.

وركب أسامة إلى العسكر وصاح في أصحابه باللحوق به، ولما انتهى إلى المعسكر وأمر الناس بالرحيل، وبينما هو على ذلك الأمر أتاه رسول من أمه أم أيمن يخبره أن رسول الله ﷺ يموت، فأقبل إلى المدينة وأقبل منه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه فتُوفي رسول الله ﷺ ذلك اليوم ومن ثم دخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرف إلى المدينة ورجع بُريدة بن الحُصَيب باللواء معقودًا بعقدة النبي ﷺ فغرسه عند باب الرسول ﷺ.

هذا البعث للجهاد في سبيل الله في هذا الميدان العظيم ميدان الشام، وأمر البعث بعد ذلك هو الذي سيتولاه أبو بكر حتى يكون أول أمر يباشره بعد أن ولي أمر المسلمين بعد النبي ﷺ؛ ولذلك هذا البعث كان وصْلة الخير في العمل بين عمل النبي ﷺ وعمل أبي بكر فإذا كان هذا البعث آخر عمله ﷺ فقد كان أول أعمال أبي بكر > الذي أصر على إنفاذه وعلى أن يسير هذا البعث في عقدة اللواء التي عقدها النبي ﷺ بيمينه حتى يكون له بركة النصر -إن شاء الله.

إذا كان هذا البعث بعث أسامة آخر أعماله ﷺ وهو الذي اهتم به وهو في مرض وفاته، وقرر الأمر بإنفاذه، ولم يخرج البعث بوفاته ﷺ التي كانت مصاب المسلمين جميعهم وكانت في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول بعد نحو من عشرة أيام أو تزيد قليلًا من المرض الذي نزل بهﷺ وكان مرض الوفاة.

مؤكدات الإحساس بدنو أجله ﷺ وصلاة أبي بكر بالناس

أ. مؤكدات الإحساس بدنو أجله الرسولﷺ :

لما نزلت سورة النصر على الرسول ﷺ عرف المسلمون بأن هذا أجل رسول اللهﷺ، كما أنه ﷺ عرف بهذا من قبل، ففي شهر رمضان من هذه السنة أحس النبي ﷺ بذلك لأن جبريعليه السلام كان يدارسه القرآن في رمضان كل عام مرة، أما في هذا الشهر آخر رمضان في حياته ﷺ فإن جبريل دارسه مرتين وهذا ما أسر به النبي ﷺ لابنته فاطمة التي جاءت تزوره في مرضه، فلما جاءته أسر لها سرًا فبكت ثم أسر لها سرًا آخر فضحكت وهنا سألتها عائشة < ما الذي سرها به رسول الله ﷺ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لما مات ﷺ وسألتها عائشة قالت: أما حينما أسر لي في المرة الأولى فإنه قال لي: إن جبريل كان يدراسني القرآن مرة في رمضان ولقد دراسني القرآن في رمضان هذا العام مرتين ولا أراه إلا دنو أجلي فبكت فاطمة > ، فأسر لها بما جعلها تبتسم وهو أنه بشرها بأنها أول أهل بيته لحوقًا به.

كذلك فإنه ﷺ لما أحس بوجعه وابتدئ بشكواه نادى على أبي مويهبه مولاه من جوف الليل وقال له: إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي، فخرج النبي ﷺ ومعه أبو مويهبه، فلما وقف بين أظهرهم في البقيع، قال: السلام عليكم يا أهل المقابر يهني لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه،

أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها والآخرة شر من الأولى، ثم أقبل على أبي مويهبة فقال: يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، وهنا بادره أبو مويهبة فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة، ثم استغفر ﷺ لأهل البقيع ثم انصرف فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه.

ب. شدة وجعه ﷺ وتمريضه في بيت عائشة:

ولما اشتد عليه وجعه وكان ذلك في بيت ميمونة بنت الحارث < استأذن نساءه في أن يمرض في بيت عائشة فأذنَّ له كلهن فانتقل إلى بيتها ﷺ.

ج. صلاة أبي بكر بالناس بأمره ﷺ، وآخر مجالسه ﷺ مع الناس:

وقد اشتد مرضه ﷺ فأمر بأن يصلي أبو بكر بالناس ولكن عائشة < رغبت في أن تدفع هذا الأمر عن أبيها حتى لا يتشاءم الناس به لأنه قام مقام رسول الله ﷺ وقالت يا رسول الله: إن أبا بكر رجل أسيف رقيق القلب لا يقوى أن يقف فيقرأ القرآن مقامك ويصلي بالناس، ولكنه ﷺ كرر الأمر بأن يصلي أبو بكر بالناس، حتى إن عائشة < طلبت من حفصة أن تطلب من النبي ﷺ ولكنه غضب ﷺ وكرر الأمر بأن يصلي أبو بكر بالناس وهكذا قام أبو بكر نائبًا عن النبي ﷺ في هذا الأمر العظيم الذي كان فيه إشارة من النبي ﷺ لمكانة أبي بكر في الأمة وعند رسول الله ﷺ.

د. نظرة الرضا للناس في آخر فرض في حياته ﷺ:

ثم إنه ﷺ لما اشتد به وجعه أمر بأن يصبوا عليه سبع قربٍ من الماء من آبار شتى حتى يخرج للناس فيعهد إليهم، ففعلوا ذلك حتى قال: حسبكم أي: كفاكم

صبًا من الماء علي، ثم خرج ﷺ للناس فجلس إليهم آخر مجلس جلسه معهم وكان عاصبًا رأسه فجلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: إن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فهمها أبو بكر فعرف إنه ﷺ يريده نفسه فبكى وقال: نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا يا رسول الله، فقال: على رسلك يا أبا بكر، ثم خطب فيهم فقال: أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤني قط فعرفوا ذلك له أيها الناس إني عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين راضٍ فعرفه ذلك لهم، أيها الناس أحفظني في أصحابي وأصهاري وأحبابي لا يطلبكم الله بمظلمة أحد منهم، أيها الناس ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين وإذا مات أحد منهم فقولوا فيه خيرا.

وفي هذه الخطبة قال ﷺ: ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر، وكان هذا هو آخر مجلس ﷺ للناس وخطبهم فيه وكان ذلك قبيل وفاته ﷺ بخمسة أيام، وكان ذلك يوم الخميس الأخير في حياته وكان ﷺ في ذلك اليوم كان قد وجد خِفة فخرج للناس ولم يلبث ﷺ أن اشتد به وجعه حتى جاء يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول حينما كان أبو بكر يصلي بالناس صلاة الفجر في هذا اليوم.

ثم إن المسلمين لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ وقد كشف سِتره حجرة عائشة < فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم ﷺ فنكص أبو بكر ليصل الصف وظن أنهﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وقد هم المسلمين أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ فأشار إليهم ﷺ بيده؛ أن أتموا صلاتكم.

ساعة وفاته ﷺ وذهول النـاس لهول النبأ، وثبـات أبـي بكـر، تلاقـي أبـي بكـر خطر الفتنة، أبو بكر خير من يخلفه ﷺ

أ. ساعة وفاته ﷺوذهول الناس لهول النبأ:

ثم دخل الحجرة وأرخى ستره وعلى الرغم مما أمِله المسلمون من عافية رسول اللهﷺ من أمره هذا وهم في صلاتهم، إلا أن الساعات التي تلت هذا الموقف كانت آخر الساعات في حياته ﷺ وفيها اشتد عليه وجع الموت، وبينما هو في حجر عائشة > إذ دخل عبد الرحمن بن أبي بكر وفي يده سواك، فنظر إليه النبي ﷺ وأبّد النظر، فعلمت عائشة أنه يريد السواك، فتناولته من أخيها ولينته للنبي ﷺ فاستاك به، تقول فما استنّ رسول الله ﷺ استنانًا أكمل منه ولا أتم، ثم بعد أن استاك ﷺ رفع يده وأصبعه وشخص ببصره نحو السقف وتحركت شفتاه لما أصغت إليه عائشة حيث سمعته ﷺ وهو ينطق بآخر كلامه: مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهمّ الرفيق الأعلى، كرر ذلك ثلاثة، وكان هذا آخر ما تكلم به ﷺ ثم مالت يده ولحقت بالرفيق الأعلى ﷺ وكان ذلك حين اشتد الضحى أو في منتصف النهار، وهنا قالت: فاطمة: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.

وهنا لم يصدق الناس ما نزل برسول الله ﷺ حتى إن عمر > لما علم بوفاة الرسول ﷺ أخذ يقول: إن رسول الله ﷺ لم يمت ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى فمكث عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يعيش رسول

الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجالًا من المنافقين وألسنتهم يزعمون أو يقولون: إن رسول الله ﷺ قد مات.

ب. ثبات أبي بكر في الموقف الصعب:

ووقف الناس في ذهول كلهم حتى جاء أبو بكر لما علم بوفاة النبي ﷺ قدم من السُنح مسرعًا على فرسه فدخل على النبي ﷺ ولم يلتفت إلى عمر وكلامه، وقول الناس وذهولهم، ثم دخل على النبي ﷺ وهو مسجى في ناحية من البيت عليه بُرد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ فقبله ﷺ ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة، ثم رد البُردة على وجه رسول الله ﷺ وخرج وعمر يكلم الناس فقال: على رسلك يا عمر، أنصت، فأبى عمر إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فقال لهم: أيها الناس، إنه مَن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ثم تلي هذه الآيةَ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال عمر: والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذٍ، وأخذ الناس هذه الآية عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم، حتى قال عمر: فوالله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى وقعت من الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات. هنا عَمَّ الذهولُ الناسَ، ونزل المصاب فادحًا بهم.

ج. تلاقي أبي بكر خطر الفتنة، أبو بكر خير من يخلفه ﷺ:

وإذا كان هذا أمر أبي بكر، وأمر ثباته في الناس، مما ثبت الناس لثبات أبي بكر > فإنه كان لأبي بكر في هذا اليوم أمر عظيم من مواقف الإسلام لهذا الرجل، فإن الأنصار كان لهم شأن في ثقيفتهم -ثقيفة بني ساعدة- التي اجتمعوا فيها يجعلون رجلًا خليفة لرسول الله ﷺ هو سعد بن عُبادة > وهو رجل له مكانته في الإسلام وجهاده فيه، وهو أول رجل استخلفه النبي ﷺ عند أول خَرجَة له في غزوة الأبواء، ولعل الأنصار عرفوا فضل سعد بن عبادة ومكانته فيهم، ولذلك رشحوه؛ لأن يلي أمر المسلمين من بعده من بعدهﷺ.

ولكن حُمل نبأ اجتماع الأنصار في ثقيفة بني ساعدة إلى عمر بن الخطاب وإلى أبي بكر اللذين خفا إلى حيث الأنصار في ثقيفتهم حتى يتفادوا أمر الفُرقة التي أوشكت أن تطل برأسها في ذلك اليوم العصيب، ولما دخل أبو بكر وعمر إلى حيث الأنصار أراد عمر أن يتكلم، ولكنّ أبا بكر > منعه من ذلك فقام فأحسن الكلام بعد أن تكلم الأنصار، وذكروا فضلهم وسابقتهم في الإسلام، ولكن أبا بكر قام وقال: إن العرب لن تعرف هذا الأمر -وهو أمر خلافة النبيﷺ وقيادة الناس- إلا لهذا الحي من قرش، وذكر الأنصار وعملهم بالخير وأنهم كان لهم جهادهم ودورهم في الإسلام، وقال لهم: لقد كنتم أول من آزر فلا تكونوا من أول من بدل وغير.

وهنا قال أبو بكر للناس في الثقيفة: هذا عمر وهذا أبو عبيدة فاختاروا واحدًا منهما، ولكن عمر وأبا عبيدة قالا: ما كان لنا أن نتقدمك يا أبا بكر وقد رضيك النبي ﷺ لديننا -أي للصلاة- أفلا نرضاك لدنيانا. وهنا اجتمع أمر المسلمين في ثقيفة بني ساعدة على انتخاب أبي بكر خليفة للنبيﷺ وحسمت هذه الفتنة في ذلك اليوم.

نبذة عن أزواجه ﷺ وأخلاقه، وبعض من معجزاته

عناصر الدرس

العنصر الأول :	أول زواجه # مرحلة الشباب مع زوجة واحدة، ودور السيدة خديجة في حياته # قبل البعثة، وبعد البعثة	٣٦١
العنصر الثاني :	زواجه # قبل الهجرة بعد خديجة، زواجه من سودة وعائشة	٣٦٤
العنصر الثالث :	زواجه # من حفصة وزينب بنت خزيمة، وحكمة زواجه منهما	٣٦٦
العنصر الرابع :	زواجه # من أم سلمة وجُوَيرية بنت الحارث، والحكمة من زواجه منهما	٣٦٨
العنصر الخامس :	زواجه # من زينب بنت جحش وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وحكمة زواجه منهما ، و زواجه من صفية وميمونة، وحكمة زواجه منهما ، وحكمة الإباحة بهذا العدد	٣٧١
العنصر السادس :	أخلاق الرسول ﷺ	٣٧٤
العنصر السابع :	معجزات الرسول ﷺ ومعجزات في حياة الأنبياء قبله	٣٨٢
العنصر الثامن :	معايشة المؤمنين لمعجزاته #	٣٨٤

أول زواجه ﷺ مرحلة الشباب مع زوجة واحدة، ودور السيدة خديجة في حياته ﷺ قبل البعثة، وبعد البعثة

أ. أول زواجه ﷺ مرحلة الشباب مع زوجة واحدة:

كان أول زواج تزوجه النبي ﷺ هو زواجه للسيدة خديجة } الذي تزوجه وهو في مقتبل شبابه - في الخامسة والعشرين من عمره - وكانت في سن الأربعين على ما يقول الكثيرون، وعاش معها خمسة وعشرين عامًا؛ لأنها تُوفيت في السنة العاشرة من البَعثة، وكان زواجه منها ﷺ برغبة دفعت السيدة خديجة إلى أن تقترن بالنبي ﷺ حينما علمت من غلامها ميسرة الذي صحب النبي ﷺ في سفره في تجارتها إلى الشام، ورأى من أخلاق النبي ﷺ ما رأى مما قصَّه على سيدته، فأحبت أن تقترن به ﷺ لما رأته فيه من كريم الأخلاق، وحسن المعاملة، وأمانة في البيع والشراء؛ فإنه لما عاد وذكر ذلك جعل خديجة < تسر إلى صديقة لها - وهي نفيسة بنت مُنيَة - التي حملت هذه الرغبة إلى النبي ﷺ وسألته: ما يمنعه من الزواج؟ فقال: ما عندي ما أتزوج به، فقالت: فإن دُعِيتَ إلى الجمال والشرف والحسب والعقل؟! فقال: من؟ قالت: خديجة، فقال: ومن لي بذلك؟ قالت: عليّ ذلك.

وتم الأمر بأمر الله، وربما لما نقلت نفيسة إلى خديجة أن النبي ﷺ ليس عنده ما يمنعه من ذلك، ربما كان هناك لقاء بين خديجة وبينه ﷺ أعربت له عن رغبتها صراحة في الزواج منه، وهنا أخبر النبي ﷺ أعمامه الذين جاءوا فخطبوا السيدة خديجة، وتزوج النبي ﷺ بهذه المرأة الكريمة أول زواج لها، والتي عاش معها سني الشباب يعمل في مال الأسرة بعد أن كان مجرد أجير لها في مالها في هذه التجارة التي خرج فيها إلى الشام.

ب. دور السيدة خديجة في حياته ﷺ قبل البعثة، وبعد البعثة:

وكانت نعم الزوج؛ رزقه الله منها الولد، وواسته بمالها، ولّما كانﷺ يعيش مرحلة السنين التي سبقت البعثة بقليل، وكان ﷺ قد بدأت إرهاصات النبوة معه، فإنها كانت نعم المعين له بعد الله ﷻ على تحمل مشقة هذه السنين التي سبقت البَعثة.

وتقبلت بكل رضا ما كان يعتريه من حب الخَلوة، وما كان يقوم به من الاعتكاف في غار حراء إلا غير ذلك من أمور كانت دلائل واضحة على أن حدثًا هامًا سوف يكون لهذا الرسول ﷺ.

ولما جاءها بعد أن لقيه جبريل في غار، وحدث أول لقاء له بالنبي ﷺ وأصيب النبي ﷺ بفزع شديد من هذا اللقاء؛ فإنه لما عاد ممتقع اللون، مأخوذ الفؤاد، ما عنفته خديجة > ؛ وإنما تقبلت أمره بكل عقل وكل حكمة، فقالت له: كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا؛ فإنها كانت تعرف منه ﷺ كريم الخلق؛ ولذلك وثقت به، وذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي أخبره بأنه نبي آخر الزمان، وبشره بذلك؛ فزاد إيمان خديجة بزوجها محمد ﷺ.

وعاشت معه حياة خلال فترة عشرة أعوام -منذ بداية البعثة وحتى ماتت في السنة العاشرة منهاً. والنبي ﷺ في سن الخمسين، كانت عشرة سنين كلها جهاد وكفاح في هذه المرحلة الحاسمة التي عاشها النبي ﷺ يتلقى الصدود والإنكار والتكذيب؛ فكانت في بيتها خير من يسري عن النبي ﷺ وعاشت معه ﷺهذه الحياة الطويلة، وكابدت معه كل مشقة حتى مشقة الحصار في الثلاث سنوات الأخيرة من حياتها مع النبي ﷺ، وما إن انتهت هذه المرحل مرحلة الحصار حتى

توفاها الله ﷻ بعدها بقليل، فكان مصابًا عظيمًا للنبي ﷺ زاد على مصابه بوفاة عمه أبي طالب الذي كان قبلها بأيام قلائل؛ ولذلك اجتمع عليه ﷺ هذان المصابان فسَمَّى ذلك العام "عام الحزن".

ولقد كان ﷺ يُكِنّ لخديجة < كل ودٍّ وحبٍّ، وذكر لها، وكان يذكر لها ذلك حتى بعد وفاتها، وبعد أن تزوج بزوجات أخريات -منهن البكر الصغيرة عائشة وغيرها. وكان يذكرها دائمًا بخير؛ حتى إن عائشة قالت: "ما غرت من أحد من النساء ما غرت من خديجة"؛ لأن النبي ﷺ كان يذكرها دائمًا أمامها بكل خير، وكانت تقول: إن كان ليذبح الشاة فيقطعها أعضاءً؛ فيبعث منها في كل صواحب خديجة، ويقول: اذهبوا بهذا لفلانة؛ فإنها كانت صديقة لخديجة، أو بهذا فلانة فإنها كانت تأتينا أيام خديجة، حتى إنها < قالت لما فاض بها خديجة: كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة: أما والله لقد أبدلك الله خيرًا منها. فقال ﷺ: ((لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها قط، لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني حيث كذبني الناس، وواستني بمالها، ورزقني الله منها الولد))، فكفت بهذا الرد السيدة عائشة عن أن تذكرها بشيء يسوؤها أمام النبي ﷺ.

ج. أثر وفاتها في حياته ﷺ:

ولما توفيت السيدة خديجة، أصاب النبي ﷺ حزن شديد لاحظته عليه خَولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: كأني أراك يا رسول الله قد دخلتك خلة لفقد خديجة. فقال ﷺ: ((أجل! كانت أم العيال، وربة البيت)).

هذه الزوجة الكريمة التي اختارها الله ﷻ لتعيش مع النبي ﷺ هذه المرحلة العصيبة من مرحلة الدعوة التي لاقى فيها ﷺ ما لاقاه من قريش ومن أهل مكة خلال المرحلة المكية.

زواجه ﷺ قبل الهجرة بعد خديجة، زواجه من سوده وعائشة

ثم إنه ﷺ من بعد أن ماتت خديجة عرضت عليه خَولة أن يتزوج النبي ﷺ حتى يذهب عنه ما هو فيه؛ لأنه مما لا شك فيه: أن فقد الزوجة له أثر عظيم في حياة الرجل، وبخاصة إذا كانت على هذا الخلق وهذه العشيرة الطيبة، ومن ثم اقترحت خَولة على النبي ﷺ أن يتزوج وعرضت عليه امرأة مسلمة هي سودة بنت زمعه زوجة السكران بن عمرو، كما عرضت عليه أيضًا عائشة بنت أبي بكر -رضي الله عنه وعنها.

لذلك سعت هذه المرأة في زواج النبي ﷺ من بعد خديجة وكان ترشيح سودة بنت زمعة مع أنها كانت ثيبًا سبق لها الزواج، إلا أن النبي ﷺ أراد أن يكافئها بزواجه منها على إسلامها وتبكيرها بهذا الإسلام وهجرتها إلى الحبشة مغاضبة في هذا أهلها وقومها، الذين كانوا لا يرضون لها ذلك، فلما ذهبت إلى الحبشة مات زوجها السكران بن عمرو.

وكانت هجرتهما إلى الحبشة في الهجرة الثانية للمسلمين إليها، فلما عادت أراد النبي ﷺ أن يتزوجها تعويضًا لها عن فقدها زوجها، وجزاءً لها على إسلامها وحبّها لله ولرسوله وللإسلام، وعاشت معه ﷺ ما بقي له من سنين في مكة قبل الهجرة من بعد السنة العاشرة حتى هاجر النبي ﷺ فلحقته بالمدينة، وكانت > بدينة ثقيلة الجسم، أرادت أن تبقى لها شرف أمومة المؤمنين، فعرضت على النبي ﷺ أن يجعل يومها وليلتها في القسم للزوجات لعائشة، فأحبّها النبي ﷺ وأحبتها عائشة لذلك.

وكانت > زاهدة في الدنيا؛ فإن عمر بن الخطاب > لما بعث إليها بغرارة من دراهم؛ فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم، قالت: في الغرارة مثل التمر!

فأمرت بها، وفرقتها على الفقراء، وقد عاشت بعد النبي ﷺ حتى ماتت في خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة أربع وخمسين للهجرة.

ولقد كان زواج النبي ﷺ بسودة قرينًا كذلك بزواجه لعائشة { فإنه تزوج عائشة في نفس العام -في السنة العاشرة من البعثة- عقد عليها وهي بنت ست سنوات، ثم تزوجها وهي بنت تسع سنين لما هاجر إلى المدينة، فتزوجها في شوال من السنة الثانية للهجرة، وكان زواجه ﷺ بعائشة < تكريمًا لأبيها أبي بكر؛ الذي كان له جهاده العظيم في الدعوة إلى الله وفي مكابدة مشاق الدعوة مع النبي ﷺ.

فلقد كان أول المؤمنين به من الرجال، كما أنه دعا إلى الله ﷻ كثيرين من المسلمين الذين لهم شأنهم في الإسلام؛ أمثال: عثمان وعبد الرحمن وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وغيرهم كثيرين، كذلك فإنه كان المقرّب إلى قلب النبي ﷺ ولذلك أراد ﷺ أن يؤثره بهذا الشرف؛ شرف زواجه من بنته.

وقد كان أبو بكر وعد المطعم بن عدي -لما خطبها لابنه جبير- بزواج عائشة من ابنه؛ فلما خطبها النبي ﷺ فلكأن أبا بكر وجد حرجًا في ذلك؛ فإنه كان يحب ألا يخلف إنسانًا ما وعد، وها هو النبي ﷺ يخطب ابنته، وهنا كان فضل الله عليه؛ بأن رجع المطعم بن عدي من نفسه لإسلام أبي بكر وصحبته النبي محمداًﷺ فكان الرجوع حينئذٍ من المطعم بن عدي، ولذلك أمضى أبو بكر أمر زواج النبي ﷺ من ابنته.

وقد كانت عائشة من فضليات زوجات النبي ﷺ؛ لأنها كانت ذات عقل راجح على الرغم من صغر سنها، واستوعبت كثيرًا من أمور الدين وفقهتها؛ حتى إن النبي ﷺ قال في أمرها: ((خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء))، وإنها في أمور النساء مما يتعلق بضرورات حياتهم في الفقه كانت مرجعًا هامًا بالنسبة لهن

وللفقهاء في أمثال هذه المسائل التي تتعلق بالنساء، كما أنها كان لها أمرها ووزنها في علم الفرائض، فكانت مرجع المشيخة من أصحاب محمد ﷺ في علم الفرائض.

وكانت لها منزلتها عنده ﷺ: حتى إنه لما ثقل في مرض وفاته ﷺ فإنه طلب أن يُمرّض في بيت عائشة، وكان هذا مما تفتخر بها عائشة < فيما كانت تفخر به على غيرها؛ فإنه ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها، ولم ينكح امرأة أبواها مهاجرانِ غيرها، وأنزل الله ﷻ براءتها من السماء، وأن جبريل عليه السلام جاء النبي ﷺ بصورتها في حريرة، وقال: تزوجها فإنها امرأتك، وأنه ﷺ عاش لحظات حياته الأخيرة معها، وقبض ﷺ كما تقول: وهو بين سحري ونحري، وأنه مات في الليلة التي كان يدور فيها عليها، ودُفِن في بيتها ﷺ.

ولما تُوفيّ النبي ﷺ وجاء عهد عمر بن الخطاب < وفرض للناس الفرائض؛ فإنه جعل لكل زوجة من زوجات النبي ﷺ عشرة آلاف درهم وزادها ألفين لمكانتها عند النبي ﷺ ولمكانة أبيها عنده ﷺ.

وعاشت عائشة مرجعًا في أمور الفقه للمسلمين؛ لما كانت تراه من سلوك النبي ﷺ وما كانت تعلمه من علمه ﷺ، وعاشت بعده ﷺ حتى توفيت سنة ثمانين وخمسين من الهجرة وصلى عليها أبو هريرة < .

زواجه ﷺ من حفصة وزينب بنت خزيمة، وحكمة زواجه منهما

أ. حفصة بنت عمر وحكمة زواجه منها:

ومن زوجاته ﷺ كذلك حفصة بنت عمر بن الخطاب < وأمها زينب بنت مظعون، وخالها عثمان وقدامة، وقد ولدت قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين كما يقول أبوها: وقريش تبني الكعبة، وقد كانت زوجًا لخنيس بن حذافة، فكانت عنده، وهاجرت معه إلى المدينة، فمات عنها بعد الهجرة مقدم النبي ﷺ

من بدر، ولقد حزن أبوها عمر لتأيمها وفقدها زوجها وشغل بذلك الأمر؛ فعرضها على أبي بكر فلم يرد على عمر، وكان قد عرضها على عثمان فلم يبدِ رغبة في الزواج؛ يقول عمر: فوجدت في نفسي على أبي بكر أكثر مما وجدت على عثمان، فلمّا يلبث قليلًا حتى خطبها النبي ﷺ وهنا لقي أبو بكر عمر < وقال له: لعلك وجدت في نفسك مني حيث لم أرد عليك لّما عرضت علي حفصة، فقال: أجل، فقال ذلك لأني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، فلم أشأ أن أفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها لقبلتها.

وكانت حفصة < لها كذلك مكانتها عند النبي ﷺ لمكانة أبيها التي كانت له المكانة التالية لأبي بكر عند النبي ﷺ فكما أنه ﷺ تزوج عائشة تكريمًا لأبيها؛ فكذلك تزوج حفصة لمكانة أبيه عند النبي ﷺ ولأثره في الإسلام ولدوره فيه، وقد أرضى النبي ﷺ عمر لما تزوج منه؛ فقال له: قد زوج الله عثمان خير من ابنتك وزوج ابنتك خيرًا من عثمان، وروي أن النبي ﷺ طلقها ثم راجعها، وقد دخل أبوها عليها وهي تبكي فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؛ إن النبي ﷺ طلقك وراجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا كلمتك كلمة أبدًا؛ وعندما طلقها النبي ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال له: "رجّع حفصة فإنه صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة".

ب. زواجه ﷺ من زينب بنت خزيمة الهلالية؛ التعريف بها، حكمة زواجه منها:

أما خامسة الأزواج فكانت زينب بنت خُزيمة الهلالية < وكانت من قبل زوجة للطفيل بن الحارث بن عبد المطلب فطلقها، وقيل: فتزوجها بعده عبيدة بن الحارث الذي قتل في غزوة بدر، وقيل: كانت قد تزوجت عبد الله بن

جحش، وقتل عنها يوم أحد شهيدًا، وكانت هذه المرأة تدعى أم المساكين في الجاهلية لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، وقد روي أن النبي ﷺ عندما تزوجها أولم عليها بجذور، فكثر المساكين فتركهم الناس يطعمون من الطعام، وهي أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث < لأمها، وكانت لها مكانتها عند النبيﷺ التي كرمّها بالزواج منها؛ وقد تزوجها في رمضان من السنة الثالثة للهجرة، ومكثت عنده ﷺ ثمانية أشهر، وتوفيت في شهر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين شهرًا من الهجرة، ولم يمت من أزواجه ﷺ في حياته غيرها، وغير خديجة بنت خويلد -رضي الله عنهن أجمعين.

زواجه ﷺ من أم سلمة وجُويرية بنت الحارث، والحكمة من زواجه منهما

أ. زواجهﷺ من أم سلمة، والحكمة من ذلك الزواج:

كذلك فإنه ﷺ تزوج بأم سلمة < وهي هند بنت أبي أمية التي كان لها هي الأخرى دورها وجهادها وبلاؤها في الإسلام هي وزوجها أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد الذي كان من المسلمين الأولين، وهاجر بزوجته إلى الحبشة مرتين، وبادر لما جاء الأنصار يبايعون النبي ﷺ فهاجر من قبل هجرة النبي ﷺ لما علم أن المدينة أصبحت مسلمة وآزرت الإسلام والمسلمين، وهنا وقف أهلها من بني مخزوم يمنعون أبا سلمة من أن يأخذها معه، وقالوا له: هذه نفسك قد غلبتنا عليها، فما بال هذه نتركها معك تذهب بها في بلاد الناس، فنزعوا خِطام البعير من يده؛ فأخذوها ومنعوها وابنها من أن تلحق به، فتركهم ومضى < وعاشت أم سلمة بعد ذلك سنة كاملة قد فرق قومها بينها وبين زوجة الذي تركها وهاجر إلى المدينة؛ كذلك فإن رهط زوجها لما رأوا أهلها منعوها من أن تهاجر

مع زوجها أخذوا ابنها سلمة، وتنازع رهطها ورهط زوجها ابنها بينهم؛ حتى انخلع ذراع الولد، وبقية سنة كاملة تعاني من فراق زوجها وابنها، وحرمانها منهما.

وكانت تخرج إلى "الأبْطَح" كل يوم تبكي حتى يدركها المساء؛ حتى رقّ لها رجل من بني قومها، فقال لقومها: ألا ترحمون هذه المسكينة! فرقتم بينها وبين زوجها وولدها؛ فرضي أهلها بأن تلحق بزوجها، وهنا ردَّ أهل زوجها ابنها سلمة إليها، وخرجت مهاجرة في سبيل الله وحيدة مع ابنها؛ اللهم إلا ما يرعاها ربها ﷻ به، وهنا لقيها عثمان بن طلحة، فصحبها حتى أوصلها إلى المدينة.

تقول أم سلمة -تشكر صحبة هذا الرجل لها وأماناته وعفته وصيانته لحرمتها فكانت تقول-: فما أعلم رجلًا من العرب في مثل خلقه، حتى وصلت إلى قُباء لتبدأ حياة الهجرة في المدينة مع النبي ﷺ ولتبدأ مرحلة جهاد مع المجاهدين في المدينة.

وكان زوجها أبو سلمة من ذوي البلاء الحسن في الإسلام؛ جاهد مع النبي ﷺ، وشارك في "أُحُد" حتى جرح جرحًا كبيرًا اندمل بعد فترة، لكنه عاوده الألم واشتد عليه الجرح، مما كان سببًا في وفاته بعد أن خرج في سرية بأمر النبي ﷺ إلى بني أسد بعد "أُحُد"، ولما عاد انطلق جرحه مرة ثانية فمات منه.

ولذلك كان النبي ﷺ حريصًا كل الحرص على أن يكافئ أمثال هؤلاء النسوة اللائي لقين ما لقين في سبيل الإسلام وفي ذات الله من أمثال: أم سلمة < وزينب بنت خزيمة -رضي الله عنهن أجمعين- وقد ردت أم سلمة على النبيﷺ بأنها امرأة غيرى، وأنها مصبية، وأنه ليس أحد من أوليائها حاضرًا، وأنها قد طعنت في السن، فقال لها النبي ﷺ: بأن أولادها إنما هم في كفالة الله وكفالة

رسوله ﷺ أما ما بها من السن فقد أصابه ما أصابها منه، وأما الأولياء فإنه ليس أحد بشاهد ولا غائب إلا سيرضى برسول الله ﷺ ومن ثم فإنها قالت: يا عمر -لابنها. قم فزوج رسول الله ﷺ وكان زواجه ﷺ بها في شوال من سنة أربع.

على أن أم سلمة إذا كان من الحكمة التي هدف إليها النبي ﷺ أن يعوضها عما وجدت من فقد زوجها ومما لقته من قبل في هجرتها إلى الحبشة وإلى المدينة.

وقد كان لأم سلمة عقل راجح فصلت في أمر وجد النبي ﷺ في نفسه شيئًا فيه من أصحابه، لما أمرهم بالحلق والنحر يوم الحديبية، فلما تباطؤوا -ليس عن عصيان ولكن- رجاء أن يراجع النبي ﷺ قريش حتى يعتمروا، فلما دخل على أم سلمة < وكانت هي التي خرجت معه في هذه الغزوة -"غزوة الحديبية"- قالت له: يا رسول الله -مشيرة بأمر كله حكمة- اخرج وانحر هديك واحلق ولا تكلم أحدًا بعد أن هدأت من نفسه ﷺ وقالت: بأنهم قد وجدوا في أنفسهم لما منعوا من البيت وقد كانوا يأملون أن يعتمروا ويدخلوا مكة، فلطّف ذلك عن النبي ﷺ وكان رأيها رأيًا صائباً؛ إذا حُلت هذه المشكلة، فلما خرج النبي ﷺ يعمل بمشورتها ورأيها تدافع الناس ينحرون هديهم ويحلقون رؤوسهم.

ب. جُوَيرية بنت الحارث، وحكمة زواجه ﷺ منها، وبركة هذا الزواج على قومها:

كذلك فإنه كان من أزواجه ﷺ جُوَيرية بنت الحارث < وهي التي كانت سُبيت من "بني المصطلق"، وأبوها كان شيخ بني المصطلق، وهو الذي جمعهم لحرب النبي ﷺ ولكن آل أمرهم إلى أن هزم وسبي من نساء قومه وأسر من أسر؛ ولذلك فإن النبي ﷺ لما جاءته جويرية تسأله أن يعينها على أن تؤدي

ما عليها من كتابة لمن وقعت في سهمه؛ فإنه ﷺ قال لها: ((أو خير من ذلك؟!)) ثم عرض عليها أن يعتقها ويتزوجها، فكان زواجه ﷺ منها بمثابة تكريم لها؛ فهي ابنة سيد وشيخ له مكانته في بني المصطلق وفي خُزَاعة، ومن هنا فإنه ﷺ كرمها وأعتقها وتزوجها، بل جعل ذلك زلفًا للتودد إلى بني المصطلق وإلى خزاعة بوجه عام، فإذا كان بنو المصطلق قد سلكوا طريق العداء للنبي ﷺ من بين خزاعة فإن زواج النبي ﷺ منهم إنما يُعدُّ توددًا إليهم، كذلك فإنه تودد إلى خزاعة على وجه العموم التي كانت ودّ النبي ﷺ ومن ثم لم يكن في الزواج إلا هذا الأمر الذي كان خيرًا على بني المصطلق؛ فإن كل من أخذ سبيًا أو وقع في ملك يمينه رجل من بني المصطلق فإنه رده معتقًا؛ لأنهم أرادوا أن يقيموا أصهار رسول الله ﷺ، فكان من زواجه ﷺ من جويرية زيادة في حب بني المصطلق للإسلام، وللنبي ﷺ فأقبلوا مسلمين.

زواجه ﷺ من زينب بنت جحش وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وحكمة زواجه منهما، وزواجه من صفية وميمونة، وحكمة زواجه منهما، وحكمة الإباحة بهذا العدد

أ. زينب بنت جحش وحكمة التشريع من الزواج منها، تشويه المغرضين لوجه الحق في هذا الزواج:

كذلك تزوج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، وهي ابنة عمته أميمة، وكان قد زوجها النبي ﷺ على كره منها لمولاه زيد بن حارثة الذي كان معتبرًا عند قريش أنه ابن محمد بالتبني، ولما تزوجها زيد ووجد منها إعراضًا فإنه كان يشكوها إلى النبي ﷺ وكان ﷺ يأمره بإمساكها، وأراد الله ﷻ أن يقضي على عادة كانت عند العرب، وهي أنهم كانوا لا يتزوجون زوجة الابن المتبنى؛ فأراد الله ﷻ أن يقضي على هذه العادة بنبيه ﷺ ولذلك فإنه أوحى إليه ﷺ بهذا الأمر، ومع هذا

فإنه ﷺ خشي من ذلك لما يعرف تأصل العادات عند العرب واستمساكهم بها، ولهذا فإن الله ﷻ عاتبه في هذا الأمر، وقال له: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فالحكمة التي أراد الله من زواجه ﷺ من زينب هي التي ذكرها القرآن، ولكن المغرضين ما تركوا أمثال هذا الحق الواضح إلا وحاولوا أن يشوهوه بكل ما ادعوه على النبي ﷺ كذبًا وبهتانًا.

ب. أم حبيبة بنت أبي سفيان، وحكمة زواجه منها ﷺ:

كذلك فإنه ﷺ تزوج من أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان التي هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الذي لما وصل إلى الحبشة تنصر، وبقيت على إسلامها لم ترتد وبقيت على إسلامها؛ ولذلك كافأها النبي ﷺ بأن بعث عمرو بن أمية الضَمري يخطِبها للنبي ﷺ ويطلب من النجاشي أن يقوم بذلك الأمر، فتم زواج النبي ﷺ بهذه المرأة التي ثبتت على إيمانها.

كذلك فإنها بنت شيخ مكة -أبي سفيان- الذي يحمل لواء العداء للنبي ﷺ وللإسلام، وكان في هذا تقربًا كذلك إلى أمثال هذه البيوت العريقة التي كانت تفخر بزواج النبي ﷺ الذي كان شرفًا اعترف به أبو سفيان نفسه.

ج. صفية، وحكمة زواجه منها:

وكذلك تزوج النبي ﷺ من صفية بنت حُيي بن أخطب اليهودي الذي حمل لواء العداء للنبي ﷺ وأعلنه من يوم أن رآه في قباء حتى يوم أن قدم للقتل في "بني

قريظة" لما قال: والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك يا محمد، فهذه المرأة التي قتل زوجها وأبوها وأخوها تزوجها النبي ﷺ بعد أن وقعت في مِلك لدحية الكلبي، ولكن النبي ﷺ أشير عليه بألا يجعلها لدحية؛ لأنها أكرم من هذا، وإن في القوم من هو أكرم من دحية حتى لا يجد بعض المسلمين الكبار في أنفسهم من ذلك، ولذلك تزوجها النبي ﷺ عرض عليها أن تدخل الإسلام ويعتقها ويتزوجها؛ فتزوجها لذلك وكانت بنت شيخ "بني النَضير".

وهكذا نلاحظ أن نساء النبي ﷺ إنما ينتمين إلى بيوتات عريقة، وكان أولى بهن تكريم النبي ﷺ أيهن بالزواج.

د. ميمونة بنت الحارث وحكمة زواجه منها:

كذلك تزوج النبي ﷺ من ميمونة بنت الحارث الهلالية -أخت زوج عمه العباس- أم الفضل فتزوجها النبي ﷺ لأنها كانت لها أخوات كلهن مسلمات، ولذلك قال النبي ﷺ عنها وعن أخواتها: ((الأخوات المؤمنات)) يقصد ميمونة وأم الفضل وأسماء بنات الحارث.

هـ. حكمة الإباحة بهذا العدد:

وهكذا نرى أن الحكمة من هذا التعدد الذي أبيح للنبي ﷺ وحده في الإسلام وكان مباحًا من قبل بلا قيود عند العرب، ذلك لأن كل زوجة من هذه الزوجات كانت لها حكمة خاصة أراد الله ﷻ أن يتم زواج النبي ﷺ بها، لذلك ونحن أمام هذا لا نصغي إلى أمثال المغرضين الذي يعيبون هذا الأمر على النبي ﷺ ومهما قالوا: فإن وجه الحق ظاهر في أمر زواجه ﷺ وتعدد زوجاته أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن أجمعين.

أخلاق الرسول ﷺ

وفي الختام نتناول موضوعًا كريمًا هو دراسة نماذج من أخلاقه ﷺ ومن نحن حتى نتكلم عن أخلاق رسول الله ﷺ؟!

إن العبارات لتقصر -أي: البيان- أمام هذا الأمر العظيم الذي لن يسهل إلا بتسهيل الله ﷻ وإن وصف النبي ﷺ وتعرض لصفاته الخلقية والخلقية مما عني به كتاب السيِّر، ومما نقله لنا أصحابه -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين- الذين عاشوا مع النبي ﷺ ورأوا منه كرم الأخلاق: الحلم، والجود، والعفو، والتواضع، والحياء، إلى غير ذلك من الصفات الكاملة التي حباه الله ﷻ بها، الذي قال فيه -سبحانه-: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]. ليس هذا كلام شاعر أو نثر ناثر؛ وإنما هو كلام الله ﷻ الذي خلق نبيه وخلقه على هذا الخلق العظيم.

إن صفات الكمال التي وهبها الله نبيه محمدًا ﷺ حتى يكون رمزًا عظيمًا لهذه الرسالة التي كملت في كل شيء، كملت في كتابها خير الكتب، وفي رسولها خير الرسل، وفي أمتها خير الأمم، هذا الرسول العظيم الذي أرسله الله رحمة للعالمين، ووصفه ﷻ في كتابه العظيم: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أ. رحمته ﷺ:

قد كانت صفة الرحمة صفة ظاهرة في سلوكه ﷺ رحمة شملت كل شيء الرحمة بالناس؛ الرحمة بالحيوان، حتى الرحمة بالذين كفروا وآذوه، فكان ﷺ

يرحمهم ولا يدعو عليهم؛ حتى إنه ﷺ في شديد وقع الأذى عليه كان يقول: ((اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)) ولما سئل ﷺأن يدعو على "دوس" قال: ((اللهم اهد دوسًا واهد بهم))، كذلك دعا للطائف، كذلك دعا لثقيف فقال: ((اللهم اهد ثقيفًا وأت بهم)) دعوة رحمة من الله ﷻ.

وكان ﷺ يرحم الأم إذا بكى صغيرها، فإذا كان في صلاة يريد أن يطيل فيها فلقد كان يقصرها حينما يسمع بكاء الصبي شفقة به وبأمه ورحمة، كذلك فإنهﷺ كان يرحم حتى الحيوان، لما جاءه وفد ووقفوا راكبين على الخيل فأمرهم إما أن ينزلوا عنها فليست كراسي وإما أن يمضوا، كذلك فإنه ﷺ كأن يأمر بالرحمة والإحسان حتى بالذبيحة تذبح ويأمر بذلك: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة)) حتى الإحسان للعدو ولمن وجب عليه الحدّ والقتل.

ب. حلمه ﷺ:

كذلك فإنه ﷺ كان حليمًا بكل من عنف عليه أو ناله بأدب، كان ﷺ في مجلس مع أصحابه فدخل أعرابي فبال في المسجد، أي شيء أعظم من هذا؟! فهمّ الناس به، ولكن النبي ﷺ قال: ((دعوه، ولا تقطعوا عليه بولته، ثم أهريقوا على بوله سجلًا من ماء)) حلت المشكلة.

كذلك فإنه ﷺ لما جاءه رجل أعرابي يطلب منه، وكان ﷺ يلبس بردًا نجرانيًا غليظ الحاشية، فجبذ النبي ﷺ منه حتى أثر البرد في عاتق النبي ﷺ وصفحة عنقه، وقال: يا محمد أعطني من مال الله، لا أسألك من مالك ولا من مال أبيك، ومع هذا تبسم النبي ﷺ له بعد أن همّ الصحابة به، ولكنه ﷺ أخذه فأعطاه وزاده وأحسن إليه، وأراد منه أن يخرج إلى الصحابة فيترضاهم؛ لأنهم

وجدوا في أنفسهم على ذلك الرجل لما فعل ذلك برسول الله ﷺ فخرج الرجل يشكر النبي ﷺ ويثني على عطائه، وهنا توجه النبي ﷺ لأصحابه وقال: إن مثلي ومثل هذا كمثل رجل نفرت راحلته -شردت منه راحلته- فتبعها الناس يطلبونها، وكلما زادوا في طلبها زادوها نفورًا وشرودًا، فقال لهم صاحبها: خلوا بيني وبين راحلتي فإني أعلم بها، ثم أخذ شيئًا من خشاش الأرض وضعه في حجره وأشار به إليها فجاءت إليه راغبة طائعة، فهكذا مثلي ومثله، ولو تركتم وإياه فقتلتموه دخلتم النار.

ج. عفوه ﷺ:

كذلك فإنه ﷺ كان متسمًا بالعفو لكل من أذاه، ولا أدل على ذلك من أهل مكة الذين أخرجوه منها وتابعوه يريدون قتله وهو في طريقه إلى المدينة، وظلوا يحاربونه نحوًا من ستة أعوام، ومنعوه دخول مكة معتمراً، بل إنه طلب منه أن يخرج في عمرة القضاء في السنة السابعة وما سمحوا له أن يبقى فيها يومًا بعد الثلاث، ومع هذا لما دخل مكة فاتحاً، فإنه ﷺ قال لهم: يا أهل مكة ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

د. حياؤه ﷺ:

وكان ﷺ حييًّا شديد الحياء أكثر من العذراء في خدرها ﷺ.

هـ. كرمه ﷺ:

كما أنه كان كريمًا غاية الكرم يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، يعطي العطاء الجزيل حتى إنه جاءه أعرابي فأعطاه غنمًا تملأ واديًا بين جبلين فذهب إلى قومه، وقال: إن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر؛ فكان ذلك سببًا في إسلامه

وإسلام قومه، كذلك فإنا نرى عطاء النبي ﷺ للمؤلفة قلوبهم يوم حنين من أهل مكة، ومن المؤلفات قلوبهم كان يعطي عطاءً واسعاً، كان يعطي المائة بعير للرجل، أعطى أبا سفيان وابنه معاوية، وكذلك أعطى يزيد بن أبي سفيان وكثيرين من أهل مكة ممن كانوا حديث عهد بإسلام، بل ربما أعطى من لم يكن قد أسلم بعد، كما أعطى صفوان بن أمية في المهلة التي اختارها حتى يدخل في الإسلام بعد أن عفا النبي ﷺ فإنه أعطاه عطاء جزيلًا حتى لم يبقَ للأنصار شيء فوجدوا في أنفسهم من ذلك، ولكن النبي ﷺ لما جمعهم فقال لهم: ((أترضون الناس بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله؟ والله إني لأعطي الرجل وغيره خير منه، لا أعطيه ثقة بإيمانه، فرضي الأنصار)).

و. تواضعه ﷺ:

كما كان ﷺ متواضعًا شديد التواضع لا يحب أن يتميز على أصحابه في شيء، فها نحن قد عرفنا إصراره على أن ينزل ويمشي حينما خرج المسلمون إلى بدر يتعاقبون الإبل الثلاثة والأربعة، ولما جاءت نوبة النبي ﷺ مع زميليه علي ومرثد بن أبي مرثد الغنوي لما جاء دوره في أن ينزل ويمشي قال: عرض عليه ﷺ أن يظلّ راكبًا ويكفونه مؤنة السير؛ فأبى من ذلك ﷺ وقال: ((لستما بأقوى مني على السير، ولست بأزهد منكم في الأجر)).

ونجده في "الأحزاب" ينزل ويباشر أمر الحفر، وحمل التراب حتى تغبر صدره ووجهه وبطنه الشريف ﷺ ما امتنع ذلك، بل كان مقصد الصحابة فيما يصعب عليهم من الصخور التي كانت تعتريهم في حفر "الخندق" فيفزعون إليه ﷺ فيتولى أمرها بفضل الله؛ كذلك فإنه ﷺ لما كان يختص بأمر خاص به كطعام يدعى إليه، فإنه ما كان يستأثر نفسه، وإنما كان يدعو المسلمين معه، وها هو يدعوهم في حفر "الخندق" لطعام صنعه جابر بن عبد الله، دعا الناس كلهم

وبفضل الله ﷻ كفاهم، لم يرد أن ينسل وحده من بينهم حتى يذهب إلى هذه الدعوة الخاصة له التي حددها صاحب الطعام ولكن النبي ﷺ ما أراد أن يستأثر بشيء من ذلك، وأراد أن يشرك الرجال معه ما داموا يعملون كلهم في سبيل الله؛ فلا بد أن تكون المقاسمة في كل أمر واحدة.

كذلك فإنه ﷺ لما كان يأتيه طعامٌ منيحة أو هدية فإنه كان يدعو لها أهل الصفة فقراء المسلمين الذين كانوا يعيشون معهﷺ في صفة المسجد، وهو بجوارهم في حجرته اللصيقة بهم.

وهكذا نراه ﷺ بهذا الإيثار الذي يعطي فيه كل ما يأتيه ولا يختص به نفسه ﷺ.

كذلك فإنه ﷺ كان وفيًّا كريمًا يلتزم الوفاء مع كل إنسان عاهده على أمر، وها نحن نرى أمره في "صلح الحديبية" يرد أبا جندل لما جاءه مستغيثًا به ﷺ وبالمسلمين ألا يرده إلى المشركين ومع هذا: فإنه ﷺ أمره بأن يرجع وفاءً بما تعاهد عليه النبي ﷺ مع قريش، كذلك فإن حذيفة بن اليمان يحكي أمرًا حينما جاء والنبي ﷺ على استعداد للقتال في "بدر"، فأخبر النبي ﷺ لما اعترضته وأباه وهما في طريقهما إلى المدينة ولم تتركهما يمضيان في طريقهما إلا بعد أن أخذت عليهم عهدًا ألا يقاتلاهم مع النبي ﷺ فلما أخبر رسول الله ﷺ بأمرهما مع قريش ما كان منه # إلا أن أمرهما بالالتزام بالوفاء بعهدهما معهم، وقال لهم: "فيا لهم بعهدكما، ونحن نستعين الله عليهم".

ز، زهده ﷺ:

ومن أخلاقه # الكريمة زهده وتقشفه وأخذه من الدنيا بالقليل اليسير، فإنه # ما شبع من طعام قط ولا أكل من النقي -وهو الدقيق المنخول- وما كان يأكل إلا الشعير، وما كان ينخل؛ فإنهم ما كانوا يعرفون المناخل، وإنما كان ينفضونه فيتطاير القليل من قشره وما يبقى يُعجَن ويُخبَز للنبي ﷺ فيأكل منه.

كذلك فإنه # كان يطوي اليوم واليومين والثلاثة جائعًا ما يأكل ؛ لأنه لا يجد ما يأكله ، وها هي عائشة { تحكي بأنه كان يمر الهلال إلى الهلال إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ، وما يوقد في بيت نساء النبي ﷺ نار لطبخ ، ولما سئلت : فماذا كان طعامكم؟ قالت : الأسودان التمر والماء ، ﷺ إذا كان طعامه على هذا النحو الذي كان يقول فيه # : ((أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد)) ﷺ كذلك فإنه # ما كان ينام على وثير الفراش ، وإنما هو حصير أثر في جنبه ، بكى عمر لما رأى أثر الحصير في جنبه ﷺ ، وقال : يا رسول الله لو اتخذت فراشًا أوثر من هذا ، فقال # : ((ما لي وللدنيا ، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها)).

كما أنه # قال فيما رواه البخاري عن أبي هريرة : ((لو أن لي مثل أحد ذهبًا ما سرني أن تأتي علي ثلاثة ليالٍ وعندي منه شيء ؛ إلا شيء أرصده لدين)). وكان # يقول : ((اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا)). أي : لا ادخار فيه ، والقوت هو قوت اليوم خاصة ، وقد أقسم أبو هريرة قائلاً : ((والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعًا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا)).

ويذكر أنس بن مالك > أن فاطمة ناولت رسول الله ﷺ كِسرة من خبز الشعير ، فقال : ((هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام)).

هذا ، وإن أمثلة زهده ﷺ ليست فرادى في حياته ، وإنما حياته كلها كانت زهدًا والتزامًا بالعزوف عن نعيم الدنيا ومتاعها.

إذا كان هذا في الطعام فقد كان كذلك في اللباس ، فلما يكن يسبل إزاره وإنما كانت سنته # التي أمر به أصحابه أن يكون إزاره إلى منتصف ساقه ﷺ ،

كذلك فإن فراش بيته كان على هذا التواضع فراش من حصير أو كساء ما كان يرضى أن يثنى في طيه، وكان يعتبر ذلك تنعماً، ولما فعلوا ذلك يومًا بفراشه ﷺ أمرهم أن يردوه على ما كان عليه، وتحكي عائشة < فتقول: ((دخلت عليّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فانطلقت فبعثت إلي فراش حشوه الصوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: قلت: يا رسول فلانة الأنصارية دخلت عليّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت إلي بهذا، فقال: رديه. فقالت: فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات، قالت: فقال: رديه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة)).

وقد سألت حفصة: ما كان فراش رسول الله ﷺ قالت: "مسح نثنيه ثنيتين فينام عليه، فلما كان ذات ليلة قلت: لو ثنيته له بأربع ثنيات كان أوطأ له، فثنيته بأربع ثنيات، فلما أصبح قال: ما فرشتم لي الليلة؟ قلنا: هو فراشك إلا أنا ثنيناه لأربع ثنيات، قلنا: هو أوطأ لك، قال: ردوه لحاله؛ فإنه منعتني وطاءته صلاتي الليلة".

ح. شجاعته # :

وكان من صفاتهﷺ وأخلاقه الكريمة التي كانت مناسبة أتم التناسب لهذه المهمة التي اختاره الله لها، وهي الرسالة التي تحتاج إلى الجهاد، هذه الصفة التي طبعه الله عليها -وهي الشجاعة والإقدام-، فلقد كان # يباشر أمر القتال ثابتًا لا يتزحزح عن موقفه وعن مكانه مهما كانت الشدائد في الموقف وفي المعركة، وإنه كان يعتبر بأن الله ﷻ أمره بالثبات ولو وحده: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ [النساء: ٨٤]، ولقد كان يوم بدر يباشر القتال مع ما كان

يباشره من أمر القيادة والانشغال بالقيادة والتضرع والسهر الليل كله وأصحابه كلهم نيام يحرسهم ؛ لأن العدو قريب منهم ، وهو يعلم أنهم قد أصابهم التعب فظل يحرسهم هذه الليلة ، ولما أصبح ﷺ وباشر القتال كان أدنى الناس إلى العدو ، بل إن عليًا يقول : "كنا إذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس كنا نلُذ برسول الله ﷺ فما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه". هذا في "بدر" وفي "أحد" لما حدثت المصيبة ونزلت بالمسلمين وفر المسلمون ثبت النبي ﷺ ومعه بعض المهاجرين والأنصار ينادي على المسلمين ((إليّ إليّ عباد الله)) ، ويدعوهم في أخراهم حتى يرجعوا ، وكان ثباته ﷺ وشجاعته في الموقف هذا سببًا في أن يئوب المسلمون إلى رسولهم ﷺ ، ويوم حنين لما فجئتهم هوازن نكصوا على أعقابهم ، وثبت النبي ﷺ وظل يصول ويجول بسيفه ويقول : ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)) ﷺ.

بل إن كل أمر كان ينوب المسلمين كان يقدم ﷺ المسلمين في معرفته والوقوف عليه ، فقد حدث أمر فزع في ليلة بالمدينة وهبَّ الناس يريدون أن يعرفوا ما هذا ، وخرجوا له ؛ فرأوا النبي ﷺ عائدٍ من قبل الصوت يركب فرسًا لأبي طلحة عريًا ليس عليه سراج ، ويقول لهم : ((لم تراعوا)) كذا كانت أخلاق النبي ﷺ.

وهذه نماذج منها ، ولو أننا أخذنا نتكلم فيها إلى ما شاء الله لنا لن يكفينا وقت ولن تسعنا صحف ، ولن تكفي أقلام لتسطر هذه الأخلاق الحميدة الكريمة التي كان عليها نبينا محمد ﷺ ؛ ولذا فإننا نكتفي بهذه الأمثلة من هذه الصفات الكريمة التي اقتصرنا على بعضها ، والله الموفق للصواب.

معجزات الرسول ﷺ ومعجزات في حياة الأنبياء قبله

مما لا شك فيه أن الله ﷻ أيّد رسله بمعجزات تصدقهم عند أقوامهم، وكانت معجزات الرسل تتناسب مع ما يكون سائدًا في عصورهم وفي عهودهم.

فمثلاً: نجد موسى: وقد برع الناس أيامها في السحر، فجاءت معجزة العصا والمعجزات الأخر التي بعثه الله بها ﷻ إلى فرعون فآمن بها من آمن وكفر بها من كفر.

وعيسى # : الذي كان في أيام برع الناس فيها في الطب، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحي الموتى -بإذن الله-.

أما نبينا ومن قبله: طلب قوم صالح آية واضحة؛ فأتاهم صالح بالناقة وفصيلها كما طلبوا، ولكنهم كفروا بهذه الآية التي جاءت وفق ما طلبوا وأكثر؛ ولذلك فإن الله ﷻ كرم هذه الأمة أمة محمد ﷺ بأن وهبها إيمانًا صادقًا وقلوبًا مؤمنة لم يشأ -سبحانه- أن تأتي الآيات على نحو ما كانت تأتي من قبل؛ لأن حيث قال الله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] لأنه إذا جاءت الآية ولم يكن الإيمان كان العقاب والعذاب؛ ولذلك رزقت هذه الأمة قلوبًا طيبة رقيقة تؤمن بالله ولا تحتاج إلى المزيد من المعجز من الأمر حتى تصدق، بل إن أمر المعجزة ربما لا يكون سببًا في الإيمان، فها هي ثمود قد عقرت الناقة، الآية التي طلبتها فكان هلاكها، وها هم بنو إسرائيل رأوا من الآيات ما لم يروه السحرة؛ لأن السحرة رأوا العصا فخروا لله ساجدين قائلين: أمنا بالله رب العالمين رب موسى وهارون، أما هؤلاء رأوا هذه الآيات، ورأوا انفلاق البحر، ورأوا أن الماء ينبجس من الصخر، ورأوا آيات المن والسلوى كل ذلك رأوه، ومع ذلك لم

يدفع هذا بني إسرائيل إلى الإيمان والتصديق ؛ ولذلك نجدهم بعد أن عبروا البحر ناجين ورأوا بعينهم هلاك عدوهم فإنهم لما جاوزوا البحر قالوا لموسى كما تقول الآية : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠].

ها هم بعد رؤيتهم هذه الآية الخارقة وهي : فلق البحر يطلبون أن يعبدوا غير الله ولمّا أتتهم الآيات تباعًا من غير ذلك ما وسعهم إلا أن يقولوا : يا موسى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] إذًا فليست العبرة بالمعجزة وعظمتها ولا بكثرة المعجزات حتى يؤمن الناس ، وإنما الإيمان هبة من عند الله ؛ لأن القلوب تختلف في قبول الحق حتى وإن تأيد بالمعجزة ؛ ولذلك فإن نبي الله ﷺ ما كان يلبي لما تطلب منه الآيات : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

إذًا : فالعبرة هنا ليست إجراء المعجزة كما يطلبها الكافرون تعنتاً ، إنما كان أمر المعجز الذي أتاه الله نبيه محمد ﷺ إنما هو الوحي العظيم المبارك ؛ ولذلك قال ﷺ : ((ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله أمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله ﷻ إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا)).

ولما طلب منه كفار قريش الآيات: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن ﴾. جاء الأمر ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩، ٥٠]. على أن الآيات إنما يراها المعاصرون للأنبياء الذين كانوا في خصوصية مكان وخصوصية زمان، أما هذه الأمة أمة الإسلام فإنها لا يحدها زمان ولا مكان؛ ولذلك كان هذا القرآن العظيم الآية العظمى والمعجزة الكبرى التي أعجزت العرب أيام البلاغة والفصاحة، وأعجزت العلماء أيام ارتقاء العلم وبلوغه أوج الكمال؛ ولذلك فإن الله ﷻ جعل هذا القرآن معجزًا بلفظه للعرب أرباب الفصاحة والبلاغة، ومعجزًا للعلماء أهل العلم الذين ربما لا يعرفون فصاحة الكلام ولا بلاغته، وإنما يعرفون الحقائق الكونية التي ذكرها الله ﷻ في كتابه العزيز وهي تأتي وتتجدد جيلًا من بعد جيل؛ لأن حظ كل جيل من إعجاز القرآن يحفظه الله له: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

معايشة المؤمنين لمعجزاته ﷺ

إن المعجزات التي أجراها رب العزة علي يد نبيه ﷺ لكأنها كانت خاصة بالمؤمنين به؛ تزيدهم إيمانًا مع إيمانهم، ومن ذلك ما كان يرونه منه ﷺ من معجز الأمر في أمور كثيرة.

أ. معجزة تكثير الماء:

ومن ذلك لما احتاجوا إلى الماء يوم "الحديبية"، وكانت البئر ناضبة فإن النبي ﷺ أخرج سهمًا من كنانته وأمر بأن يغرس في البئر ففاض بالماء فشرب الناس وما

معهم من الأنعام والإبل، ويوم "تبوك" كذلك لما نزح رجلان مما كان مع المسلمين ماء بئر نهى النبي ﷺ أن يشرب منها أحد، فلما جاء ووجد أن البئر لم يعد فيها إلا النذر اليسير الذي لم يكد يغرف، فجمع للنبي ﷺ فغسل ﷺ وجهه ويديه ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس، ثم قال ﷺ لمعاذ: ((يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا قد ملأ جنانًا)). وقد حدث بالفعل ما أخبر به النبي ﷺ.

ب. معجزة تكثير اللبن:

كما أنه ﷺ كان له بركة وإعجاز في إكثار اللبن الذي حكا أمره أبو هريرة لما تعرض جائعًا لأبي بكر وعمر يريد أن يقريه واحد منهما لجوعه، ولكن النبي ﷺ لما رآه وعرف ما به دعاه وذهب إلى بيت من بيوت نسائه وسأل: ((هل عندكم من شيء؟)) فقيل: منيحة لبن بعث بها آل فلان، فقال النبي ﷺ لأبي هريرة: ((ادعُ لي أهل الصفة))، فقال أبو هريرة -في نفسه-: وما يقع هذا اللبن في أهل الصفة؟! لأنهم كثير، لكنه ما كان من أمر رسول الله من بد فدعاهم، فقال: ((مر عليهم يا أبا هريرة فاسقهم)) فشربوا جميعاً، ثم قال له النبي ﷺ: ((اشرب يا أبا هريرة)) ثم قال ﷺ: ((اشرب)) فشرب، ثم قال له: ((اشرب)) فشرب، ثم قال له بعد ذلك: ((اشرب))، قال: والله يا رسول الله ما عُدت أجد له مسلكاً؛ لقد كاد الري أن يخرج من أظافري، وهكذا كفى هذا النزر اليسير من الطعام من اللبن هذا الجمع الكثير كذلك.

فإنه ﷺ في أزمة حفر "الخندق" حينما يدعو جابر بن عبد الله رسول الله ﷺ ورجلين معه إلى طعام لا يكفي غير ذلك، ولكن النبي ﷺ ينادي في أهل الخندق، وكانوا نحوًا من ألف فيخرج بهم إلى بيت جابر، ويطعم الجيش كله من هذا الطعام الذي أعده جابر لرسول الله ﷺ ورجل أو رجلين معه بركة من الله ﷻ.

ج. معجزة تكثير التمر:

كذلك فإنه ﷺ كانت له بركة كذلك في إكثار التمر، فلقد حكا أبو هريرة أنهم كانوا في غزوة واحتاجوا إلى طعام، فجمع ما في العسكر من تمر فبلغ أحد وعشرين تمرة كما عدها أبو هريرة، كان النبي ﷺ يأخذ التمرة فيذكر الله ويسميه ويضعها، ثم غطاها ﷺ وأخذ يطعم الناس معه الواحد تلو الآخر من هذا التمر، ثم بقيت بقية أعطاها النبي ﷺ أبا هريرة ووضعها له في مزود، وقال له: إذا أردت أن تأكل فمد يدك ولا تنثره، ففعل ذلك أبو هريرة > فكفاه هذا التمر بقية حياة النبي ﷺ وحياة أبي بكر وحياة عمر وحياة عثمان كلها حتى فقد في الثورة على عثمان > وكان هذا المزود من الأمور التي حزن أبو هريرة عليها.

كذلك فإنه ﷺ لما دخل مكة كان يشير مجرد إشارة إلى الأصنام يوم الفتح فكانت تنكفئ على وجوهها، ويقول: ((جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد)).

د. معجزة انقياد الشجرة:

ومن الأمور المعجزة كذلك انقياد الشجر له ﷺ كما روى مسلم عن جابر بن عبد الله أنه رأى النبي ﷺ وقد انطلق إلى حاجته ونزل واديًا به شجرتان، فأخذ ﷺ بغصن من أغصان واحدة منها وقال: ((انقادي علي بإذن الله تعالى فانقادت معه كالبعير المخشوش حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فانقادت معه بأمر الله حتى اجتمعتا والتأمتا عليه فسترتاه، ثم بعد ذلك أمرهما: أن ترجع كل واحدة منهما إلى مكانها بأمر الله فرجعتا)).

كل ذلك يراه المؤمن فيزداد إيمانًا بالنبي ﷺ بل إن شجرة من الأشجار هي التي أخبرت النبي ﷺ بالجن الذين جاءوا فاستمعوا القرآن إلى غير هذا من المعجزات العظيمة.

هـ. معجزة إخبار الغيب:

والتي كان من إخباره ﷺ أصحابه بأمور غابت عنهم، كما أخبر بما حدث لأهل الرجيع وبئر معونة ولشهداء مؤتة، وكما أخبر بمقتل كسرى وبمقتل الأسود العنسي إلى غير ذلك من الأمور العظيمة، وهذا رجل من الأنصار ورجل من ثقيف جاءا إلى النبي ﷺ يسألانه فقال: ((إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه، وإن شئتما تركتكما تسألان)) فقال: بل تخبرنا أنت يا رسول الله فأخبر # بما جاء يسألان عليه.س

وكذلك أخبر عمير بن وهب الجمحي لما تعاهد مع صفوان بن أمية لقتل النبي ﷺ وجاء يتعلل بأخذ ولده الأسير، ولكن النبي ﷺ أخبره بما اتفق عليه مع صفوان، فقال: أشهد أنك رسول الله فوالله ما كان معنا أحد وما سبقني إليك أحد فآمن.

إلى غير ذلك من المعجزات العظيمة الكثيرة التي أيد الله به رسول الله ﷺ وكرم بها هذه الأمة الكريمة عند الله ﷻ.

هذا، ونسأل الله ﷻ أن ينفعنا بسيرة النبي ﷺ والحمد لله أولًا وآخرًا.

قائمة المراجع العامة

١. (**الروض الأنف**).

عبد الرحمن بن عبد الله السهلي ، تحقيق : مجدي منصور سيد الشورى ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٧م.

٢. (**السيرة النبوية الصحيحة**).

أكرم ضياء العمري ، مكتبة العلوم والحكم ، ١٩٩٢م.

٣. (**غزوات النبي صلى الله عليه وسلم في ضوء القرآن والأحاديث**)

محمد غوث الندوي ، دار السلفية ، ١٩٨٣م.

٤. (**سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**)

محمد بن يوسف الصالحي ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، ١٩٧٣م.

٥. (**الطبقات الكبرى**)

محمد بن سعد بن منيع الزهري ، دار صادر للطباعة والنشر ، ١٩٩٨م.

٦. (**السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة**)

محمد بن محمد أبو شهبة ، دار القلم ، ١٩٩٦م.

٧. (**السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي**)

أحمد غلوش ، مؤسسة الرسالة ، ٢٠٠٣م.

٨. (**الرحيق المختوم**)

صفي الرحمن المباركفوري ، دار الشرق العربي ، ٢٠٠٣م.

٩. (**الرياض النضرة في مناقب العشرة**)

أحمد المحب الطبري ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ.

١٠. (**سير أعلام النبلاء**)

محمد شمس الدين الذهبي ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٤م.

١١. (**السيرة النبوية**)

أبو محمد عبد الملك ابن هشام الأنصاري ، دار الكتاب العربي ، ٢٠٠٥م.

١٢. (**فقه السيرة النبوية**)

محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ، دار الفكر اللبناني ، ١٩٨٧م.

١٣. (**فقه السيرة**)

محمد سعيد البوطي ، دار الفكر ، ٢٠٠٢م.

١٤. (**البداية والنهاية**)

إسماعيل بن كثير . دار الكتب العلمية ، ٢٠٠١م.

١٥. (**تهذيب سيرة ابن هشام**)

عبد السلام هارون ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٦م.

١٦. (**أوائل المؤلفين في السيرة النبوية**)

عبد الشافي محمد عبد اللطيف ، القاهرة ، طباعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ٢٠٠٥م.

١٧. (**مصادر السيرة النبوية وتقويمها**)

فاروق حمادة ، الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ١٩٨٠م.

١٨. (**السيرة الحلبية : أمان العيون في سيرة الأمين المأمون**)

علي برهان الدين الحلبي ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٤٠٠هـ.

١٩. (**الدرر في اختصار المغازي والسير**)

يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠١م.

٢٠. (**الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم**)

القاضي عياض بن موسى اليحصبي ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٦م.

